الإعجاز العلمى

فى القرآن الكريم

لفضيلة الإمام

محمد متولى الشعراوى

أعده وعلق عليه وقدم له

عبد الرحيم محمد متولى الشعراوى

المكتبة التوفيقية

إهـــــــداء٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

الإعجاز العلمي

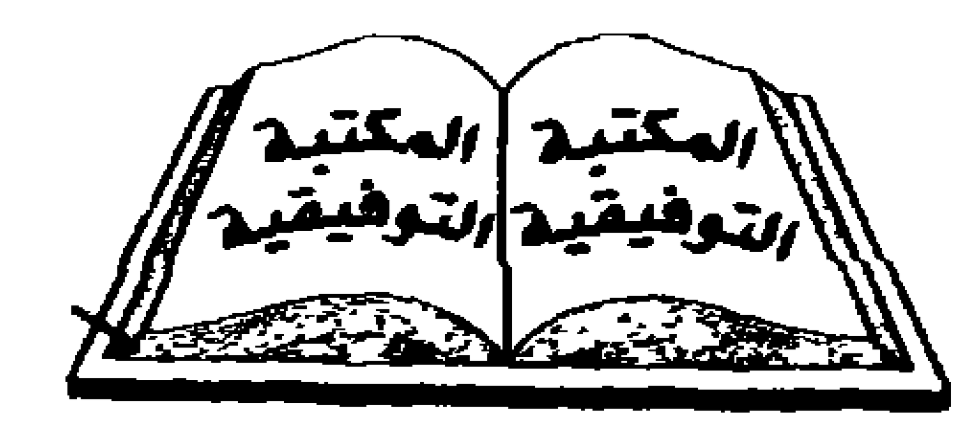
في القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ

محمد متولي الشعراوي

أعده وجمع المادة العلمية

عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠

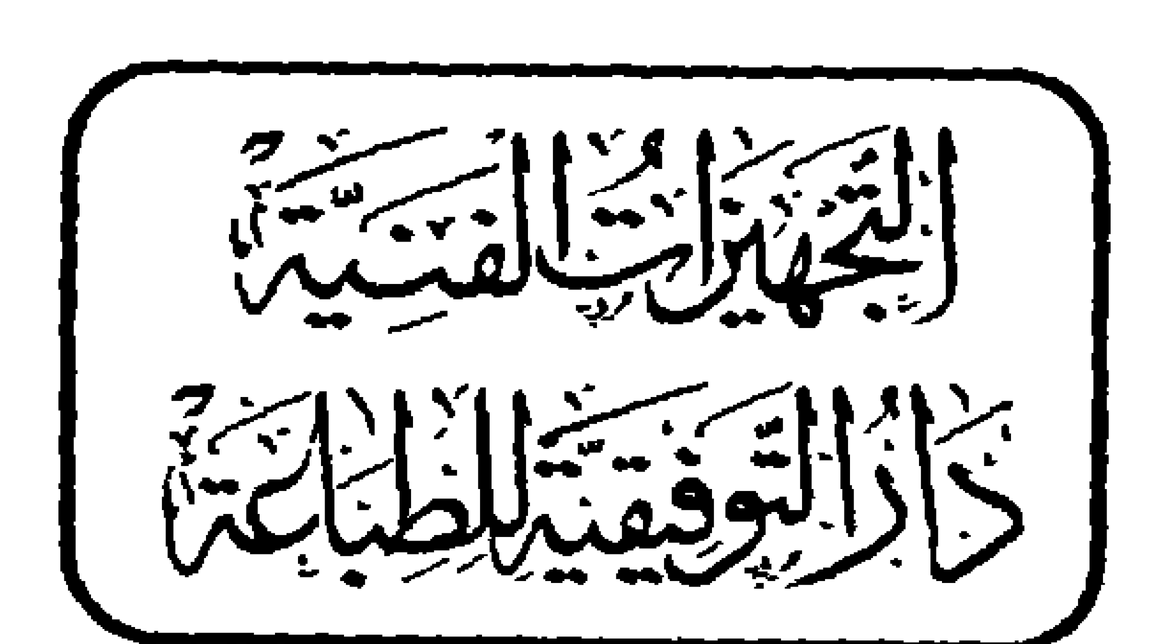
المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt
Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel . (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد أذن الخير التي استقبلت آخر إرسال السماء لهدى الأرض، ولسان الصدق الذي بلغ عن الحق مراده من الخلق، وعلى آله وصحبه، دعاة الحق، وسادة الخلق.

وبعد . . .

إن القرآن له عطاءان . . عطاء الفروض والأحكام، وهو واضح لا لبس فيه، والتفسير الذي حدث في عهد النبي ﷺ ملزم حتى تنتهي الأرض ومن عليها.

وأما معجزات القرآن هذه فيزداد لها العالم فهمًا، كلما تقدم العلم كشف الله للناس عن آياته في الأرض.

ومن هنا فإن عطاء القرآن في هذه الناحية هو عطاء متجدد، لا ينتهي أبدًا، أعطى الأجيال التي قبلنا، وسيعطي الأجيال التي بعدنا.

وله عطاء مستمر لا ينتهي إلا بقيام الساعة، ومن هنا فإن المعجزة مستمرة، ونواحي الإعجاز في القرآن في كل عصرٍ، وزمانٍ، ومكانٍ موجودة.

والأيام القادمة قد تكشف تفسيراً لبعض الآيات، نكون نحن عاجزين عن فهمها الفهم الصحيح.

فالنبي ﷺ لم يفسر القرآن كله مجملاً في حياته ، وإلا لتعطلت إعجازته الفكرية، والعلمية المتنوعة، ولكنه فسر آيات الأحكام والتشريع والتكليف، لأن التكليف لابُدَّ من بلاغه موضحًا مبينًا.

تعريف القرآن الكريم وبيان إعجازه

القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله سيدنا محمد ﷺ والمتعبد بتلاوته والمتحدي به الإنس والجن والعالمين .. ولم يتحد الله به الملائكة.. لأن الملائكة ليس لهم اختيارات يعملون بها..إنما هم يفعلون ما يؤمرون .. ومن هنا فإن القرآن يتحدى كل القوى المختارة .. أو التي لها اختيار.. أو التي ميزها الله بقدرة العقل والفكر والاختيار..

على أننا قبل أن نتحدث عن معجزة القرآن.. فإننا يجب أولاً أن نحدد ما هى المعجزة؟ .. المعجزة هى خرق لنواميس[1] الكون.. أو لقوانين الكون.. يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله ليدل على منهجه .. ويثبتهم به.. ويؤكد للناس أنهم رسله تؤيدهم السماء وتنصرهم .. والسماء حين تؤيد وتنصر، تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئًا.

ولكننا حين يأتي إنسان ويقول أنه رسول من عند الله جاء ليبلغ منهجه.. أنصدقه؟ .. أم أننا نطالبه بإثبات ما يقول؟ .. إذن كان لابد أن تجيء مع كل رسول معجزة تثبت صدقه في رسالته في بلاغه عن الله..

* * *

(١) النواميس: القانون أو الشريعة، والمفرد : النَّامُوسُ. المعجم الوجيز (ص/ ٦٣٥).

تميز معجزات الله تعالى

ومعجـزات الله تتميز عن أية معـجزات أخرى تمييزًا واضحًـا قادرًا . . فهى أولاً تأتي وتتحدى من أرسل فيهم الرسول فيما نبغوا فيه . . لماذا؟ لأن التحدي فيـما لا ينبغ فيـه القوم لا يعتـبر تحديًا . . فـمثلاً إذا جئنا بـبطل العالم في رفع الأثقال . . وتحدينا به رجلاً عاديًا . . لا يكـون هناك مجال للتحدي . . لماذا؟ . . لأن المتحـدي لم ينبغ في نفس جنس العمل الذي أريـد أن يتم فيه التـحدي . . ولكننا إذا جئنا ببطلين من أبطال العالم . . فإن التـحدي يكون بينهما واضحًا . . ويكون له معنى فيمن يثبت أنه هو الأقوى . .

وإذا جئنا بإنسان قد نبغ في الطب مثلاً . . وأرسلناه إلى بلد ليس فيه طبيب . . فلا يعتـبر هذا تحديًا . . لأنه لا يمكن أن يجد هذا الطبيب من ينافـسه بحيث يكون هناك مجـال للتحدي . . ولكننا إذا جئنـا بهذا الطبيب وأرسلناه إلى أكبـر عواصم الطب في العالم . . هنا يكون تحديًا لهذا الطبيب . . هو تحد بقوة العقل حيث إننا وضعناه في اختبار مع أكبر مـا في عصره من قوة يمكن أن تواجهه . . نكون بذلك قد وصلنا إلى نقطتين . . النقطة الأولى . . أن المعجزة يجب أن تكون خرقًا لقوانين البشر ولا يقدر عليه إلا الله سبحـانه وتعالى الذي وضع هذه القوانين . . وثانيتهما أن المعجزة مـعجزة كل نبي يجب أن تكون مما نبغ فـيه قومه حتى يـكون التحدي نابغًا وقويًا . . وإثباتًا علـى قدرة الله سبـحانه وتعالى . . فـلا آت بقوم نبـغوا في الطب مثـلاً وأرسل لهم معجـزة في البلاغة . . أو آت بقوم قـد نبغوا في البـلاغة وأرسل لهم معـجزة في الطب . . هنا الإحـساس بالمعجـزة لا يكون فيه التـحدي القوي للإنسان . . فالتحدي يجب أن يكون في أمـر نبغ القوم فيه حتى لا يتحدى الله قومًا بأمر لا يعـرفونه . . ولا موهبة لهم فيه . . وحتى يكون للتـحدي قيمة . . ومن هنا كانت معجزة كل رسول فيما نبغ فيه قومه . .

على أن المعجزة لا تـأتي فقط بخرق[1] القوانين.. والتـحدي.. وإنما توفر أسباب هذا الـتحدي.. بمعنى أن القوم الذين يريد الله أن يتـحداهم يمكنهم من الأسباب كلها.. ثم بعد ذلك يعطل الأسباب .. فلا يتم الفعل.. ولنعط أمثلة سريعـة على ذلك.. مثلاً معـجزة نجاة إبراهيم – عليـه السلام – ومعجـزة نجاة موسى – عليـه السلام – كلتـاهما مـعجـزة.. وضعت فيـها الأسـباب.. ثم عطلت.. معجزة إبراهيم جاءت تحد في قـوم يعبدون الأصنام.. ويسجدون لها ويقدسـونها .. ولذلك عندمـا أرادوا إحراق إبراهيم كـانوا يريدون أن ينتقـموا لآلهتهم وهى الأصنام.. وكـان الانتقام معداً بالشكل الذي يمجد هذه الأصنام .. ويجعل إبراهيم عبرة لكل إنسان تسول له نفسه أن يهينها أو يكفر بها..

جـاءوا بإبراهيم.. وأمـام آلهـتـهم وفي حـمـايتـهـا.. أوقـدوا ناراً هائلة ليحرقوه.. والحرق هنا أمام الآلهة وعلى مـشهد منها ليكون الانتقام من إبراهيم انتقامًا تباركه الآلهة وتجعله رهيبًـا.. وجاءوا بالحطب ووقفوا أمام آلهتهم مصدر قوتهم.. وأوقـدوا النار الهائلة .. كل شيء هـنا معد لتـمجيـد آلهة غـير الله سبحانه وتعـالى.. وأتوا بإبراهيم.. والسؤال هنا لماذا جعلهم الله يأتون بإبراهيم ليـحرقوه فـي النار أمام آلهـتهم.. كـان من الممكن أن يختـفي إبراهيم في أي مكان.. ولا يظهر.. وكـانت هذه مسألة ممكنة تقي إبراهيم الحـرق وتجعلهم لا يعـثـرون عليـه.. ولكنـه لو حـدث هذا لقـالوا لو أننا قـبـضنا عـلى إبراهيم لأحرقناه.. وكانت ستظل قوة الآلهة المزيفة التي يعبدونها مسيطرة عليهم في أن لها قـدرة النفع والضر.... وأنها تنفـع من يعبدها.. وتضـر من يؤذيها، وأنه لولا هرب إبراهيم لأحـرق في النار ودمـرته آلهـتهم وهى الأصـنام تدميـراً.. ولذلك كان لابد ألا يهرب إبراهيم بل يقع في أيديهم ليشهد القوم جميعًا سفاهة معتقداتهم وعجزها أمام قدرة الله.

---

(١) خرق: يقال: خرق الشيء خرقًا: شقه ومزقه. المعجم الوجيز (ص/ ١٩٣).

وكان من الممكن أن تنطفئ النار لأي سبب من الأسباب.. كأن ينزل المطر من السماء فتنطفئ النار.. ولكن هذا لم يحدث.. لماذا؟ .. لنفس السبب، لأنه لو انطفأت النار لقال الكفار أن آلهتنا كانت قادرة على أن تحرق إبراهيم.. ولكن السماء أمطرت.. ولو أن السماء لم تمطر لانتقمت آلهتنا منه بالحرق..

فإبراهيم لم يهرب.. بل وقع في أيديهم.. والنار لم تنطفئ.. بل ازدادت اشتعالاً ثم ألقوا بإبراهيم في النار، فإذا بالله سبحانه وتعالى يبطل خاصية الإحراق في النار.. وتكون برداً وسلاماً على إبراهيم.

إذن فمعجزة إبراهيم ليست أن ينجو من النار.. ولو أراد الله أن ينجيه من النار ما أمكنهم من القبض عليه.. أو لنزلت الأمطار لتطفئ النار.. ولكن الله شاء أن تظل النار متأججة محرقة قوية .. وأن يؤخذ إبراهيم أمام الناس ويرمي في النار.. ثم يعطل الله ناموس أو قانون إحراقها.

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾(١).

فتعطل إرادة الله خاصية إحراق النار.. وتقف آلهتهم تلك التي حطمها إبراهيم والنار متأججة.. وإبراهيم ملقى في النار.. تقف آلهتهم التي أرادوا الانتقام لها أمام الملأ أجمع.. تقف عاجزة عن أن تجعل إبراهيم يحترق أو تناله بأي سوء..

وموسى - عليه السلام - أوحى الله إلى أمه أن تلقيه في اليم لينجو .. وآخر شيء يمكن أن يقوم به أب وأم حين يريد أن ينجي طفله هو أن يلقيه في الماء.. فالطفل عاجز صغير وليد.. وإلقاؤه في الماء يعرضه لطير جارح يقتله أو يهاجمه وهو لا يملك لنفسه دفاعًا ولا بأسًا فيقتله.. وقد تأتي موجة صغيرة من الماء فتطيح بالسلة التي فيها موسى فينقلب في الماء فيغرق في الحال.. فهو لا

(١) سورة الأنبياء: ٦٩.

يعرف شيئًا عن العوم ولا يستطيع أن يفعل شيئًا إذا سقط في الماء.. وإذا لم يسقط في الماء فقد تأتي الأمطار لتملأ السلة التي هو بها.. فيختنق ويغرق.. وقد تأتي ريح تقلب هذه السلة في الماء فيموت.. إذن فكل الأخطار موجودة في إلقاء موسى في اليم ما عدا فرصة الحياة .. والمنطق والأسباب والعقل كلها تقول أنه إذا أرادت أم موسى أن تنجيه فلتفعل أي شيء في العالم إلا أن تلقيه في الماء.. كان يمكنها أن تأخذه إلى مكان بعيد يختفي فيه.. وكان يمكنها أن تهاجر بابنها إلى خارج مصر.. وكان يمكنها أن تخفيه في منزلها في مكان حصين لا يصل إليه جنود فرعون.. ولكن الله أمرها بماذا؟.. بأن تلقيه في اليم.. حيث يواجه خطر الموت أكثر مما يواجه احتمال الحياة.. وجعل في هذا الخطر خطر موت موسى غرقًا.. أو بطير جارح.. أو بريح قوية.. جعل هذه الأخطار كلها الطريق الوحيد المضمون لنجاة موسى.. لماذا؟ .. لأن الله هو الفاعل.. وهنا تتعطل الأسباب.. ويصبح الإلقاء نفسه هو النجاة والأمان والاطمئنان.

نعود مرة أخرى إلى المعجزة .. لقد جاء كل نبي إلى قومه بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه.. قوم موسى نبغوا في السحر.. فجاء موسى - عليه السلام - بمعجزة السحر.. وتحدى قومه.. فكان أول من آمن به هم السحرة.. لماذا؟ لأنهم هم الذين يرهبون عيون الناس ويسحرونها.. فلما رأوا معجزة موسى كانوا أقدر الناس على فهمها.. والسجود لها نظرا لما رأوه من الفرق الهائل بين قدرة الله.. وقدرة البشر.. ولما أحسوه برهبة وهو يقابل ما نبغوا فيه من السحر بما أعطاه الله له..

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: ١٢٠-١٢٢.

هكذا كان أول من آمن هم أولئك الذين نبغوا في المعجزة.. وهم أولئك الذين أراد الله سبحانه وتعالى أن يتحداهم فيما نبغوا فيه، فلما رأوا عظمة التحدي خروا ساجدين. لماذا؟ لأن لديهم جزءاً من العلم الأرضي في السحر.. إنما يخشى الله من عباده العلماء.. فلما رأوا المعجزة أحسوا بروعتها.. أحسوا بجلالها.. أحسوا بأنها من عند الله سبحانه وتعالى.. فنسوا فرعون ووعوده، ونسوا الذهب والفضة وجاه الدنيا الذي ينتظرهم.. بل نسوا أن فرعون سيسومهم سوء العذاب.. وأنه جبار في الأرض.. تلاشى كل هذا عندما رأوا المعجزة.. وخروا ساجدين لله.. وكانوا هم الذين أراد فرعون أن يتحدى بهم معجزة الله.. ودين الله.. فإذا بهم أول من يسجد لهذا الدين..

تلك روعة المعجزة.. تستطيع أن تتبينها إذا عرفت أن السحرة كانوا موعودين بالجاه والسلطان والمال.. وكانوا هم أعوان فرعون الذين يروجون له.. وكان في أيديهم حكم الدنيا إذا غلبوا.. أو إذا اتهموا موسى بأي اتهام باطل يروج له فرعون وجنوده.. ولكنهم بهتوا وذهلوا أمام معجزة فخروا ساجدين.. وتركوا كل هذا مضافًا إليه عذاب فرعون عندما رأوا آية من آيات الله..

وعيسى جاء إلى قومه وقد نبغوا في الطلب فأبرأ الأكمه[(١)] والأبرص[(٢)].. وزاد على ذلك بأنه أحيا الموتى بإذن الله.. إذن عيسى تحدى قومه في شيء نبغوا فيه.. فجاء لهم بما تجاوز علمهم.. وزاد عليه بإحياء الموتى بإذن الله.. فكان التحدي من جنس ما نبغ فيه قومه..

ومحمد عليه الصلاة والسلام جاء والعرب قوم بلاغة وفصاحة.. فجاء لهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه، وهو بلاغة القرآن التي تحدتهم وأعجزتهم..

---

(١) الأكمه: يقال: كَمِهَ الرجلُ كمهًا: عمى. المعجم الوجيز (ص/ ٥٤٢).

(٢) الأبرص: برص برصًا: ظهر في جسمه البرص، فهو أبرص، وهي برصاء، والجمع: بُرْصَ، وهو بياض يقع في الجسم لعلة، فهو مرضٌ جلدي منفر.

فقالوا ساحر.. وقالوا مجنون.. على أننا ستتناول مـعجزة القرآن بالتفصيل في الفصول القادمة.. حـيث إن إعجاز القرآن ليس لغويًا فقط.. ولكن له جوانب كثيـرة من الإعجاز الذي يتـحدى به الله سبحـانه وتعالى الإنس والجن إلى يوم القيامة.. والقرآن له عطاء يتجدد مع كل جيل من الأجيال..

وإذا كانت المعجـزة هى خرقًا للعادة مـقرونة بالتحدي.. ولا يسـتطيع أحد معارضتها.. فقد تأتي المعجزة خـرقًا للعادة، ولكنها ليست مقرونة بالتحدي.. أي أن الله سبحانه وتعالى لا يتحـدى بها البشر ولا يطالبهم أن يأتو بمثلها.. بل أن هذه المعـجزة تأتي لإثبـات طلاقة قـدرة الله في كـونه.. بحيث لا يخـضع الإنسان كل الأشياء للأسباب والمسـببات.. بل أن الإنسان المؤمن يجب أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى فيما تعـجز عنه الأسباب.. فالله قادر قاهر ليس لقدرته قيود ولا حدود..

* * *

◘ الإعجاز والقدرة الإلهية ◘

والقرآن يعرض مسألة المعجزة لإثبات طلاقة القدرة الإلهية في سورة مريم.. يأتي ليثبت قضية من القضايا التي اعتاد فيها الناس الأسباب والمسببات.. وهي مسألة بقاء النوع.. وبقاء النوع مشروط بالتقاء رجولة وأنوثة لينشأ إخصاب وحمل.. ولابد أن تكون الرجولة مكتملة.. والأنوثة غير ناقصة ليتم ذلك..

فيأتي الله سبحانه وتعالى ليثبت لنا طلاقة القدرة الإلهية بلا حدود ولا قيود.. حتى لا يفهم الإنسان أن الخلق مقرون بأسباب ومسببات لابد من وجودها.. ومن هنا فإن الله في قضية الخلق يريد أن يدير المسألة من زواياها الأربع.. فليس بقاء النوع أو إيجاد النوع رهنًا بوجود ذكر وأنثى.. بل هو رهن بمشيئة الخالق.. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يخلق رجلاً بلا ذكر ولا أنثى.. ويخلق من رجل بلا أنثى.. ويخلق من رجل وأنثى.. ويخلق من أنثى بلا رجل.. وبذلك تكون أركان الخلق الأربعة قد اكتملت..

ولنشرح ذلك قليلاً.. الله خلق آدم أول الخلق من لا ذكر ولا أنثى فآدم لم يكن له أب ولا أم وإنما خلقه الله سبحانه وتعالى.. ونفخ فيه من روحه.. هذه واحدة.. خلق من لا ذكر ولا أنثى.. وخلق الله حواء على الأرجح من الذكر دون الأنثى.. ثم خلق البشرية كلها من الذكر والأنثى.. بقي شيء في الخلق أن يخلق الله من الأنثى بلا ذكر .. فتأتي مسألة عيسى - عليه السلام - يأتي بقية الكون كله من البشر. ويأتي عيسى - عليه السلام - من أنثى لم يمسسها رجل.. ومن هنا تكون القسمة للخلق أربعة.. فأصل الخلق كما أراده الله أن يكون.. وجعل له الأسباب هو من ذكر وأنثى.. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون النشء من غير وجودهما معًا، فخلق آدم.. ومن وجود الرجل

وحده، فخلق حواء من آدم. . ومن وجودهما معًا فخلق الكون كله. . وجعله يتناسل. . ومن وجود الأنثى دون الرجل. . فخلق عيسى. . وبذلك تكون أوجه الخلق كلها قد اكتملت. .

إلا أننا يجب أن ننتبه إلى شيء هام. . خلق الإنسان. . بدون ذكر أو أنثى. . معجزة تخضع لله سبحانه وتعالى. . خلق الأنثى من الرجل وحده معجزة تخضع لإرادة الله سبحانه وتعالى . . خلق الرجل من الأنثى وحدها دون أن يمسها رجل. . معجزة من الله سبحانه وتعالى. . خلق الإنسان من ذكر وأنثى. . معجزة جعلها الله تمضي في الدنيا بالأسباب والمسببات. . ولكنه لم يطلقها لتتم بالأسباب والمسببات وحدها. . فأدخل فيها المشيئة. . وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾.

إذن كل معجزة الخلق التي تمت إنما تخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى. . فليس وجود النوعين موجبًا لأن يوجد الخلق. .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾[1].

المسألة ليست وجود مسببات. . بل إن الله سبحانه وتعالى حين يريد للأسباب أن تفعل . . تفعل. . وحين يريدها أن تتعطل تتعطل . . وحين يريد أن تأتي بالعلل دون الأسباب يأتي بها فلا قيود ولا حدود لقدرة الله سبحانه وتعالى. .

هذه قضية في أصل الكون. . وهي قضية طرحها الله سبحانه وتعالى وأعطاها للبشر ليدخل الإيمان إلى قلب المؤمن فيضع فيه السكينة. . فالله سبحانه وتعالى يقول للمؤمن إذا ضاعت الأسباب فلا تيأس. . فأنا الذي

---

(١) سورة الشورى: ٤٩، ٥٠.

خلقت الأسباب.. وأنا القادر على إيجاد المسببات دون القانون.. فلا تيأس إن عزت الأسباب.. ومن هنا يأوى المؤمن إلى ركن شديد.. ويحس بالطمأنينة تملأ قلبه.. ولا يمزقه الفزع خوفًا أو رعبًا.. حينما يفقد أي شيء.. ذلك أنه يأخذ بالأسباب أولاً.. فإذا عزت الأسباب أو تعذرت ووجد كل الطرق مغلقة في وجهه، اتجه إلى الله سبحانه وتعالى.. فالمؤمن لا ييأس من روح الله أبدًا.. ولا تنهار نفسه.. ويضيع أمنه عندما يرى انهيار الأسباب.

وتعرض لنا هذه القصة في سورة مريم.. ميلاد مريم -رضي الله عنها- له ضجة.. يحكى ذلك القرآن الكريم:

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾(١).

كلمة إني وضعتها أنثى التي قالتها امرأة عمران.. تحسر على أنها لم تضع ذكرًا.. أن الوليد الذي جاء لا يؤدي الغرض الذي وهب من أجله.. لأن امرأة عمران نذرت ما في بطنها لله سبحانه وتعالى.. وكيف تستطيع مريم أن تؤدي الخدمة في المعبد وهى أنثى .. وامرأة عمران تقول أن الرجل أفضل من الأنثى في ذلك.. فيقول لها الله سبحانه وتعالى أنك ما زلت تحسبين أن الذكر أحسن من الأنثى.. هذه العملية التي تفكرين بها هى منطق الدنيا الخائب.. ويضيف الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ﴾(٢).

أي إن الأنثى التي جاءت أفضل من الذكر الذي تمنيته.. وكأنما الأنثى لها

---

(١) سورة آل عمران: ٣٥، ٣٦.

(٢) سورة آل عمران: ٣٦.

مكانة أكثر مما تظنين.. فلا تقولي أن الله قد أعطاني أنثى ولم يعطني ذكراً.. لأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق.. ولأنه يعرف أن هذه الأنثى سيصبح لها شأن آخر. وبعد ذلك نعرف أن والد مريم متوفى.. حيث إنها حين ولدت أرادوا أن يكفلوها .. وكلمة من يكفلها دليل على أن وليها الطبيعي وهو الوالد غير موجود.

ويكفلها زكريا.. ومعنى أن يكفلها زكريا وفيه نبوة أنه يأتي إليها بكل مقومات حياتها.. فعندما يدخل عليها المحراب يجد عندها رزقًا .. ومعنى أن زكريا يجد عندها الرزق عند دخوله المحراب أو المكان الذي تصلي فيه مريم وتسجد.. معناه أنه لم يأت بهذا الرزق.. وإنما الذي أتى به هو الله سبحانه وتعالى.. بدليل أن زكريا يسألها.

﴿أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(١).

وابتدأت الصغيرة المكفولة مريم بفطرتها تفهم أن الله سبحانه وتعالى ليس له قانون يحكمه.. وأنه يرزق من يشاء بغير حساب..

هنا نتوقف قليلاً لنعرف أن الله سبحانه وتعالى حينما أعد مريم للمهمة التي ستقوم بها جعلها أولاً منذورة لله سبحانه وتعالى ولعبادته.. ثم جعل من يكفلها نبيًا هو زكريا.. ثم بعد ذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يمهد لها فبين لها أن لكل شيء في هذا الكون سببًا.. إلا أن هناك أشياء تحدث بلا أسباب.. أو يعطل الله فيها الأسباب .. ويبدأ بمسألة الرزق الذي يرزقها به.. فاكهة في غير أوانها.. ورزق ليس موجوداً في الأرض.. تمهيداً لما هو قادم.. وإعلانًا لها بأن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء.. ثم بعد ذلك أتى الله سبحانه وتعالى بقضية أخرى هي دعاء زكريا بالولد.. عندما رأى الرزق بلا حساب عند

---

(١) سورة آل عمران: ٣٧.

مريم.. هنالك دعا زكريا ربه.. وطلب زكريا ولداً فاستجاب الله لدعائه.. وبشره بالغلام.. هنا تذكر زكريا عند هذه البشرى.. انهيار الأسباب عنده.. فقال يا ربي إنني رجل عجوز.. وامرأتي عاقر[١]. أي إن الأسباب الكونية لإمكان الإنجاب غير موجودة.. فكيف أستطيع أن أنجب طفلاً.. فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[٢].

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق زكريا.. ولم يك شيئًا يذكر فهو يستطيع أن يعطيه الغلام دون التقيد بالأسباب.. هنا تذكير مرة أخرى لمريم بأن الله سبحانه وتعالى إذا أراد فإنه يوجد الأشياء بدون الأسباب نفسها.. أولا.. أعطاها الرزق بلا أسباب للرزق .. ثم استجاب لدعوة زكريا التي دعاها في المحراب.. فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾[٣].

وكلمة هنالك أن الدعاء تم في المحراب عند مريم لتشهد مرة أخرى ما يثبت فؤادها فيما أعده الله لها.. فترى الخلق يتم بدون أسباب الخلق.. فزكريا عجوز.. وامرأته عاقر.. ومع ذلك فإن الله قادر على أن يرزقه بولد..وكل هذا هدفه ألا تهتز مريم مما ستتعرض له من ولادة دون ذكر.. ومع ذلك.. ومع كل هذه المقدمات اهتزت مريم حين رأت جبريل - عليه السلام -.

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِياً ﴾[٤].

---

(١) العاقر: هي من النساء التي لا تنجب.
(٢) سورة مريم: ٩.
(٣) سورة آل عمران: ٣٨.
(٤) سورة مريم: ٢٠ .

أي أنه بعد كل هذه المقـدمات من رزق بلا أسبـاب.. ومن ولد لزكريا مع انتفاء الأسباب.. مع كل هذه المقدمات اهتزت مريم عندما رأت جبريل حتى أن الله سبحانه وتعالى ليثبتها قال لها:

﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾(١).

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقـول لمريم بعد كل هذه المقدمات من زرق بلا أسبـاب.. ومن خلق مع اختفـاء الأسباب تتـعجبين مما يحـدث.. لقد قلت يا مريم:

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٢).

شهدت يا مـريم أن الله سبحانه وتعـالى حين يريد تعطيل نواميس الكون.. وإيجاد المسببات بلا أسباب.. يستطيع أن يفعل ذلك. شهدته في زكريا.. ومع ذلك تتعجبين.

على أن هذه المعـجزة.. معـجزة خلق عـيسى - عليه السـلام - لم يكون مقصوداً بها التحدي.. فالله سبـحانه وتعالى لم يتحد بها أحداً.. لكن المقصود بها هو طلاقة القدرة.. أي أن الله يفعل ما يشاء.. ومقصود بها استكمال الخلق بحـيث يصبح الخـلق بدون ذكر أو أنثى .. ومن ذكـر بلا أنثى.. ثم من ذكـر وأنثى لمن شاء الله.. ثم من أنثى بلا ذكر.. وبذلك تكتمل مراحل الخلق..

ومعجـزة أخرى لم يتحد بها الله بشـراً.. وهي معجزة شق مـوسى للبحر بعصـاه.. فعندما طارد فرعـون وجنوده موسى - عليه السـلام - ووصل أتباع موسى إلى البحـر.. والبحر أمامهم.. وجنود فرعـون وراءهم.. قال قومه إنا لمدركون.. وهذه مسألة طبيعية في قوانين ومسببات البشر.. فجنود فرعون على

(١) سورة مريم: ٢١ .

(٢) سورة آل عمران: ٣٧.

بعد قريب.. والبحر أمام قوم موسى.. فهم لا يستطيعون مواصلة الفرارَ أو الهرب.. وحينئذ رفع موسى الأمر إلى الله سبحانه وتعالى.. لم يقل سنصعد إلى جبل ليحمينا من فرعون وجنوده.. ولم يقل سنستقل سفينة ضخمة نهرب بها من فرعون وجنوده.. ولم يقل إننا سننجو بطريقة كذا وكذا.. وإنما حينما قال له قومه إنا لمغرقون.. رد الأمر إلى الله سبحانه وتعالى.. وقال بملء فيه:

﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[1].

ومن هنا فإنه نقل المسألة من قانون الإنسان .. أو البشر.. إلى قانون الله سبحانه وتعالى.. فكأنه قد نقل القدرة من القدرة البشرية المحدودة... إلى قدرة الله سبحانه وتعالى التي ليس لها حدود ولا قيود.. والتي تتم بكلمة كن.. وما دام قد نقل القدرة منه هو إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فقد أصبحت هذه القدرة ينطبق عليها لفظ سبحان الله وليس كمثله شيء.. أي أنه لا عجب فيما سيحدث ولو خالف كل قوانين البشر.. لأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى.. فأصبحت النجاة نابعة من قدرة الله وليس من قدرة البشر.. فقال الله سبحانه وتعالى له:

﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ ﴾[2].

والمعروف أن الماء لا ينفلق لأن قوانين الماء هي الاستطراق.. أي لا يكون عاليًا في مكان ومنخفضًا في مكان آخر.. لابد أن يتساوى سطحه.. فإذا ضرب موسى بعصاه البحر فهو لا يستخدم قوانين الأرض.. ولا قوانين الماء.. ولا قدرات البشر.. لأنه رفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى.. ومن هنا تكون القدرة والفعل لله فينشق البحر.. وينجو موسى وقومه.

---

(١) سورة الشعراء: ٦٢ .

(٢) سورة الشعراء: ٦٣ .

هذا هو معنى المعجزة في إيجاز بالغ. . فالمعجزة هى خرق لنواميس الكون. . تتحدى. . ولا يستطيع أحد معارضتها. . والمعجزات نوعان. . معجزات أعطاها الله سبحانه وتعالى لرسله ليتحدوا بها قومهم. . ويثبتوا أنهم جاءوا بالهدي وبالرسالات من عند الله. . ويثبتوا الإيمان في قلوب الناس. . ويبينوا لهم الطريق المستقيم المؤدي إلى الحياة السليمة. . وهو قوانين الله في الأرض. . وليعرف الجميع أن هؤلاء رسل جاءوا من عند الله بمنهج وضعه الله للإنسان. . وهناك معجزات أخرى في الكون. . لم يرد الله بها التحدي. . ولكنه أراد إثبات طلاقته في الكون في أنه هو الخالق. . وأنه هو الموجد للأسباب والمسببات. . وأنه يقول كن فيكون بلا مسببات . . ما دام الأمر قد رفع إلى الله سبحانه وتعالى بعيداً عن قدرات البشر وقوتهم. .

* * *

معجزات القرآن مستمرة

على أنه يلاحظ أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين. معجزات الرسل خرقت قوانين الكون.. وتحدت وأثبتت أن الذي جاءت على يديه رسول صادق من الله.. ولكنها معجزات كونية من رآها فقد آمن بها.. ومن لم يرها صارت عنده خبراً إن شاء صدقه.. وإن شاء لم يصدقه.. ولو لم ترد في القرآن لكان من الممكن أن يقال أنها لم تحدث..

إذن فالمعجزة الكونية المحسة.. أي التي يحس بها الإنسان ويراها تقع مرة واحدة.. من رآها فقد آمن بها.. ومن لم يرها تصبح خبراً بعد ذلك.. على أن هذه المعجزات لا تتكرر أبداً.. هناك رأى يقول إن معجزات الرسل مع تقدم العلم يمكن أن يصل إليها البشر.. وهذا الرأي غير صحيح على الإطلاق.. فالمعجزة تبقى معجزة إلى يوم القيامة.. قد يقول واحد إننا قد نصل إلى قانون أو اختراع يشق الماء.. وحتى إن حدث هذا فإن المعجزة تبقى خالدة .. لأنه لا يمكن أن يأتي إنسان يضرب البحر بعصاه فينشق الماء إلا موسى - عليه السلام - .. وقد يقول بعض الناس إن عيسى - عليه السلام - كان يبرئ الأكمه والأبرص.. وأن هناك دواء الآن لبعض .. أو لكل هذه الداءات.. ولكننا نقول له إن المعجزة ستبقى المعجزة.. فلن يستطيع بشر أن يشفي إنسانًا مريضًا بمجرد لمسه.. أو الإشارة إليه إلا عيسى - عليه السلام - قد يقول بعض الناس إننا نستطيع أن نذهب من مكة إلى بيت المقدس ونعود عدة مرات كل يوم.. وهذا رد على معجزة الإسراء.. فنقول أبداً.. لن يستطيع إنسان أن يذهب بغير طائرة في الجو إلا محمد - عليه السلام - فضلاً عن الصعود إلى السماء السابعة.. ذلك أن المعجزة تظل خالدة في نوعها وأدائها مهما طال الزمن.. وهى معجزة أساسها الإعجاز بالطريقة التي تمت بها.. ولا تصل إليها القوانين التي يكشف عنها الله سبحانه وتعالى من علمه للبشر.. بل تظل المعجزة معجزة.

على أننا إذا نظرنا إلى المعجزات السابقة وجدنا هذه المعجزات فعلاً من أفعال الله.. وفعل الله من الممكن أن ينتهي بعد أن يفعله الله سبحانه وتعالى.. البحر انشق لموسى.. ثم عاد إلى طبيعته.. النار لم تحرق إبراهيم.. ولكنها عادت إلى خاصيتها في الإحراق.. ولكن معجزة النبي ﷺ صفة من صفات الله.. وهي كلامه.. والفعل باق بإبقاء الفاعل له.. والصفة باقية ببقاء الفاعل نفسه..

على أن معجزات الله سبحانه وتعالى التي يؤيد بها رسله.. أو يريدها آية من آياته.. تختلف عن معجزات البشر في أن الله سبحانه وتعالى يجعل من يقوم بالمعجزة يملك خاصية هذه المعجزة وقتها.. أي إن الله سبحانه وتعالى يجعل الضعيف قويًا.. وغير القادر قادراً.. والذي لا يستطيع شيئًا يستطيع أن يفعله.. فمعجزة عام الفيل مثلاً التي أرسل فيها الله سبحانه وتعالى طيراً أبابيل.. أفنت جيش أبرهة عندما جاء ليحطم الكعبة.. جعل الله المعجزة في أن الطير الضعيف يستطيع أن يهزم فيلاً جباراً قويًا.. ويستطيع أن يفنى جيشًا من أقوى جيوش العالم.. إن لم يكن أقواها في ذلك الوقت.. ولقد كانت المعجزة فيها قدرة هائلة حتى إنها هزت نفوس بعض المؤمنين الذي لم يروها.. أو لم يشهدوها.. وجاءوا بعد عصر النبوة.. ولقد أثير حول هذه المعجزة حديث طويل في إنه كيف تستطيع الطير وهى تمسك بحجارة صغيرة جداً أن تفني جيشًا من الأفيال.. ولو هدمت فوقه عمارة لخرج سالمًا معافى.. ووجد بعض العلماء في هذا الكلام تجاوزاً لحدود العقل.. فبدأوا يحاولون تخريجها تخريجًا عقليًا بأن يقولوا إن هذه الطير كانت تحمل جراثيم فتكت بهذه الفيلة إلى آخر هذا الكلام الذي يحاولون به تبرير المعجزة. والمعجزة لا تبرر أبداً لماذا؟.. لأنها لا تخضع لقوانين البشر.. فالفاعل هو الله سبحانه وتعالى.. ومعجزة الفيل حدثت كما رواها القرآن تمامًا من ناحية الطير.. ومن ناحية الحجارة.. ذلك أن هذه المعجزة وقعت في العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ.. ورسول الله بعث في

الأربعين من عمره.. أي أنه عندما نزلت هذه الآية كان هناك من شهدوا عام الفيل.. ممن أعمارهم قد بلغت الخمسة والخمسين.. والستين.. والخامسة والستين.. والسبعين.. وما فوق ذلك.. فلو أن القرآن جاء برواية منافية أو مخالفة لما شهدوه لقالوا إن هذا لم يحدث.. وأن طيراً لم تأت.. وأن حجارة لم تستخدم.. ولكن كون القرآن جاء بهذا.. وهناك شهود.. وشهود من الكفار الذين يهمهم الطعن في الدين.. ويهمهم أن يشككوا فيه.. ولم يستطيعوا أن يجادلوا في هذه الآية.. إذن فالطير قد جاءت.. والحجارة قد استخدمت.. وهذه معجزة من معجزات الله تحمل سمة المعجزات وهى إن الله سبحانه وتعالى عندما يريد أن يحقق المعجزة يعطي القوة أو القدرة لمن يختاره لتحقيقها.. فهنا أعطى القوة للطير لتغلب الفيل.. عكس المنطق تمامًا.. وأعطى قدرة السحر لموسى فغلب السحرة وأعطاه قدرة شق البحر فضرب الأرض بعصاه فشق البحر.. وأعطى لعيسى - عليه السلام - قدرة شفاء المرضى وإحياء الموتى.. كل هذا بإذن الله.. وهنا الاختلاف بين الإعجاز الإلهي.. وأي إعجاز آخر.. فأنت حين تريد أن تجعل رجلاً ضعيفًا يحمل حملاً ثقيلاً لا تستطيع أن تنقل إليه قوتك ليحمل هذا الحمل ولكنك تستطيع أن تحمله عنه.. وأي اختراع جديد يخدم الإنسان لا يستطيع أن يعطي الإنسان قدرة خارقة ولكنه يساعده باستخدام شيء خارجي.. أما الله سبحانه وتعالى.. فإنه هو وحده المستطيع أن يجعل الضعيف قويًا.. والعاجز قادراً.. والقوى لا حول له ولا قوة.. ومن هنا فإذا انتصر رجل ضعيف على رجل قوي.. فإنك تعلم أن الضعيف قد نصره الله سبحانه وتعالى.. الله أعطى لإبراهيم مثلاً قدرة الخلق حينما طلب منه أن يأتي بالطير ويقطعها.. ثم يضع على كل جبل جزءاً ثم يدعوها فتأتي له سعيًا.. أي إن إبراهيم هو الذي دعا.. والله هو الذي أذن.. وشاء..

* * *

الإعجاز القرآني لا نهاية له

إن للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق.. ذلك إن القرآن للعالمين.. أي الدنيا كلها.. لا يقتصر على أمة بعينها.. وإنما هو الدين الكامل لكل البشر.. ومن هنا فإنه يجب أن يكون له عطاء لكل جيل.. وإلا لو أفرغ القرآن عطاءه الإعجازي في قرن من الزمان مثلاً لاستقبل القرون الأخرى بلا عطاء.. وبذلك يكون قد جمد.. والقرآن متجدد لا يجمد أبداً.. سخي يعطي دائمًا.. قادر على العطاء لكل جيل بما يختلف عن الجيل الذي قبله.. وبنفس الآية .. أي إن هناك آيات من القرآن تعطينا الآن عمقًا جديداً في معناها.. ذلك العمق لم يكن أحد يصل إليه بالفهم الدقيق في أول وقت نزول القرآن..

ولكي تكون هذه النقطة واضحة يجب أن نفرق بين شيئين اثنين في القرآن الكريم.. الأحكام الخاصة بمنهج العبادة.. أو ما يحدده الله للبشر ليقوموا بعبادته بالطريقة التي حددها الله سبحانه وتعالى ليعبد في الأرض.. كلمة افعل.. ولا تفعل.. هذا حلال.. وهذا حرام.. هذه الأحكام التكليفية لا تغيير فيها ولا تبديل.. وإنما كما فسرها رسول الله ﷺ .. أو كما فسرت في عهد نزول القرآن.. الصلاة خمس مرات.. لا اجتهاد في هذا .. شهادة أن لا إله إلا الله.. الزكاة.. ما حرم على الإنسان وما أحل له.. الزواج والطلاق.. كل ما شرعه الله من أحكام بينه الرسول ﷺ وفسره.. ولا اجتهاد فيه .. لا يستطيع أحد أن يأتي ويقول لنا أن الصلوات أربع مرات في اليوم.. ويفسر هذا بأي وجه من التفسير.. هذا غير مقبول .. وليس مجال المناقشة.. افعل ولا تفعل.. الأحكام التي إذا فعلتها نجوت.. وإذا لم تفعلها عوقبت.. هذه لا تبديل فيها ولا اجتهاد.. لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحدد لنا كيف نعبده.. وهو الذي يختار لنا الطريق.. نأتي بعد ذلك إلى الأشياء المتصلة

بقوانين الكون والخلق.. تلك الأشياء التي لم يكن للعقل البشري الاستعداد العلمي وقت نزولها ليفهما تمامًا.. مثلاً كروية الأرض.. إحدى الحقائق التي تحدث عنها القرآن.. الغلاف الجوي المحيط بالأرض إحدى الحقائق التي تحدث عنها القرآن.. علم الأجنة تناوله القرآن.. دوران الأرض حول نفسها.. الزمن.. ونسبية الزمن.. وعدد من حقائق الكون الأساسية.. نجد أن الآيات التي تتناول هذه الأشياء مر الرسول ﷺ عليها مروراً وترك للعقل في كل جيل أن يأخذ قدر حجمه.. والمعجزة هنا في القرآن أنه يعطي لكل عقل قدر حجمه.. ويعطي لكل عقل ما يعجبه ويرضيه.. فترى غير المتعلم يطرب للقرآن ويجد فيه ما يرضيه.. ونصف المتعلم يجد في القرآن ما يرضيه.. والمتبحر في العلم يجد في القرآن إعجازًا يرضيه.

هذه واحدة.. من إعجاز القرآن الكريم.. أنه يقدم لكل نفس باستخدام الآيات والألفاظ التي تؤدي إلى المعنى. فإذا ما كشف الله للبشر عن سر من أسرار كونه.. ورجعنا إلى الآية نجدها تؤدي نفس المعنى.

ولنضرب مثلاً يوضح ذلك.. يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾(1).

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾(2).

﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾(3).

لو أخذنا كل آية من هذه الآيات وقت نزول القرآن الكريم على حجم تفكير العقل البشري في ذلك الوقت.. نجد أن مفهوم المشرق هو جهة شروق

(1) سورة المزمل: ٩ .

(2) سورة الرحمن: ١٧.

(3) سورة المعارج: ٤٠ .

الشمس.. ومفهوم المغرب هو جهة غروب الشمس.. فعندما يقول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب.. فليس هناك تعارض بين العقل والآية في ذلك.. نأتي بعد ذلك للآية الكريمة ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ نقول إذا كان المشرق هو جهة الشرق.. فإن رب المشرقين معناها أنها تجمع بين عمومية الجهة وهي الشرق وبين المكان المحدد لشروق الشمس.. بمعنى أنك تقول هذا هو الشرق.. وهذا هو الغرب.. وتشير بيدك إلى جهة المشرق أو المغرب.. فإذا أردت أن تحدد مكان شروق الشمس.. فإنك تقول إن الشمس تشرق من هنا.. وتحدد المكان بالضبط.. هذا هو التفسير في وقت نزول الآية.. ثم نأتي بعد ذلك إلى ﴿رب المشارق والمغارب﴾ التفسير وقت نزول الآية هو أن كل بلد له مشرق وله مغرب.. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى هو رب المشارق كلها والمغارب كلها..

فإذا جئنا إلى هذه الآيات اليوم لوجدنا تفسيرها يختلف.. رب المشرق والمغرب.. هذه قالوا عنها عمومية.. ولكن الله سبحانه وتعالى قرن كلمة المشرق بالمغرب لأنه لا يوجد مشرق بدون مغرب.. كروية الأرض تحتم هذا.. ففي الوقت الذي تغرب فيه الشمس على جهة.. في نفس الوقت.. وفي نفس اللحظة تشرق على جهة أخرى.. إذن قول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب.. ولم يقل رب المشرق ورب المغرب.. أو لله المشرق.. أو لله المغرب.. حيث كان المعتقد وقت نزول القرآن أنهما جهتان مختلفتان تمامًا.. متقابلتان بالنسبة للعين المجردة.. ولكن قول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب.. معناها أن الشروق والغروب يتم في وقت واحد.. أي أن الشمس تغرب على بلد في نفس الوقت تشرق فيه على بلد آخر..

نأتي بعد ذلك للآية الكريمة:

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١).

---

(١) سورة الرحمن: ١٧.

لماذا قال المشرقين بالذات والمغربين.. إذا نظرنا إلى الكـرة الأرضية نجد أنها مقـسمة إلى جـزءين.. نصف مضيء.. ونصف معـتم.. والنصف المضيء له مشرق ومـغرب.. بينما النصف المعتم يسبح في ظلام دامس.. فـإذا استدارت الكرة تمامًا يواجه النصف المظلم الشمس والنصف المضيء يصبح ظلامًا.. أصبح نصف الكرة الذي كان مظلمًا له مشرق.. ونصف الكرة الذي كان مضيئًا يسبح في ظلام.. إذن فالكرة الأرضية في عموميتـها لها مشرقان.. مشرق تضيء منه الشمس نصف الكرة ومـغرب.. ثم تستـدير الكرة كلها.. فـيأتي نصف الكرة الآخر فيكون له مشرق ومغـرب .. إذن فآية رب المشرقين ورب المغربين تعرض لنا بأن نصف الكرة يكون ظلامًـا ليس له مشرق ولا مغـرب.. والنصف الآخر يكون مضيئًا له مشـرق ومغرب.. وعندما ينعكس الوضع يصبح هذا النصف له مشرق ومغرب.. وهذا النصف لا مشرق لـه ولا مغرب.. وهكذا في عمومية الكرة الأرضـية.. هنـاك مشـرقان ومـغـربان.. فإذا انتـقلنا إلى رب المشـارق والمغارب.. نجد أنه بعد أن تقدم علم الفلك لا يوجـد مشرق واحد.. ومغرب واحد لأي دولة في العالم.. وإنما هي مشارق ومغارب.

إذن فزاوية الشروق تتـغير. وزاوية الغروب تتـغير.. ولكن الحس لا يدرك ذلك.. بل إنه إذا نظرنا إلى الـكرة الأرضيـة نجـد أنه في كل جزء مـن الثانيـة مشـرق تشرق الشمس فيـه على مدينة وتغيب عن مـدينة أخرى.. أي أن هناك ملايين المشارق والمغارب لكل بقعة من الأرض.. المشرق والمغرب للبلدة الواحدة لا يتكرر طوال أيام السنة .. لا تشرق الشمس على بلدة من نفس مكانها الذي أشرقت منه في الأمس.. أو تغرب على بلد مـن نفس مكانها الذي غربت منه بالأمس .. وإن كانت جهة الشرق واحـدة.. إلا أن المشرق تختلف زاويته كل يوم.. وكذلك المغـرب.. وتختلف في فصـول السنة.. وفي أيام الصيف عن الشتـاء عن الخريف عن الربيع.. وهذا لا يمكن أن يحدث إلا من حـركة دوران

الأرض حول الشمس مـرة كل عام.. فإن هذه الحركـة هى التي تجعل لكل يوم مشرقًا ومغربًا بزاوية مختلفـة .. بل بتوقيت مختلف عن اليوم الآخر.. وأبسط شيء لتدرك هذا بدلاً من الدخول في التعقيدات الفلكـية هو صيام شهر رمضان .. ففـي كل يوم تفطر في مغـرب مخـتلف عن المغرب الآخـر في الوقت .. وكذلك تمتنع عن الـطعام في مشـرق مختلف عن المشـرق الآخر في الوقت.. وأوقات الـصلاة تخـتلف كل يوم من أيام العام.. تبـعًا لحـركة الأرض حـول الشمس..

واختلاف المشارق والمغـارب يبين بخلاف أن الأرض تدور حول الشمس.. أن الأرض كروية.. فلو كـانت الأرض مسطحة.. كـان لابد أن تطلع الشمس من مشـرق واحد.. وتغيب من مغـرب واحد.. حينئذ لا يكون هناك مـشارق ومغارب.. ولكن كونها كروية .. وكونها تدور حول نفسها وحول الشمس هو الذي يجعل هناك مشارق ومغارب.

والذي أريد أن أقولـه إن عطاء القرآن في الأولى، رب المشـرق والمغرب لم يلغ عطاءه في الثـانية وهو رب المشرقين ورب المغـربين .. وهو لا يلغى عطاءه في الثالثة وهو رب المشارق والمغارب..

* * *

▫ اختلاف الإعجاز العلمي في القرآن عن غيره ▫

إن التقدم العلمي الذي غير كثيراً من مفاهيم الكون لم يستطع أن يغير معنى الآيات الكريمة.. بل انسجم معها.. ويحضرني قول قرأته في أحد المخطوطات القديمة يقول كاتبه «يا زمن وفيك كل الزمن».. ومعنى هذا القول أن الزمن نسبي في الكون. فمثلاً عندما أؤدي أنا الظهر هناك أناس في مكان آخر يصلون العصر.. وأناس في مكان ثالث يصلون المغرب.. وأناس في مكان رابع يصلون العشاء.. وأناس في مكان خامس يصلون الفجر.. أي أنه في الوقت الواحد يؤذن لله على ظهر الأرض الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.. إذن فالله مذكور في كل زمن وبجميع أوقات الزمن..

هذه آية من آيات القرآن الكريم اتضحت دقة معناها عندما تقدم العلم.. كان لها عطاء وقت نزول القرآن.. ولها عطاء مختلف الآن.. وربما يكون لها عطاء آخر في الأزمنة القادمة بعد أن يتقدم العلم.. والإعجاز هنا أن القرآن يعطي لكل جيل عطاءه.. ويعطي لكل عقل حاجته دون أن يتناقض مع الحقيقة العلمية أو يتصادم مع حقائق الكون.. فهو متجدد العطاء دائمًا.. وحقائق الكون لا يمكن أن تتصادم أبداً مع القرآن.. لأن الله هو الفاعل.. والله هو الخالق.. والله هو القائل..

هذه إحدى نواحي اختلاف القرآن الكريم في معجزاته عن الكتب السماوية الأخرى.. وهو ما سأتحدث عنه بالتفصيل في الفصول القادمة..

على أن هناك ناحية ثانية وهى أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل اختلافًا آخر.. فكل رسول كانت له معجز وكتاب منهج.. معجزة موسى العصا.. ومنهجه التوراة.. معجزة عيسى الطب.. ومنهجه الإنجيل.. لكن رسول الله ﷺ معجزته هي عين منهجه.. ليظل المنهج محروسًا بالمعجزة وتظل

المعجزة محروسة بالمنهج.. وهنا فقد كانت الكتب السابقة للقرآن داخلة في نطاق التكليف.. بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يكلف عباده بالمحافظة على هذه الكتب.

ماذا حدث عندما كلف الله عباده بالمحافظة على هذه الكتب؟.. نسوا حظًا مما ذكروا به.. أي إنهم نسوا ما ذكرهم الله سبحانه وتعالى به.. وما لم ينسوه حرفوه.. ولووا ألسنتهم به.. وما لم يلووا ألسنتهم به زادوا عليه وجاءوا بأشياء من عندهم وقالوا إنها من عند الله ليشتروا بها ثمنًا قليلاً.. إذن فتكليف الله سبحانه وتعالى لعباده أن يحافظوا على الكتب السابقة، أدخلوا فيها هوى النفس وأخضعوها للتحريف.. لكن عندما أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن قال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [١].

لماذا.. أولاً لأن القرآن معجزة.. وكونه معجزة لابد أن يبقى بهذا النص وإلا ضاع الإعجاز.. وثانيًا لأن الله جرب عباده في الحفاظ على الكتب السابقة فلم يحفظوها وحرفوها..

وهنا نلاحظ شيئًا هامًا يبين لنا أن معجزة القرآن محفوظة من الله سبحانه وتعالى.. لو أخذنا خطين.. خط تطبيق القرآن والعمل بتعاليمه.. وخط المحافظة على القرآن.. نرى أن تطبيق القرآن والعمل به كلما مر الزمن قل وضعف.. أما المحافظة على القرآن.. فكلما مر الزمن زاد بشكل عجيب.. حتى إنك ترى القرآن الآن في كل مكتب.. وفي السيارات.. وعلى صدور السيدات.. وفي المنازل.. وفي كل مكان.. وتجد تجميلاً في القرآن من أناس لا يؤمنون به.. فترى رجلاً ألمانيًا.. مثلاً يكتب القرآن كله في صفحة واحدة.. ويخرجه بشكل جميل وهو ربما لم يقرأ القرآن في حياته.. وتجد اليابان مثلاً تتفنن في طبع المصاحف الجميلة، فإذا سألت لماذا لا يفعلون ذلك في

---

١) سورة الحجر: ٩.

الكتب الأخرى؟ . . نقول لك أنه مسخرون لذلك، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظ القرآن. . وكل هذا الحفظ الذي تراه هو من عمل الله. . وليس من عمل الإنسان. . وأنت حين ترى القرآن في مكتب أو سيارة أو منزل وتسأل صاحب المنزل أو السيارة. . أو المكتب هل تعمل بهذا القرآن؟ . . هل تؤدي الصلاة كما يجب؟ يقول لك لا . . إذن لماذا تحتفظ بالقرآن في منزلك دون أن تعمل به؟ . . فلا يستطيع أن يجيب أو يقول لك إنه بركة. .

ومن هنا فإن غفلتنا عن تعاليم القرآن كسلوك في الحياة لا تتمشى مع ازدياد الحفاظ على القرآن الكريم. . أحيانًا تجد غير المسلم يحافظ على القرآن ويحمله. . وأحيانًا تجد من لا يطبق القرآن يقتني أكبر عدد من المصاحف. . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الذي يحفظ القرآن هو الله. . وأنه كلما نقص خط العمل بالقرآن ازداد خط الحفاظ عليه لأن العباد هم المكلفون بالعمل. . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظه. .

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية وهى أن القرآن نزل رحمة للعالمين أو للعالم أجمع. . وهذه إحدى معجزات القرآن. . فقد كان الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل المختلفة إلى المجتمعات المختلفة لتعالج الداءات وتهدي الناس إلى سبيل الله. . وكان لكل مجتمع داء يختص به دون سائر المجتمعات البشرية. . لذلك اقتضى الأمر أن يأتي رسول ليعالج داءات هذا المجتمع. . بل إن الله سبحانه وتعالى أرسل أكثر من رسول في وقت واحد لمعالجة داءات مختلفة فإبراهيم - عليه السلام - ولوط أرسلا في وقت واحد. . لماذا؟ لأن المجتمعات في ذلك الوقت كانت مجتمعات منعزلة لا يعرف بعضها عن بعض شيئًا. وذلك بسبب سوء المواصلات وعدم وجود التقدم العلمي الذي يتيح سرعة الاتصال بين هذه المجتمعات. . بل إن هذه المجتمعات كانت تعيش وتفنى دون أن يدري مجتمع منها عن الآخر شيئًا. . كما أن الداءات في هذه المجتمعات كانت مختلفة . .

فمنهم كان لا يوفى الكيل والميزان.. ومنهم من كان يعبد الأصنام.. ومنهم من كان يفسد في الأرض، ولكن بعد أن تقدم العلم أصبح العالم كله مجتمعًا واحدًا.. يحدث شيء في أمريكا.. وبعد دقائق تجده في مصر، ويحدث شيء في اليابان.. وبعد ساعات تجده في أوربا.. إذن الاتصالات أصبحت سهلة وميسرة.. والعالم كله اقترب من أن يصبح وحدة واحدة.. ومع تعدد الاتصالات وسهولتها توحدت الداءات.. فأصبح ما يشكو منه بلد تشكو منه معظم البلاد الأخرى.. فكان لابد من وحدة العلاج .. فمثلاً الدعاية للكفر والشيوعية داء استشرى في كل أنحاء العالم.. ولم يترك دولة دون أخرى.. النظام المالي والربا تجده في الدنيا كلها.. أكل المال بالباطل والسرقة داء استشرى[1] في معظم دول العالم.. إذن الداءات أصبحت واحدة.. وهذا يقتضى وحدة العلاج.. ومن هنا جاء الدين الإسلامي للعالمين.. أي للدنيا كلها.. لأن وحدة الداء تقتضي وحدة العلاج .. وهذا من معجزات القرآن الكريم.. فإن الله قد وضع وحدة العلاج قبل أن تتحقق وحدة الداء فسبق بذلك علم البشر.

فرق آخر بين معجزة القرآن والمعجزات الأخرى، هو أنه حدد مصدر العلم البشري.. وروى لنا كيف يتعلم الإنسان.. فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ وعَلَّمَ آدمَ الأَسْماءَ كُلَّهَا ﴾[2].

ومن هنا حدد مدخل العلم إلى البشر.. فأنت حين تريد أن تعلم طفلك.. تبدأ بتعليمه الأسماء.. فاللغة هى وسيلة للتفاهم بين البشر.. فهذا الإنسان الذي خلقه الله.. والذي عمر الأرض.. وأقام كل ما نشاهده من مدنية

---

(١) استشرى: انتشر.

(٢) سورة البقرة: ٣١.

وحضارة.. كان يجب أن تكون هناك وسيلة للتفاهم بين البشر.. فبدون وجود وسيلة للتفاهم لا يمكن أن تقوم حضارة أو يتم تعايش[١] حقيقي.. أو ينتقل العلم من جيل إلى جيل ليتقدم كل جيل ويأخذ حظه من المعرفة عن الجيل الذي سبقه.. ويضيف إليه.. وكانت هذه الوسيلة هى اللغة أو الكلمة التي تسمعها الأذن ويتكلم بها اللسان.. وإذا ولد الإنسان أصم لا يسمع فإنه لا ينطق.. وأمامنا الأمثلة في العالم أجمع.. على أن أي إنسان لا يسمع لا يستطيع أن ينطق..

إذن فليست اللغة هى فصيلة دم ولا بيئة.. ولا جنسًا.. ولا وراثة.. ولا تعتمد على بشر معين.. وإنما ما نسمعه نتكلم به.. فلو إننى أتيت بإنسان فرنسي أو هولندي.. أو إفريقي.. أو من أي جنسية في العالم.. أتيت به كطفل رضيع.. وتركته في بيئة لا تتكلم إلا اللغة العربية.. فإنه سيتكلم لغة البيئة التي عاشها.. بصرف النظر عن جنسيته. ولو إننى أتيت بإنسان عربي ووضعته في بيئة لا تتكلم العربية لصعب عليه بعد ذلك أن يتحدث باللغة العربية.

إذن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان.. فلا جدوى من النطق بألفاظ إلا إذا كانت معانيها قد شرحت أولاً والأصل أن يوجد الشيء ثم يوضع له اسم.. فأنت مثلاً لا تستطيع أن تطلق لقب كوب إلا إذا وجد الكوب أولاً.. وإلا فالكلمة ليس لها معنى..

نعود إلى معجزة القرآن.. والقرآن كلام الله.. والكلام هو أساس الحضارة.. وأساس العلم الذي نزل من الله إلى الإنسان.. فاله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز:

(١) تعايش: توافق في المعيشة.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

ونحن الآن حين نريد أن نعلم طفلاً أن يتكلم فلابد أن نبدأ بأن نعلمه الأسماء أولاً . . ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث. . بل نبدأ ونقول له هذا قلم. . وهذه كراسة. . وهذا أسد. . وهذا كوب . . وهذا طعام. . وهذا طريق. . وهذا نور. . وهذا ظلام. . إذن نحن نعلمه الأسماء أولاً. . فإذا ما تعلم الأسماء أصبح يستطيع بعد ذلك أن يتعلم وأن يتكلم ذلك إننا لا نعلم الطفل الأسماء في المدرسة فقط. . بل نحن نعلمه بالفطرة. . الطفل المتعلم والجاهل يتعلم الأسماء . . فالأم تعلم الطفل الذي لا يذهب إلى المدرسة. . والمدرسة تعلم الطفل الذي يذهب إلى المدرسة. . ولكن الاثنين لكي يستطيعا التفاهم في الحياة يجب أن يتعلما الأسماء أولاً . . فنجد أن الطفل الجاهل والمتعلم يعلم معنى الأسماء. . فهو يعلم معنى كلمة طريق. . أو كوب. . أو أسد. . أو نعامة أو إلى آخره. . لا فرق بين جاهل ومتعلم. . لأن هذا هو مدخل التفاهم بين البشر. . وأساس هذا التفاهم كما وضعه الله سبحانه وتعالى حين «علم آدم الأسماء» . . فأصبحت هى الأساس في العالم أجمع . . والآن وبعد أربعة عشر قرنًا نجد أن أساس العلم في الدول المتقدمة. . والدول غير المتقدمة هو الأسماء. .بل إن الدول المتقدمة لسرعة تعليم الأسماء باعتبارها أساس التفاهم في الحياة. . تأتي بصور لتعلم الأطفال الأسماء دون أن تضيع الوقت بتعليم الحروف الأبجدية. . ويستطيع الطفل أن يتعلم أي شيء آخر. . بعد ذلك. .

معجزة القرآن تختلف أيضًا عن معجزات الرسل الأخرى. . أنه لا توجد قضية تمس حياة البشر إلا ويوجد في منهج الله سبحانه وتعالى ما يعالج هذه القضية . . نحن نقول يعالج. . لأن التشريعات عندما تأتي تعالج واقعًا موجودًا في المجتمع وفسادًا انتشر. . ومن هنا فإن القرآن قد تعرض لقضايا الكون جميعها وأوجد لها العلاج، وأوجد لها الشفاء والذي يدعيه البعض أن منهج

الله لا يعـالج قضـايا العصـر. . دليل على أنهم لم يدرسـوا هذا المنهج. . ولم يتعمقوا فيه . . فما من قضيـة أساسية في المجتمع إلا ويعالجها القرآن الكريم. .
ولكن هنا يقع بعض اللبس. . فقد يقول بعض الـناس: إن القرآن مثلاً لا يعالج قضايا زيادة إنتاج الأرض أو الاختـراعات الحديثة إلى آخر هذا الكلام. . والذي يجب أن يعرفـه الناس جميعًـا أن القرآن هو منهج عبادة . . ولكن حـينما يأتي ليعـالج، لا يعالج الخصوصـيات. . وإنما يضع المبدأ. . فـهو حين يطلب منا أن ننقب في الأرض ونبـحث عن آيات الله. . وأن نتـعلم في أمـور الدنيـا. . وأن نعمل وننتج . . ونعـمر الأرض إنما هو يطلب منا لو اتبـعناه لاستطعنا أن نصل إلى أكبر تقدم يمـكن أن يحققه بشر. . إذن المبدأ موجـود في ضرورة البحث في الكون. . ومـواصلة البـحث والدراسـة. . ومن يبـحث ويدرس في قلبـه إيمان بالله. . وشعور بعظمـة الله وقدرته يستطيع أن يحقق الكثيـر. . والكثير جداً. .
المبدأ هو أن نزرع ونعـمر ونكشف عن آيات الله فيـها. . فإذا تقـاعسنا عن هذا كله. . وإذا لم نفعل ذلك . . فلا يمكن أن نستغرب. . أو أن نتعجب لأن غيرنا من الأمم قد تقدم علينا. . فنحن تركنا منهج الله في الـعمل. . فلابد أن يتركنا قانون الله في النتيـجة. . وهذا هو الجمال في الحـياة. . فلا يمكن أبدًا أن يكون هناك جمال في الحياة. . إذا كـان الطالب المجد . . والطالب الذي لا يقرأ كتابًا في حيـاته كلاهما ينجح. . ولا يمكن أن يكون هنـاك جمال في الحيـاة إذا كان الإنسـان الذي يحرث الأرض ويعـتني بها ويسـقيـها ويعـالجها مـن الآفات. . والإنسان الذي يتـرك الأرض ولا يعمل فيهـا شيئًـا بل يهملها تمامًا. . كـلاهما يجني نفس المحصول، إذا حـدث هذا فإن الجمال في الحياة يخـتفي ويصبح كل شيء قبيحًا فلا تجد طالبًا ينبغ. . ولا عالمًا يخترع. . ولا إنسانًا يضيف إلى الحياة شيئًـا. . ولا مدينة تبنى ما دام من يعـمل ومن لا يعمل سيحـصلان على نفس النتيجة. . ويحـققان نفس الشيء. . ولكن الجمال في الحيـاة في تناسب النتيجة مع العمل. . وعن هذا يتحدث القرآن في الدنيا والآخرة. .

وبذلك نكون قد عددنا أوجه الخلاف في معجزة القرآن عن معجزات الرسل الأخرى.. فالقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق.. والقرآن للعالمين، أي للدنيا كلها.. وليس لقوم محددين والقرآن يحوى الحقائق الأساسية في الكون كله.. ويأتي بها واضحة في ألفاظ تنسجم مع قدرة العقول التي عاشت وقت نزول القرآن.. وقدرة العقول في كل جيل بعد ذلك.. فالقرآن يعطي لكل عقل حجمه..

ومعجزة القرآن تختلف أيضًا في أن الله هو الذي يحفظ كتابه، أما معجزات الرسل السابقة.. فقد كلف الله البشر بحفظها فحرفوها ونسوا ما ذكروا به.. وأضافوا إليها.. ولكن الله سبحانه وتعالى حفظ القرآن من أن يحدث فيه أي تبديل أو تغيير.. كما أن القرآن كلام الله الذي بدأه مع آدم.. والذي هو أساس العلم البشري كله..

حين فشلت قضية التناقض جاءوا بشيء أسموه تصادم القرآن الكريم.. وحقائق الكون.. وادعوا أن بعض آيات القرآن تتصادم مع الحقائق الكونية.. وهذا افتراء.. فلا يمكن أن يتصادم القرآن مع أية حقيقة كونية.. لماذا؟.

لأن القائل هو الخالق.. ولا يمكن أن يكون هناك إنسان أعلم بقوانين الكون من خالقه.. ولكن الهدف من الطعن في القرآن الكريم - ويجب أن نفطن لذلك - وهو محاولة الإيهام بأن القائل بشر..

* * *

حقيقة النظريات العلمية

قبل أن نبدأ يجب أن نتنبه إلى أن القرآن الكريم له عطاء متجدد . . وهذا العطاء المتجدد هو استمرار لمعنى إعجاز القرآن. . ولو أفرغ القرآن عطاءه كله أو إعجازه كله في عدد من السنوات. . أو في قرن من الزمان. . لاستقبل القرون الأخرى دون إعجاز أو عطاء. . وبذلك يكون قد جمد. . والقرآن لا يجمد أبدًا. . وإنما يعطي لكل جيل بقدر طاقته. . ولكل فرد بقدر فهمه. . ويعطي للجيل شيئًا جديدًا لم يعطه للجيل الذي سبقه. . وهكذا. . ولهذا ندرك كما ذكرت من قبل أن رسول الله ﷺ حين تنزل عليه القرآن لم يتعرض بالتفسير إلا لما تقتضيه أحكام هذا الدين في «افعل ولا تفعل» . . الأشياء التي إذا فعلتها نجوت. . وإذا لم أفعلها عوقبت. . أما ما هو متصل بقوانين هذا الكون مما سيكشفه الله من علم البشر في المستقبل . . وما سيظهر بعد ذلك للعالم. . فلم يتعرض له التفسير. . لماذا؟. لأن العقل في ساعة نزول القرآن لم يكن عنده الاستعداد العلمي ليفهم حقائق الكون. . ولذلك أخذ منها قدر حجمه. . وأعطاه القرآن ما يعجبه ويرضيه. . ثم مرت السنوات أو القرون. . وظهرت حقائق علمية حديثة. . فتبين لنا أن عطاء القرآن فيها كان عطاء متجددًا. .

ولكن قبل أن نمضي في التحدث عن حقائق الكون. . فإننا يجب أن نجيب على سؤالين هامين. . السؤال الأول:

هو محاولة ربط القرآن بالنظريات العلمية. . وهذا أخطر ما نواجهه. . ذلك إن بعض العلماء في اندفاعهم في التفسير وفي محاولاتهم ربط القرآن بالتقدم العلمي. . يندفعون في محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكتشفة. . يثبت بعد ذلك أنها غير صحيحة . . وهم في اندفاعهم هذا يتخذون خطوات

متسرعة.. ويحاولون إثبات القرآن بالعلم.. والقرآن ليس في حاجة إلى العلم ليثبت.. فالقرآن ليس كتاب علم.. ولكنه كتاب عبادة.. ومنهج.. ولكن الله سبحانه وتعالى في علمه علم أنه بعد عدة قرون من نزول هذا الكتاب الكريم.. سيأتي عدد من الناس.. ويقولون انتهى عصر الإيمان.. وبدأ عصر العلم.. ولذلك وضع في قرآنه ما يعجز هؤلاء الناس.. ويثبت أن عصر العلم الذي يتحدثون عنه قد بينه القرآن في صورة حقائق الكون.. بينه كحقائق كونية منذ أربعة عشر قرنًا.. ولم يكتشف العقل البشري معناها إلا في السنوات الماضية. ولقد قلت إن عطاء القرآن الكريم متجدد مصداقًا للآية الكريمة:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[١].

ويجب أن نتنبه هنا إلى حرف السين في كلمة ﴿سنريهم﴾ لأن معناها المستقبل.. والمستقبل هنا لا ينتهي.. بل أن عطاءه مستمر لهذا الجيل والجيل الذي بعده.. والجيل الذي بعده.. إلى يوم القيامة.. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعلمنا أن هناك حقائق وآيات سيكشف عنها لكل جيل.. ولكن ليس معنى هذا أن نحمل معاني القرآن أكثر مما تحتمل.. وأن نتعامل معه على أساس إنه كتاب جاء ينبئنا بعلوم الدنيا.. فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة.. أو علم الفلك.. أو علم الفضاء.. إلى آخر هذا.. ولكن القرآن يبدأ من أول سورة بعد الفاتحة.. وهي سورة البقرة:

﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

أي إنه كتاب هدى.. ولكن الله سبحانه وتعالى وضع في كتابه الكريم ما يمكن أن نرد به على الذين يحاربون هذا الدين حتى يوم القيامة.. ومن هنا فإن

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) سورة البقرة: ١، ٢.

آيات الكون الكبرى التي أنبأنا الله بها في القرآن الكريم.. والتي نعرف بعضها.. وبعضها لا نعرفه معرفة اليقين حتى الآن.. أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نفحم بها أولئك الذين يقولون انتهى عصر الإيمان.. وبدأ عصر العلم.. وأن يقول لنا إن العلم الذي يحاول بعض المضلين أن يتخذوه إلهًا جديدًا هو من علمي ومن خلقي.. فلا تعبدوا المخلوق.. وتتركوا الخالق.. ولكن هذا يجعلنا نتخذ العلم دليلاً على صحة القرآن.. بل إن القرآن هو الدليل الحقيقي على صحة.. أو عدم صحة العلم.. فالعلم الذي يتناقض مع القرآن الكريم كاذب وغير صحيح..

* * *

لماذا لم يفسر القرآن الآيات العلمية؟

والقرآن هو كـلام الله المتعبـد بتلاوته إلى يوم القـيامة. . لا تغـيير فـيه ولا تبديل. . ومن هنا فـإن خطورة ربط القرآن الكريم بنظريات علميـة كاذبة. . وما أكثرها. . تجعل موقف المفسر في حرج عندما يثبت كذب هذه النظرية. . فهو لا يستطيع أن يغـير أو يبدل في كـلام الله. . ومن هنا يجب أن نتروى وأن ندرس بإمعان وننتظر حتى تثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين قبل أن نتحدث عن ربطها بالقـرآن الكريم ولا نأخـذ حـديثًا براقًـا يكون مـجـرد فـرض. . وليس نظرية علمية. . ونسـرع ونربطه بكلام الله. . وحينئذ نكون قد ارتكبنا خطأ كـبيرًا في حق القرآن عندما يثبت كذب هذا الافتراض. .

هذه واحدة. . أما الثـانية فهى: لماذا لم يفسر القـرآن الكريم الآيات العلمية لأولئك الذين عاصروا نزول القرآن . . وربما الأجيال بعدهم؟!

المعـروف أن حقـائق الكون التي أعلنهـا الله في القرآن الكريم تمس قـوانين كونية كبرى ينتفع بها الإنسان سواء علمها أو لم يعلمها . . فالشمس. . ودوران الأرض. . والجاذبية الأرضية . . والليل والنهار. . وكل ما يتعلق بهذا الكون. . وعلم الأجنة وما يدور في الأرحام. . وكل ما يتعلق باسـتمرار النوع البشري. . كل ذلك من قوانين الكون. . وقوانين الخلق ينتفع بهـا الناس سواء علموا بها أو لم يعلموا . . الملايين لا يعرفون شيئًا عن جاذبية الأرض . . ومع ذلك ينتفعون بكل قوانينها. . والملايين لا يعرفون شـيئًا عن النظام الكوني. . والتوازن الدقيق الموجود فـيه. . ومع ذلك ينتفـعون بهـا. . والملايين لا يعرفون شـيئًا عن حـياة الطفل فـي رحم أمـه. . ومع ذلك فــإن عـدم العلـم لم يمنعـهم مـن إنجـاب الأطفال. .

ومن هنا لم يكن تفسير مثل هذه القضايا العلمية المتقدمة التي ذكرها القرآن ضرورة بالنسبة للذين عاصروا نزوله.. لأنهم ينتفعون بها.. سواء علموها أو جهلوها.. ولذلك أعطاهم الله على قدر عقولهم.. ثم فسر بعد ذلك للأجيال.. كل جيل على حسب عقله..

نعود بعد ذلك على قول المستشرقين.. هم يقولون إن قوانين الكون تتصادم مع القرآن الكريم.. ونحن نؤكد لهم أن العلم الحديث قد أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تتصادم مع ما جاء في القرآن.. إن القرآن الكريم لا يتصادم مع قوانين الكون.. أو مع خلق الكون.. ولكن هذا التصادم المزعوم يأتي أحيانًا عن حقيقة قرآنية أسئ تفسيرها.. لتبدو في غير معناها الحقيقي.. أو حقيقة علمية كاذبة يحاول الناس استغلالها ضد القرآن.. وكما قلت أعود فأكرر.. إننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم.. بل إن العلم هو الذي يجب أن يثبت.. ويلتمس الدليل من آيات القرآن الكريم.. ذلك أن القرآن أصدق من أي علم من علوم الدنيا.. ومن أي عالم في هذا العالم.. لأن مكتشف هذا العلم أو مخرجه بشر.. وقائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى.. ومن هنا كما قلت فإنني لا أحاول أن أثبت القرآن بالعلم الأرضي.. ولكنني أرد على الذين يقولون إن هناك تناقضًا بين حقائق الكون الأساسية.. وكلام الله سبحانه وتعالى.

الكلام حول كروية الأرض

نأتي بعد ذلك إلى حقائق القرآن.. وإساءة تفسيرها بحيث تتصادم مع حقيقة علمية.. بعض العلماء يقولون إن الله سبحانه وتعالى قد قال في كتابه العزيز..

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾[1].

ومعنى المد.. البسط.. أي بسطناها.. ونحن نرى الأرض مبسوطة أمامنا.. فلا تناقض بين القرآن الكريم.. وبين الظاهر الموجود..

ولكن عندما اكتشفت كروية الأرض.. ثار علماء الدين واتهموا كل من يقول إن الأرض كروية بالكفر.. لأنه يخالف في رأيهم القرآن الكريم.

نقول لهم لقد أسأتم تفسير حقيقة قرآنية.. الله سبحانه وتعالى قد أعطانا الدليل على أن الأرض كروية.. بل أعطانا أكثر من دليل على ذلك في القرآن.. بل إن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الأرض على هيئة كرة.. ولنناقش هذا كله.

لقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾.

.. أي بسطناها.. ولكنه لم يقل سبحانه وتعالى أي أرض مبسوطة.. ومعنى ذلك إنك أينما تنظر إلى الأرض تراها مبسوطة .. إذا كنت في خط الاستواء.. فالأرض أمامك مبسوطة.. فإذا انتقلت إلى القطب الجنوبي فالأرض أمامك مبسوطة.. وإذا كنت في القطب الشمالي فالأرض أمامك

---

(١) سورة الحجر: ١٩.

مـبسـوطة. . وإذا كنت في أوربا . . أو أمريكا. . أو آسـيا. . أو أي قـارة من قارات الأرض. . فالأرض أمامك مبسوطة. . الأرض مبسوطة أمام البشر جميعًا في كل موقع مـوجودين فـيه. . وهذا لا يمكن أن يحـدث إلا إذا كانت الأرض كروية. . فلو إن الأرض مسطحة. . أو مربعـة أو مثلثة . . أو مسدسة. . أو في أي شكل من الأشكال لوصلنا فيها إلى حافة. . وحيث إنه لا يمكن أن تصل في الأرض إلى حافة فـالشكل الوحيد الذي تراه مبسـوطًا أمامك ولا يمكن أن تصل فيه إلى حافة هو أن تكون الأرض كروية.

وهكذا أبلغنـا القرآن فـي كلمـتين اثنتين. ﴿وَالْأَرْضَ مَـدَدْنَاهَا﴾. . أترى الإعـجاز في القـرآن الكريم لقـد أثبت الله كـروية الأرض. . وفي نفس الوقت اختار العبارة التي لا تتصادم مع مـفهوم العقل البشري في وقت نزول القرآن. . ولكن في كلمـتين اثنتين. . أعطانا الله السـر في الأرض. . إعجـاز لا يمكن أن يكون قائله بشر . . ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا أيضًا في أربع كلمات. إنه خلق الأرض على هيئة كرة. . أي إنها كانت كذلك ساعة الخلق. .

التسابق بين الليل والنهار

حينما نأتي إلى الآية الكريمة:

﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾.

يقول الله تعالى في سورة يس:

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾[١].

والحديث هنا عن قـوانين الكون. . الشمس لا تدرك القمـر. . لأنهما كـما قال العلماء يتحـركان في خطين متوازيين لا يلتقيان أبدًا . . هذه حقـيقة علمية ظهرت في السنوات الأخيرة. . وذكرها القـرآن منذ أربعة عشر قرنًا. . ولكن ما

(١) سورة يس: ٤٠.

معنى ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾.. المعنى هنا نفي لشيء موجود غير صحيح.. يريد الله سبحانه وتعالى أن يصححه.. يريد أن يزيل هذا الواقع الخاطئ.. العرب كانوا يقولون إن الليل يسبق النهار.. واليوم عند العرب يبدأ بغروب الشمس.. بمعنى أن رمضان يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من شعبان.. والعيد يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان.. إذا كان العرب يقولون إن الليل يسبق النهار.. ومعنى ذلك أن النهار لا يسبق الليل..

إذن وجدت عندنا حقيقتان.. الليل يسبق النهار.. والنهار لا يسبق الليل.. النهار لا يسبق الليل.. تركها الله.. ولم يتعرض لها.. لأنها حقيقة.. ولكنه جاء إلى كلمة أن الليل يسبق النهار.. ورد عليهم بقوله تعالى:

﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾.

إذن وجدت عندنا حقيقتان.. لا النهار يسبق الليل.. ولا الليل يسبق النهار.. لا النهار يسبق الليل حقيقة كانت موجودة.. ولم يتعرض لها القرآن لأنها حقيقة.. لا الليل يسبق النهار خطأ كان موجودًا فصححه الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾.

إذن لا النهار يسبق الليل.. ولا الليل يسبق النهار.. معنى ذلك أن الليل والنهار يوجدان معًا في وقت واحد على الأرض.. لأن النهار لا يسبق الليل.. والليل لا يسبق النهار.. وهذا لا يتأتي إلا إذا كانت الأرض كروية.

لكن ليس هذا هو القصد النهائي من الآية.. الله سبحانه وتعالى أراد أن يصحح هذه الحقيقة.. ويقرر أن الليل والنهار موجودان معًا على الأرض ليبلغنا

عن حقيقة خلق الأرض.. لو أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض مسطحة.. فإما أن تكون الشمس ساعة الخلق في مواجهة السطح .. وحينئذ يكون النهار قد وجد أولاً.. ثم يأتي بعد ذلك الليل.. وإما أن تكون الشمس غير مواجهة للسطح ساعة الخلق.. ومن هنا يكون الليل قد أتى أولاً .. ثم بعد ذلك يأتي النهار.. ولكن كون الله سبحانه وتعالى يقول لنا إن النهار والليل خلقا معًا.. لم يسبق أحدهما الآخر دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض كروية.. لأنه حدد الشكل الوحيد الذي يوجد فيه الليل.. والنهار.. على سطح الأرض معًا ساعة الخلق.. وهكذا نرى القرآن قد مس حقيقة هامة في آية أو جزء من الآية يريد الله أن يخبرنا فيه بأنه خلق الأرض على هيئة كرة.. وأنه أوجد الليل والنهار معًا عليها.. فيقول سبحانه:

﴿ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ

وعندما يتقدم الذهن البشري ويبحث.. ويعرف معنى الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بكل هذه الحقائق عن خلق الأرض على هيئة كرة.. وخلق الليل والنهار معًا.. في بضع كلمات..

* * *

قضية دوران الأرض..

نتنقل بعد ذلك إلى قضية دوران الأرض حول نفسها. . لترى أن الله سبحانه وتعالى يمسها في القرآن كحقيقة كونية. . فهو يتحدث حين يقول سبحانه في سورة النمل:

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (١).

الجبال رواس للأرض مفروض أن تثبتها وتمنعها من الحركة . . ومن أن يحدث بها أي خلخلة أو اهتزاز. . هذه الجبال هى الرواسي التي تجعل الأرض لا تميد بالإنسان. . هى مركز الثبات التي إذا نظرت إليها. . وإلى ضخامتها تعتقد أن الأرض ثابتة في مكانها لا تتحرك خطوة واحدة. . ثابتة جامدة. . يأتي الله سبحانه وتعالى ويقول:

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ .

لماذا قال الله سبحانه وتعالى تحسبها؟ قالها رحمة بالعقل البشري. . فالإنسان يظن أن الجبال جامدة. . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هذه الجبال التي نراها أمامنا ونحسبها جامدة تتحرك من مكان إلى آخر. . ولكنها ﴿تمر مر السحاب﴾ . . لماذا. . ؟ لأن السحاب لا يملك ذاتية الحركة. . لا يتحرك بنفسه . . إنما تحركه الرياح. . فالسحاب بدون الريح يبقى في مكانه . . ولكن الرياح هى التي تدفعه من مكان إلى آخر. . ومن هنا فإن استخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة ﴿مر السحاب﴾ . . يريد أن ينبئنا أن الجبال التي نحسبها جامدة تتحرك ولكنها لا تتحرك بنفسها. . بل هى تابعة لحركة أخرى تدفعها. . تمامًا كما تدفع

---

(١) سورة النمل: ٨٨.

الرياح السحـاب. . وإذا كانت الجبـال وهى أوتاد الأرض ولا تتحـرك ذاتية من نفسـها. . فـما الذي يدفـعها. . مـحرك آخـر. . وما هو المحـرك الآخر. . إنه الأرض. . وكأن الجبال تتحرك بحركة الأرض. . فلابد أن الأرض نفسها تتحرك وتدور. . وإلا فكيف تقوم بتحـريك الجبال وهى ثابتة. . إن الجبال في حـركتها تابعة لشيء آخر يتحـرك. . تمامًا كالسحاب الذي يتبع في حركـته الريح والجبال ثابتـة فوق الأرض فـلا يوجد مـحـرك آخر لهـا إلا الأرض. . وهكذا مس الله سـبحـانه وتعالى دوران الأرض بشكل بـديع يبين لنا أن الأرض تتحـرك وتدور حول نـفسـها. . وأن الجـبال التي هى أوتاد الأرض تتـحرك تابعـة للأرض في حركتـها. . وأننا نحسب هذه الجبال جـامدة. . ولكن قول الله سبـحانه وتعالى ﴿تحسبهـا جامدة﴾ محتاج إلى وقـفة. . ذلك أنه يقدم لنا حقيقـة علمية أخرى إنك حين تكون فوق جسم متحرك حركة رتيبة لا اهتزاز فيها فإنك لا تحس بهذه الحركـة إلا إذا قست هذا الجـسم إلى جسم ثابت. الطائرة حين تطـير بنا. . إذا نظرت من النافـذة. . فإني أحس بحـركة الطائرة وطيـرانها. . ولكن إذا أقـفلنا النوافذ. . وكـان الجو مسـتقرًا ليس فيه أي اضطراب بحـيث لم يصاحب هذا الطيران أي اهتزاز فـإنني لا أشعر إطلاقًا بحـركة الطائرة. . لماذا؟ لأن كل شيء داخل جسم الطائرة هو ثابت بالنسبة لي فالمقاعد ثابتة وموقع من يجلسون حولي ثابت ولا أحس في هذا بأية حركـة. . وكذلك بالنسبة للقطار والـسيارة. . أنت حين تغلق النوافذ . . وتكون الحركة ذاتية متزنة هادئة لا اهتزاز فيها. . فإنك لا تحس بالحركـة. . ولكن إذا فتحت النافـذة وقست الحركـة إلى شيء ثابت فإنك تحس بالحركة. .

إذن فالله سبحانه وتعالـى يريد أن يقول لنا أنتم لا يمكنكم أن تدركوا حركة الجبال هذه بحـسكم. . لأن وضعها بالنسـبة للأرض ثابت. . ووضعهـا بالنسبة لكم ثابت. . ووضعها بالنسبة لكل شيء حـولها ثابت. . ومن هنا فإنك تحسبها

جامدة.. ولا تفطن إلى حركتها أبداً.. لأنه ليس هناك شيء أمامك.. تقيس الحركة به.. ولكني أقول لك إن هذه الجبال تتحرك وهي في حركتها ليست لها حركة ذاتية أي إنها لا تنتقل من مكان إلى مكان فوق الأرض.. بل تتبع الأرض في دورانها.. ثم تتعجب أنت لذلك فيقول لك الله سبحانه وتعالى لا تتعجب أنه ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾(١). يكون هناك يقين..

بعض الناس يقولون إن هذا الوصف ينطبق على يوم القيامة.. ولكننا نقول لهم إنه في يوم القيامة لا يكون هناك حسبان ولكن يكون يقينًا..

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾(٢).

ويقول الله سبحانه وتعالى عن الجبال يوم القيامة.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾(٣).

فكيف ينسفها الله ثم نحسبها جامدة ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾(٤).

في يوم القيامة.. فينسف الله الجبال ويبددها.. وكل شيء أمامك يكون يقينًا فأنت ترى الجنة.. وترى النار.. وترى الله رؤيا اليقين.. فالحسبان في الدنيا واليقين في الآخرة..

على أن القرآن مس أشياء كثيرة.. لو كان هذا كلامًا من عند غير الله ما غامر من يقوله في أن يمس هذه الأشياء.. الحديث عن الأجنة في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة المؤمنون:

---

(١) سورة النمل: ٨٨.

(٢) سورة ق: ٢٢.

(٣) سورة طه: ١٠٥.

(٤) سورة إبراهيم: ٤٨.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عظامًا فَكَسَوْنَا العظَامَ لحمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخر فتبارك اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالقِينَ ﴾ [(١)].

ما الذي يجعل محمداً - عليه السلام - يقتحم قضية غيبية.. ويقولها في القرآن الكريم وهى قضية يمكن أن تهدم الإيمان من أساسه.. فالقرآن كلام الله المتعبد بتلاوته ولا تغيير فيه ولا تبديل إلى يوم القيامة.. ماذا يمكن أن يحدث مع تقدم العلم.. لو ظهر أن هذا الكلام غير صحيح..؟ وكيف يمكن لقضية الإيمان أن تستمر..؟ ولماذا يخاطر محمد - عليه السلام - في شيء غيبي كهذا..؟ لم يطلب أحد منه أن يتحدث عنه.. أو أن يتحداه فيه.. ولكن لأن الخالق هو الله.. والقائل هو الله.. جاء الحديث عن الأجنة في القرآن قبل أن يصل إليه العلم.. ثم اكتشف العلم صحة كل كلمة في القرآن.. أنه تحد.. وتحد من الله سبحانه وتعالى..

شيء آخر مسه القرآن مسًّا دقيقًا وهو الجسم البشري وعلم الأعضاء.. يأتي الله سبحانه وتعالى ويذكر الأذن دائمًا قبل العين .. ويقول الله: ﴿ السَّمعَ والأَبْصَارَ ﴾ [(٢)].. ولا يقول البصر والسمع..

يستوقفنا هذا لأن الإنسان حين يفقد بصره.. يفقد كل شيء .. يعيش في ظلام دائم.. لا يرى شيئًا على وجه الإطلاق .. يصطدم بكل شيء.. ولكن حين يفقد سمعه فإنه يرى وحينئذ تكون المصيبة أهون.. ولكن الله سبحانه وتعالى حين يذكر السمع يقدمه دائمًا على البصر..

إن هذا إعجاز في القرآن.. لقد فضل الله سبحانه وتعالى السمع على

---

(١) سورة المؤمنون: ١٢-١٤.

(٢) سورة الملك: ٢٣.

البصر لأنه أول ما يؤدي وظيفته في الدنيا.. ولأنه أداة الاستدعاء في الآخرة.. لأن الأذن لا تنام أبدًا ..

إن السمع أول عضو يؤدي وظيفته في الدنيا فالطفل ساعة الولادة يسمع ولكن العين لا تؤدي مهمتها لحظة مجيء الطفل في الدنيا.. فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إن السمع هو الذي يؤدي مهمته أولاً.. فإذا جئت بجوار طفل ولد منذ ساعات.. وأحدثت صوتًا مزعجًا فإنه ينزعج.. ويبكي ولكنك إذا قربت يدك من عين الطفل بعد الميلاد مباشرة فإنه لا يتحرك ولا يحس بالخطر.. هذه واحدة.. وإذا نام الإنسان فإن كل شيء يسكن فيه إلا سمعه.. إنك إذا أردت أن توقظ النائم ووضعت يدك قرب عينه فإنه لا يحس.. ولكنك إذا أحدثت ضجيجًا بجانب أذنه فإنه يقوم من نومه فزعًا.. هذه الثانية.. أما الثالثة فهى إن الأذن هى الصلة بين الإنسان والدنيا.. الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون مئات السنين قال:

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[1].

ومن هنا عندما تعطل السمع استطاعوا النوم مئات السنين دون أي إزعاج.. ذلك أن ضجيج الحركة في النهار يمنع الإنسان من النوم العميق.. وسكونها بالليل يجعله ينام نومًا عميقًا.. إذن الأذن هى التي تؤدي وظيفتها أولاً.. وهى لا تنام ولا تغفل أبدًا.. وهى الصلة بين الإنسان والدنيا.. وأداة الاستدعاء في الآخرة .. ولذلك فضلها الله سبحانه وتعالى.

على أن هناك شيئًا آخر نلاحظه هو أن الله سبحانه وتعالى يأتي بكلمة السمع مفردة دائمًا.. وكلمة الأبصار مجموعة.. يقول الله سبحانه وتعالى في سورة فصلت:

---

(١) سورة الكهف: ١١.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ ﴾[(١)].

لماذا تأتي كلمة السمع مفردة.. وكلمة البصر مجموعة.. مع إنه كان يجب أن يقول الله سبحانه وتعالى أسماعكم وأبصاركم.. وكان من المفروض أو المنطقى أن يكون هناك سمع وبصر.. أو أسماع وأبصار.. ولكن الله سبحانه وتعالى بهذا التعبير أراد أن يكشف لنا دقة القرآن الكريم.. فالبصر حاسة يتحكم فيها الإنسان بإرادته.. فأنا أستطيع أن أبصر ولا أبصر.. وأستطيع أن أغمض عيني عما لا أريد أن أراه.. أو أدير وجهى أو أدير عيني بعيدًا عن الشيء الذي أريد أن أتجاهله.. ولكن الأذن ليس لها اختيار في أن تسمع أو لا تسمع .. فأنت في حجرة يتكلم فيها عشرة أشخاص تصل أصواتهم جميعًا إلى أذنك .. سواء أردت أو لم ترد.. أنت تستطيع أن تدير بصرك فترى منهم من تريد أن تراه ولا ترى من لا تريد رؤيته.. ولكنك لا تستطيع أن تسمع ما تريد أن تسمعه.. ولا تسمع ما لا تريده.. قد تتجاهله.. وتحاول أن تبدو وكأنك لم تسمعه.. ولكنه يصل إلى أذنيك سواء أردت أو لم ترد.. إذن فالأبصار تتعدد.. أنا أرى هذا .. وأنت ترى هذا .. وثالث يرى هذا.. إلى آخر تعدد الأبصار.. وإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئًا.. ولكن بالنسبة للسمع فنحن جميعًا ما دمنا جالسين في مكان واحد.. فكلنا نسمع نفس الشيء.. ومن هنا اختلف البصر.. ولكن توحد السمع.. كل واحد له بصر.. ينظر به إلى المكان الذي يريده.. ولكننا كلنا نتوحد في السمع فيما نريد.. وما لا نريد أن نسمع.. ومن هنا جاءت كلمة الأبصار.. بينما توحدت كلمة السمع.. ولم تأت كلمة الأسماع.. على أن الأذن مفضلة عن العين لأنها لا تنام.. والشيء الذي لا ينام أرقى في الخلق من الشيء الذي ينام.. فالأذن لا تنام أبدًا منذ ساعة الخلق إنها تعمل منذ الدقيقة الأولى للحياة.. بينما باقي أعضاء الجسم.. بعضها ينتظر أيامًا.. وبعضها ينتظر سنوات..

---

(١) سورة فصلت: ٢٢.

والأذن لا تنام.. فأنت حين تكون نائمًا تنام كل أعضاء جسمك.. ولكن الأذن تبقى متيقظة. فإذا أحدث أحد صوتًا بجانبك.. وأنت نائم.. قمت من النوم على الفور.. ولكن إذا توقفت الأذن عن العمل.. فإن ضجيج النهار وأصوات الناس وكل ما يحدث في هذه الدنيا من ضجيج لا يوقظ النائم لأن آلة الاستدعاء وهى الأذن معطلة.. كما أن الأذن هى آلة الاستدعاء يوم القيامة حين ينفخ في الصور..

والعين تحتاج إلى نور حتى ترى.. تنعكس الأشعة على الأشياء.. ثم تدخل إلى العين فترى.. فإذا كانت الدنيا ظلامًا فإن العين لا ترى.. ولكن الأذن تؤدي مهمتها في الليل والنهار.. في الضوء والظلام.. والإنسان متيقظ.. والإنسان نائم.. فهى لا تنام أبدًا.. ولا تتوقف أبدًا.. أعرفت الآن لماذا فضل الله سبحانه وتعالى السمع على البصر.. وقدمه في القرآن الكريم..؟!

* * *

الإعجاز العلمي في الإحساس .. والجلد

شيء آخر يستوقفنا هو ما كشف عنه الله سبحانه وتعالى عن الحس . . القرآن يلمس هنا حقيقة كونية هامة . . لأنه يأتي ويعلمني كيف أعرف منافذ الحس . . أو مواضع الحس . . وهو يأتي ليحس هذا على أنه حقيقة كونية . . ولكنه لا يشرحه ككتاب طبي . . بل يقول الحقيقة . . فعندما يتحدث عن الكفار الذين يعذبون في النار . . يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النساء:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[(١)].

أي إن الله قد حدد لي حكمة تبديل الجلد أو تغييره بأنه ليذيقهم العذاب . . إذن فالإذاقة حسب القرآن محلها الجلد . .

نأتي الآن إلى الحقيقة العلمية التي تؤكد لنا أن كل أعصاب الإحساس موجودة . . تحت الجلد مباشرة . . وأن هذه الأعصاب التي تشعر بالألم وتجعل الإنسان يحس به وتنقله إلى المخ . . مكانها تحت الجلد مباشرة . . إذن قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[(٢)].

إعلان لحقيقة كونية يمسها الله في القرآن . . وهى إن الإحساس يتم بأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة . . وإن الله كلما أراد أن يذيق الكفار العذاب بدل جلودهم التي احترقت وماتت فيها أعصاب الإحساس بجلود سليمة لم تحترق ليذوقوا العذاب مرة أخرى . . فحينما يأتي الطب ليقول لنا إن أعصاب الجسم تحت الجلد مباشرة . . تقول إن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا . .

---

(١) سورة النساء: ٥٦.

(٢) سورة النساء: ٥٦.

على أن نواحي الإعجاز في القرآن الكريم لا تقتصر على ما ذكرت لكن هذه بعض أمثلة بسيطة . . ولقد تحدثت في الفصول الماضية أن الله سبحانه وتعالى قد قال سيروا في الأرض. . ولم يقل سيروا على الأرض. . وبينت الإعجاز في ذلك بأننا نسير فعلاً في الأرض . . بين الغلاف الجوي والسطح. . كما بينت معنى الآية الكريمة ﴿**رب المشارق والمغارب**﴾ . . وهذا كله يعتبر إعجازاً هائلاً للقرآن الكريم. . وهناك نواحي إعجاز أخرى سنبين بعضها فيما بعد. .

❊ ❊ ❊

الإعجاز العلمي في طفل الأنابيب!!

إننا قبل أن ننتهي من هذا النقاش.. يجب أن نتحدث عن حقيقة علمية.. وهى ليست حقيقة علمية.. يأتي بعضها الناس ليقولوا إن العلم قد استطاع أن يصل إلى نوع الجنين.. هل هو ذكر أم أنثى.. ويزيدون على ذلك أن العلم استطاع أن يخلق ما يطلقون عليه طفلاً صناعيًّا.. وأن هذا يتناقض مع أحد المغيبات الخمسة .. وهى :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾(١).

ونحن نقول لمن يدعى هذا الكلام.. من الذي قال لك أن كلمة ﴿ما﴾ معناها ذكر أم أنثى. إن كلمة ﴿ ما﴾ معناها شقي أم سعيد .. طويل أم قصير.. أبيض أم أسود.. عمره.. رزقه .. أجله .. اسمه.. كل شيء عن المخلوق الذي سيأتي إلى الدنيا.. بل إن الله سبحانه وتعالى أخبر «زكريا» بابنه قبل أن يولد.. وأخبره باسم هذا الابن.. وهو اسم لم يكن البشر يتسمون به.. وقال له عن مستقبله عندما يكبر.. أنه سيكون سيدًا.. وحصوراً ونبيًّا من الصالحين.. كل ذلك تم قبل أن يوجد هذا الطفل في رحم «زوجة زكريا» .. بل قبل أن يتم الخلق تمامًا.. فهذا البلاغ كان في المحراب.. وزكريا يصلي يطلب ولدًا.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى

(١) سورة لقمان: ٣٤.

يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١).

إذن البشارة جاءت هنا وكل شيء عن المولود الجديد قبل أن يتم خلقه في الرحم.. بل وأكثر من ذلك كان زكريا نفسه غير مصدق أن ذلك ممكن أن يحدث لأنه كبير في السن وامرأته عاقر.. في هذه اللحظة التي يستبعد فيها زكريا أن يرزقه بطفل.. أخبره الله أنه سيرزق بولد.. ويكون اسمه «يحيى» وسيكون نبيًّا وحصوراً ومن الصالحين.. وهذا هو لبعض تفسير كلمة ﴿ما﴾ فكيف يفسر البعض كلمة ﴿ما﴾ ذكر أو أنثى.. مع أن ﴿ما﴾ تتناول كل شيء عن المولود قبل أن يولد.. وفي أي أرض يموت.. ومستقبله .. ومن سيتزوج.. ورزقه.. وهل هو سعيد أم شقي.. طويل أم قصير.. وكل ما سيحدث له.. إن كلمة ﴿ما﴾ تتناول كل حرف في حياة الإنسان ما سيشهده .. وكيف سيعيش وإلى أي البلاد سيهاجر.. إذن فعلم الله سبحانه وتعالى في كلمة ﴿ما﴾ علم غير محدود.. فكيف تأتي أنت وتحدده بذكر أم أنثى.. مع أن الله سبحانه وتعالى لم يحدده.. بل قال: ﴿ما﴾ في الأرحام؟

على أن حقيقة الذكر والأنثى ليست حقيقة علمية.. ذلك أن الزوجة ما أن تلد ذكرًا أو أنثى.. وفي بعض الأحيان تقول أنا سأرزق بولد.. وترزق بولد.. وفي بعض الأحيان تقول أنا سأرزق ببنت وترزق ببنت.. وليس معنى ذلك أنك تعلم الغيب.. ولكن هناك ٥٠٪ من الحقيقة في كل افتراض.. هناك ٥٠٪ ولد.. و٥٠٪ بنت.. وأنت إن جاء تخمينك صحيحًا فلأنك معك ٥٠٪ منه.. ولو كانت أجناس البشر متعددة غير ذكر وأنثى.. لو كانوا ٢٠ جنسًا مثلاً لكان الاستناد إلى العلم هنا فيه شيء من الدقة لأن التمييز بين عشرين جنسًا والتنبؤ بما هو قادم منا يحتاج فعلاً إلى طريقة علمية دقيقة.. ولكن التمييز بين ذكر أم أنثى يمارسه بعض

---

(١) سورة آل عمران: ٣٨-٤٠.

الناس الذين لم يقرأوا في حياتهم كتابًا. . يقولون لامرأة حامل يظهر عليك أنك سترزقين بولد. . ويأتي المولود ولداً فعلاً. . فهل معنى ذلك أنهم يعلمون ما في الأرحام. . إنها مسألة يصدق فيها التخمين كثيراً ولكن بعض الناس يأتون ويهللون ويقولون إن أحد المغيبات الخمسة قد انتفى وهذا غير صحيح على الإطلاق . . إن ما ﴿في الأرحام﴾ يشمل أكثر كثيرًا من علم البشر من الآن وحتى يوم الدين.

نأتي بعد ذلك إلى النقطة الأخرى وهي الطفل الصناعي . . وهذه نقطة يثور حولها الجدل في هذه الأيام حول طفل الأنابيب. . وما إلى ذلك. . وأنت إذا أردت أن تصنع بشرًا. . فالمفروض أن تأتي بالمادة الحية تصنعها أولاً ولكنك حينما تأخذ ما خلق الله وتيسر عملية الخلق بما كشف الله لك من علم لا يكون هذا أبدًا فيه صناعة أو طفل صناعي. . أنت أخذت ما خلقه الله من الرجل وأوجدت له الطريقة ليتم ما أراده الله فيما خلقه الله للأنثى. إذن أنت لم تفعل شيئًا سوى أن كان هناك سبب يمنع الحمل. . واستطعت أن تتغلب عليه بطريقة ما. . ولكن المادة الحية والرحم الذي نما فيه الطفل هما من خلق الله سبحانه وتعالى. . فأين ما خلقت أنت من طفل صناعي. . أو طفل الأنابيب؟! إنك لم تخلق شيئًا. . وإذا كان الله قد يسر لك سبيلاً لتعالج عقمًا باستخدام ما خلقه الله. . لاستمرار حياة البشر في الأرض. . فأنت لم تخلق شيئًا. . ولو أردت فعلاً أن ترينا أنك تستطيع أن تخلق طفلاً صناعيًا. . فابدأ أولاً بخلق المادة الحية والعلم كله عاجز أن يخلق خلية حية. . ولكن كل هذا محاولة للإضلال. .

على أن معجزة القرآن لم تأت لتبين أو تكشف عن بعض أسرار الكون. . وتلمس الحقائق الكونية الكبرى. . وإنما جاءت لتتحدى . . القرآن ما دام معجزة فلابد أن فيه تحديًا. . ولقد تحدى القرآن العرب بالبلاغة ولكن الإسلام هو دين البشرية كلها. . ولذلك كان للقرآن أن يتحدى الذين عاشوا وقت نزوله من غير العرب. . ثم يحمل تحديًا لكل جيل بعد ذلك وإلا فالمعجزة لا تكون قائمة. .

ولقد استطاع القرآن أن يمزق حجب الغـيب كلها.. مزق حجاب الماضي.. وحجاب الحاضر.. ومزق حجاب المسـتقبل.. ومزق حجاب النفس البشرية.. ومزق حجاب كل الأشيـاء التي لا يمكن أن يصل إليها علم إلى الآن.. وما زال القرآن يتحدى.. ولا أحد يستطيع أن يواجه هذا التحدي..

* *

الإعجاز العلمي في خلق الإنسان والكواكب والنجوم

يقول الحق سبحانه:

﴿ والسَّمَاءِ والطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾(١).

وقلنا في السـمـاء هى كل مـا علاك فـأظلك، ذلك هو مـعناها في اللغـة ومعناها المرد في بنائية الكون، السماء ذات الجـرم التي خلقها الله سقفًا للأرض كلها، وقلنا إن العلمـاء حينما تكلمـوا عن السماء نظروا فقط إلى جـهة العلو، وكلما اهتدى كشفهم وعقلهم إلى وجود شيء أعلى، ظنوه سماء. ففسروا مثلاً في هذا القرن، أول ما عرفت الكواكب السيارة حول الشمس، أن السماء السبع مراد بهـا الكواكب التي تدور حـول الشمس، لأن العـقل لم يكن قد اكـتشف سيـارات حول الشمس إلا السـبعة. وبعـد ذلك كشـفت سيارات أخـرى فبطل تفسـيرهم بأن السـماوات هى الكواكب التي كـانت تدور حول الشـمس، لأنها وصلت الآن إلى عشرة.

والواقع إن كل ما نراه من كواكب. ونجـوم. وأفلاك، كل ذلك دون السماء الدنيا؛ فكأن السماء الدنيا بعد ذلك كله، وكان يجب على الذين يستنبطون هذه الاستـنباطات أن يلتـفتـوا إلى أن الحق سبـحانه وتعـالى حينمـا تكلم عن هذه الكواكب قال:

﴿ إِنَّا زينا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكواكِبِ ﴾(٢).

فيجب أن نعلم أن كل ما نراه من نجـوم وكواكب وأفلاك، ذلك دون السماء الدنيا. وبعد ذلك بقيت السـماء سقفًا محفوظًا، كمـا أرادها الله مبنية، أما من

---

(١) سورة الطارق: ١-٣.

(٢) سورة الصافات: ٦.

أي شيء بنيت؟ أما كيفية ذلك البناء؟ فهذا أمر لم يطلب منا الحق سبحانه وتعالى أن نعرفه كسائر المدركات التي لا تدخل تحت التجربة، ولا يمكن أن ينالها الحس.. ويكفي حين يقول الحق السماء، أن نستحضر في أذهاننا مدلول هذه الكلمة.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**والسماء والطارق**﴾ يعطينا الحق صورة من آثار ما لم نعرف كنهه وإنما نعرف فينا أثره، وتعرف له مهمة. إذن فغاية العبد المكلف أن ينظر إلى آثار الأشياء عليه. ولا يعنيه أن يعرف كيفية هذه الأشياء. فالانتفاع بالأشياء شيء، ومعرفة تكوينها شيء آخر. بأن انتفاع الإنسان بكل ما هو موجود في الكون لم يترتب على أنه عرفه. فنحن تمتعنا بالشمس، نحن تمتعنا بالهواء، نحن تمتعنا بالماء، وإن كنا لا نعرف الحقيقة التي توجد عليها هذه الشمس. فالحق سبحانه وتعالى يلفتنا في قوله: ﴿**والطارق**﴾ إلى شيء ننتفع بآثاره، ثم يدلنا على أن ﴿**الطارق**﴾ هذا أمر لا يمكن للعقل البشري وحده أن يعرفه. ولذلك يقول فيه ﴿**وما أدراك ما الطارق**﴾ يعني أي شيء أعلمك بذلك الطارق؟ فكأنه لا يمكن لعقولنا أن نعرف ماهية ذلك ﴿**الطارق**﴾ أبدًا، وإنما نحن نتلقى آثار ذلك ﴿**الطارق**﴾، ثم يعرفنا الحق فيقول: ﴿**النجم الثاقب**﴾. إذن فتعريف الحق للطارق بالنجم الثاقب، نقف عنده وقفة.

أولاً كلمة طارق اسم فاعل من طرق، وطرق معناها ضرب بوقع وشدة حتى يحدث صوتًا. ومنه مطرقة الحداد لأنها تحدث ذلك الصوت ومنه سمى الطريق. الذي هو السبيل الذي نسلكه، لأن السابلة طارقة بأقدامها وبعد ذلك وجد عرف لغوي أن ﴿**الطارق**﴾ هو السائر، أو السالك السبيل. وبعد ذلك انتقلت نقلة أخرى وخص بالسائر ليلاً. إذن فيه نقليات متعددة: الطارق هو الذي يضرب بوقع وشدة.

بحيث يسمع لضربه صوت. ومنه المطرقة. والطارق هو الطريق الذي يسلكه السابلة لأن أقدامهم تطرقه. وبعد ذلك صرف إلى السائر نفسه في الطريق. وسمى طارقًا. ثم توسع في ذلك وجعل لكل من يطرق لكن ليلاً.

ولماذا جعلت اللغة هذا اللفظ ينحاز أخيراً إلى الطارق ليلاً؟ قالوا: لأن الليل سكون. معنى السكون أن تهدأ الحركة، ويذهب الضجيج. فلما تهدأ الحركة في الكون ويذهب الضجيج، يبقى أي حركة للمشي تسمع. الذي يفسد على الناس سماع المشي فحركة الكون تعمل ضجيجًا على المشي. لكن إذا كان هناك سكون من الممكن أن الطارق يسمع له صوت. أو لأن طارق الليل يأتي والأبواب مغلقة دائمًا فهو يدق عليها ليستأذن أما في النهار فهى مفتوحة إذن انحازت الكلمة إلى أن الطارق. هو الذي يسير ليلاً.

وبعد ذلك توسع فيها توسع آخر، وهو أن يكون لكل ما يطرق على الإنسان ولو من وهم أو خيال، يسمونه طارقًا. ولذلك يقولون: نعوذ بالله من طارق الهم. طارق الهم خاطر يأتي بالسوء فيفسد على الإنسان مزاجه. . ليس له أمر محس. ولذلك قالوا: الطارق من الممكن أن لا يؤذن له، أو من الممكن أن يدفع هذا إذا كان ماديًا. فإذا كان غير مادي لا تعرف كيف يتسلل إلى نفسك. هذا هو شر أنواع الطارق. شر أنواع الطارق هو الذي لا تستطيع أن تحجبه لا بأن تغلق الباب في وجهه، ولا بأن تدفعه إن رأيته، ولكنه يتسلل عليك بلطف، ويدخل على قلبك، هذا هو طارق الهم.

الحق سبحانه وتعالى حينما يقول: ﴿**وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب**﴾ ومعنى كلمة ﴿**ثاقب**﴾ أن النجم يثقب الظلام، وينفذ فيه. ثقب الظلام هذا آية من آيات كون الله. لماذا؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا عنايته بخلقه. فهو حين يرسل الشمس ضياء بالنهار فينشط الناس إلى حركتهم.

ويعرفون ما يتناولون، وما يحترسون عنه فإذا ما جاء الليل وجاء الظلام فلف الكون، قد يضطر الإنسان إلى أن يعمل ليلاً، أو إلى أن يسير ليلاً.

فالحق سبحانه وتعالى لم يمنع هذا اللون من الحركة، وبعد ذلك خلق النجم، ولذلك يقول في آية أخرى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1]. إذن فثقب الظلام بضوء الطارق، هذا أمر منظور أم مسموع؟ إنه أمر منظور فكيف نجد القرآن قد تكلم عن الأمر المنظور فقال إنه طارق، والطارق يكون للأمر المحس؟ إذن فالمعنى الأخير الذي انتهت إليه كلمة ﴿طارق﴾ هو الوافد عليك من أي لون، ولو كان وهمًا أو خيالاً، أو كان أمرًا لا صوت له.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾[2]. حينما يقول الحق: ﴿النجم الثاقب﴾ يدل على أن الإشعاع الذي يأتي من النجم، لو لم يجيء لكان الليل كتلة واحدة، وما دام الليل كتلة واحدة، يبقى ظلامه شاملاً . . وما دام ظلامه شاملاً تبقى الحركة غير متأنية يتأتي الحق سبحانه وتعالى يقول: إن النجم هنا يثقب الليل بذلك الضوء.

هذا مبلغ العناية بذلك الإنسان. يعطيه في النهار الشمس ويعطيه أيضًا في الليل النجم، حتى لا يمتنع من يريد الحركة عن الحركة.

نحن قلنا قديمًا إن كل قسم في القرآن، لابد أن تكون له صلة بالمقسم عليه المراد تأكيده. فما علاقة الطارق الذي هو ﴿النجم الثاقب﴾ بما يقسم الحق عليه سبحانه وتعالى؟ وهو ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ حافظ هذه إما أن تؤخذ من الحفظ، بمعنى الرعاية، والعناية من الحافظ للمحفوظ، وإما أن تأتي من حافظ يعني رقيب لا يغيب عنه شيء. فإذا توجهنا بكلمة حافظ إلى معنى الذي

---

(١) سورة النحل: ١٦.

(٢) سورة الطارق: ٢،٣.

يراعي المحفوظ بحفظه، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في آية أخرى من آياته: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾(١). يعني ذلك الحفظ من أمر الله. الإنسان منا تمر عليه أحداث كثيرة، لا يمكن لقوته أن تدفعها، ولا يمكن لحيلته، ولا يمكن لأناته ولا رؤيته أن تفكر فيها. وبعد ذلك حينما يقص الإنسان هذه الحادثة، يقول: هذه مسألة إلهية.. إما ظرفي، إما قوتي، أنا لم أستطع أن أصنع شيئًا. يبقى معنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى وكل بالإنسان من يحفظه من الأشياء التي تفوق طاقته، وتفوق قدرته. يعني فيه حاجة تجعل الإنسان يتأتي لكي يتحفظ منها. وفيه أشياء تسقط على الإنسان وتقع عليه فجأة. لو لم يوجد من الحق سبحانه وتعالى حافظ لتلك النفس الإنسانية، لكانت الأحداث المفاجئة التي لا تدخل تحت طاقة الإنسان، ولا تنتظر رؤيته ولا تفكيره، كانت تقضي عليه.

يبقى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾(٢). يقول إنك لست متروكًا لرعاية نفسك، ولا للعناية بها. فهناك أشياء وأحداث فوق عنايتك ورعايتك، ولولا إني سخرت لك من جنودي ما لا تعلم ما يحوطك، ومما يحفظك، كانت هذه الأشياء فتكت بك. إذن هذا يدل على أن الحفظ هنا هو العناية، والرعاية للمحفوظ.. أو أن الحفظ معناه الرقابة، والعلم بكل ما يكون من هذا المحفوظ. ومن ذلك كما يقول الحق: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾(٣). يبقى إذن كلمة (حافظ) تعطي ما للإنسان، وتعطي ما على الإنسان، لأن كل شيء لك، يقابله شيء عليك. والذي هو لك كان على الله. والذي عليك كان الله يفي ما دام فيه له،

---

(١) سورة الرعد: ١١.

(٢) سورة الرعد: ١١.

(٣) سورة الانفطار: ١٠، ١١.

وفيـه على الآية هنا نقـول: ﴿وإن عليكم لحـافظين﴾ لو أن المعنى الأول هو المقصود كان يقول وإن لكـم لحافظين. إنما قال إن عليكم يبقى في باب (على)، ليست في بـاب (اللام). تبقى ﴿وإن عليك لحـافظين كرامًا كـاتبين﴾ هذه الآية تؤيدها ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[1]. لما هذه تأتي لمعان متعددة: المعنى الأول أنها ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ تأتي للنفي ، يعني لنفي الفعل سابقًا نفـيا يتـصل بالحال. تـقول: لما يجيء زيد. مـثل: لم يجيء زيد أيضًـا. يعني حكمت بعدم مـجيئه في الماضي، إلا أن الـفارق بين (لم) وبين (لما) أن منفى لما متـصل بالحال. يعني لم يجيء قـبل، وإلى الآن لم يجيء. لكن مفـهوم (لم) ينفي مجيئه في الماضي، إنما من الجـائز أنه يجيء الآن. فساعة ما ترى (لما) هذه اعرف أن الفعل بعدها منفى في الماضي واستمر نفيه إلى الحال الذي تتكلم فيه.

ولكن يكون متـوقع الحصول. ولذلك إذا قـرأنا قول الله ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[2]. أنتم نافـقـتم وعـملتم مطلوب الإسلام إنما الإيمان مـا زال لم يدخل قلوبكم. ﴿ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان﴾ كلمـة ﴿ولما يدخل الإيمان﴾ يعني لحين الخطـاب هذا لم يكن الإيمان دخل عندكم ولكـن يتـوقع أن يدخل. هذا هو الأمل. يتبـقى مـنفى (لما) في خصوصـيات أنه ينفي الفعل مـاضيًا ويستمـر نفيه إلى الحال الذي تتكـلم فيه، بخلاف (لم) فإنها تنفي في الماضي ويجـوز أن ينقطع في الحال لم يحضر زيد، ولكنه حضر الآن؛ يعني لم يحضر في الماضي. . (لما) منـفيها لازم يتصل بالحال و(لما) تمتاز أيـضًا بأن منفيـها يتـوقع أن يحدث. لما يثـمر بسـتاننا وقـد أثمرت البساتين. فيه توقع أن يثمر ولذلك (لما) يقلب الفعل المضارع بعدها إلى الماضي. ولها استعمال آخر. (لما) التي تدل على الوجود للوجود، يعني على وجود شيء

---

(١) سورة الطارق: ٤.

(٢) سورة الحجرات: ١٤.

لوجود شيء آخر. ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾(١). كان الحق يقول إن المجادلة وجدت منه لما ذهب الروع وجاءت البشرى. هذه يسموها (لما) حرف وجود لوجود.

يعني وجد شيء لوجود غيره. لما حضر فلان صنعنا كذا وكذا، فصنعنا وجد بعد ما وجد حضور فلان. هذا استعمال آخر.

هناك استعمال ثالث الذي نحن بصدده الآن وإنها تأتي بمعنى (إلا) الاستثنائية. يبقى هنا نقول: إن كل نفس إلا عليها حافظ. وتبقى (إن) هنا معناها النفي لأن (إن) تكون شرطية. إن قام زيد قام عمرو. تكون مخففة عن الثقيلة من إن يعني. تكون بمعنى النفي ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾(٢). يعني أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، تبقى (إن) هنا نفي «**إن كل نفس إلا عليها حافظ**» معناها احذف إن وضع ما، تبقى «ما كل نفس إلا عليها حافظ» يعني لم توجد نفس مفلتة من الحافظ. هنا لو قيل مثلاً في غير القرآن: إن نفس إلا عليها حافظ. يعني ما نفس إلا عليها حافظ، يبقى الكلام مستقيم. لأن النكرة في سياق النفي تعم يبقى الأسلوب ماشي. لكن انظروا كيف تأكد. نكرة في سياق النفي، وبعد ذلك جاء لها بسور (كل) لكي تفيد الإحاطة إفادة من طريقين، الطريق الأول النكرة في سياق النفي. الطريق الثاني السور الكلي. يعني لا تظن نفس من النفوس، أنها بمنأى عن الرقابة وبمنأى عن المحافظة.

الرقابة هذه، رقابة الحق سبحانه وتعالى، أو رقابة أيضًا ما ولكله الحق ممن يكتبون. ونجد أن المناسبة هنا بين ﴿**وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب**﴾ فكأن الحافظ الرقيب يطلع على الأشياء كما إن ﴿**النجم الثاقب**﴾

(١) سورة هود: ٧٣.

(٢) سورة المجادلة: ٢.

ليشقب الظلام وينفذ إلى دقائق الأشياء. وإلى داخلها يبقى إذن القسم كدليل على المقسم عليه. يبقى لما يقول: ﴿وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب﴾ الذي يثقب الظلام فيرى الإنسان خبايا الأشياء يبقى هذا منسجم مع ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ وهذا الحافظ ثاقب يثقب عليها سرائرها.

ولذلك سيأتي في الآخرة ﴿يوم تبلى السرائر﴾. إذن الحق سبحانه وتعالى نقلنا من آية كونية. إلى آية نفسية. الآية الكونية ﴿والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب﴾ ينظر كل واحد يراه. آية في الكون مرئية، نقلنا من ذلك إلى آية في النفس الإنسانية. وهنا يتجلى لنا دقة الأداء القرآني في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾. لأن العطاء الأول لصالح النفس. ما دام نجم ثاقب لكي نعرف به حركاتنا وإلخ يبقى لصالحك. كل حاجة تعطي لها لازم لها مقابل. لا نعتني بك تلك العناية. ثم نتركك سدى عنايتنا بك دليل على أن ذلك مهمة معنا.

ولذلك يبتدئ يشرح الإنسان، قضية كونية أخرى في الإنسان، كيف خلق الإنسان ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾[1]. وبعدين يقول ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾[2]. هنا ينسجم أيضًا القسم في قوله: ﴿والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق، النجم الثاقب﴾ ينسجم مع قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[3]. وينسجم انسجامًا آخر مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب﴾ وينسجم أيضًا انسجامًا مع الحفظ في قوله: ﴿إنه على رجعه لقادر﴾ (متى؟) يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا

---

(١) سورة الطارق: ٥.

(٢) سورة الطارق: ٦-٨.

(٣) سورة الطارق: ٤.

ناصر كلمة، ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ خلق الإنسان أمر لا شك فيه، ولكن المطلوب منه أن ينظر فـيه، يقول له: انظر أيهـا الإنسان بصورتك الكمـالية في الكون، لأن الإنسان قلنا قـديمًا باستقرار الـكون، هو السيد المتميز في الكون. الذي كل أجناس الكون في خدمته، لأنه يتميز بالخصوصيات المتتالية، المتواليات الخصوصـية. قلنا فيمـا قيل مما قبل أن الجماد يتـميز عنه النبات بحـركة النمو. والحيـوان يتميـز عن النبات بالحس، والإنسان يتـميز عن الحـيوان بالفكر. إذن فالقـمة في الأجناس هو ذلك الإنسان. قـال: يا إنسان يا من في هذا المسـتوى العالى من الكمـال انظر مم خلقت؟ فلينظر الإنسان العالي هذا الشـامخ. السيد في ذلك الكون، ينظر مم خلق، كلمة ينظر هنا إذا سمعـتها في القرآن، لا تفيد النظر بمعنى الرؤية. لا. . النظر بمعنى الفكر، والفكر الذي وسـيلته النظر. يبقى كان هذه معنى ملاحظة، هذه الملاحظة تؤديك إلى حـقيقة. ونحن عرفنا أن في كل التجارب العلمية، إنها تبدأ بالملاحظـة، وبعدين إجراء التجربة المعملية على الملاحظة، وبعدين نعمل نظرية، وبعدين نعمل حقيقة علمية، إلى ما شاء الله.

إذن فـأساس كل شـيء النظر، ليس النظر المعـرض المدقق، النظر المحـقق. يعني كـان وجب على الإنسان مـا دام ولم يخلق نفسـه؟ ولم يهب لنفسـه هذه السيـادة، ولم يأخذها بقـوته. كأن يفـهم ما هى الحكاية من أصـلها؟ ﴿فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلـب والترائب﴾ هذه حقيـقة القرآن تعرض لـها، قبل العلم الحديث مـا يكشف هذه الحكاية. أن ماء الصلب ومـاء الترائب، الصلب الظهـر، فقـار الظهر والتـرائب التي هى عظام الصدر من المرأة، أو موضع القلادة منها. العلم انتهى إلينا أيضًا إلى هذه الحقيقة ﴿مم خلق * خلق من ماء دافق﴾ كلمة من ماء دافق هذه أسندت الدفق للماء، مما يدل على أنه ليس مدفـوق بإرادتك، لأن العملية لو الإنسان لاحظـها، يجد أنه يغلب على هذه المـسألة بحـيث لا خـيار له فـي أن لا يدفق منه الماء. فكأن

الدفق خاصية موجودة في الماء ذاته، وينزل بالشدة والقوة، بحيث لو أراد الإنسان بإرادته أن يمنعه ما استطاع. ولذلك لم يقل (مدفوق) مدفوق يبقى الفعل يضيع. لك ماء دافق يدل على أن الخصوصية فيه، حين ينضج الرجل يصل إلى القمة الجنسية، يغلبه ذلك الماء، بحيث لا يستطيع مطلقًا أن يمنعه. يبقى إذن نسبة الدفق إلى الماء، هذه تعطينا أنه خرج عن إرادتك، هو له أنه لا يعمل الوسائل التي تؤدي لكن إذا صنع الوسائل التي تؤديه، يبقى لا قدرة له عليه أبدًا. هذه من ماء دافق.

﴿فلينظر الإنسان﴾ ما المراد بالإنسان إذن؟ لازم يكون الخطاب موجه إلى الإنسان الذي خلق من ماء دافق. وسيدنا آدم الذي خلق من الطين؟ الحق يريد أن يلفت الإنسان إلى اعتبار أصلية وجوده. ولا يلفته إلا إذا كان هناك غفلة، ولا تكون هناك غفلة إلا لأنه لم يشهد ذلك الأمر ولكن آدم شهد التكوين بيد الله. وشهد النفخ فيه بيد الله. فآدم لاشك عنده في هذه المسألة. إنما الشك في الناس الذين ينضجون بعد أن تكون الفترة انتهت، لا يقدر يدرك كيف خلق هذا؟. فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ومعنى فكرة الخلق هي الإيجاد من عدم. هذا الإيجاد من عدم إما أن يكون عدمًا في الحقيقة وإما أن يكون قد وجد من عدم، بحيث يوجد على شكل هذا الشكل لا يوحي بما ينتهي إليه الكمال الإنساني. فإنك لو نظرت مثلاً إلى المادة التي يخلق الإنسان منها. وبعد ذلك يتصل ماء الرجل ببويضة المرأة. وبعد ذلك تنشأ الخلية. الكلام الذي يقولونه في علم الأجنة، وبعد ذلك تنقسم الخلية. لما تنقسم الخلية؟ الخلية أولاً لا عقل لها، ولا إدراك، ولا إرادة لكن ساعة ما تنقسم الخلية، شيء عجيب، الذي خلقها هداها إلى ما تسير إليه في مسارها. فتلتفت تجد بانقسام الخلايا، بعض الخلايا تتشكل لتعمل عظمًا وبعضها تتشكل لتعمل عضلاً. بعضها يتشكل ليعمل

أعصابًا، والتي تعمل العظم، ليس كله عظمًـا. العظم نفسه أنواعًا. هذه الخلية تعمـل العظم المجوف، وهذا العظم المسطح. وهذا العظـم الدقيق. . عمـلية لا يمكن أبدًا أن تكون إلا إذا كان وراءها مدير، وضع في كل هذه الأشياء الغرائزية تكويناتها بحـيث تسير في مسارها لـتؤدي المهمة المنوطة بها. وهـى كانت خلية واحدة، وبعد ذلك هذا يتكون عظمًا، وهذا يتكون جهازًا هضميًّا، وهذا يتكون جهازًا تنفسيًّا، وهذا يتكون أعصابًا. . كل هذا والمادة الأصلية واحدة.

مـاذا يدل عليـه هذا؟ يدل على أن وراء ذلك الإنسـان العظيم هذا، قـدرة عالية، وقـدرة فائقة، وهندسة ألهمت، أو وضـعت في مادة وجوده، الماء الذي يهيئ كل خلية إلى ما تكونه من ذلك الجهاز الإنساني.

هنا لما نتكلـم عن مسـألة الخلق. الحق سـبـحـانه وتعـالى ينزع من رءوس الناس، أن الخلق لابد له من تلك السـببية، الـذي هو الماء الدافق. الذي يخرج من بين الصلب والترائب. قال: لا . . أنا أتكلم عن الحيـاة الرتيبة التي أوجدتها فيكم، في جمهرتكم. ولكن أنا حين أريد أن أخلق لا أريد ماء دافقًا، ولا صلبًا ولا ترائب. بدليل إنني خلـقت الأب الأصيل عن غـير هـذه الطريقة وبعـدين خلقت منه على هذه الطريقة. .

ولذلك تجد العجب في أن الحق سـبحانه وتعالى أدار عـملية الخلق للإنسان على القسمة العقليـة النهائية . . القسمة العقلية النهـائية إننا لما نرى الجمهرة كل الناس يتكونوا من ذكـر وأنثى الشيء المردد بين شـيئين، لا ينتج عنه منطلـقًا إلا صور أربعـة: إما أن يوجد بوجـود الشيئين الشـيئان يوجـدان، الذكر والأنثى. قسمة عقلية، أو يوجـد بلا وجود الزوجين. أو يوجد بواحد دون الآخر. واحد دون الآخر هذا يعطينا صـورتين. لأن يوجد بواحـد الذي هو الذكر، أو الأنثى يبقى عـندنا أربع صور عقـلية، يعني الشيء المتـردد من شيئـين له أربع صور: الصورة الأولى أن يوجد منها مـجتمعين. الصورة المقابلة من غـيرهما. الصورة

الثالثة من الأولى. الصورة الرابعة من الثاني. فالحق سبحانه وتعالى حتى يعلمنا أن السبب ليس هو الموجد، ولكن المسبب هو الموجد. فحين ينعدم الماء الدافق من بين الصلب والترائب، العنصرين يقدر يخلق وقد خلق أباكم آدم على هذه الصورة. حين يريد أن يوجد من واحد دون الآخر يوجد. توجد حواء يوجد عيسى. إذن المسألة ليست دائرة على الأسباب. لماذا؟ لأن السبب منع فيهما، السبب منع في واحد، السبب منع في الآخر. وقد يوجد السببان معًا، الذي هو الماء الدافق، ويخرج من بين الصلب والترائب. ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يوجد منه شيئًا. ولذلك تجد الحق في قوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾[1]. مع اكتمال السببين، تكلم في العقم عند اكتمال السببين. إذن المسألة كون الله يخلق بسبب، هذه هي العملية الرتيبة . . لكن ذلك لا يحدد مجال قدرته، فإنه يخلق أيضًا بلا سبب، ويوجد السببان في أقوى ما يكون السببان . . ومع ذلك لا يتأتى نتاج منهما ﴿ويجعل من يشاء عقيمًا﴾ .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق وبعد ذلك يصفه مرة أخرى من ماء مهين ما معنى مهين؟ لما تنظر إلى ذاتية ما هو الماء؟ ماذا فيه؟ ليس فيه لا قدرة ولا إرادة ولا أي حاجة. إنما إرادة الحق أن يتكون منه ذلك الإنسان العالي. . الماء المهين ، هذا لما نتزل إلى الجنس الذي تحتنا وهو الحيوان، الحيوان أيضًا يوجد من ماء وأيضًا دافق وأيضًا من الصلب ومن الترائب لماذا يخرج حيوانًا لا فكر له، ويظل في المنزلة الدنيا وهذا يخرج إنسانًا بكل هذه الخصائص المتميزة العالية؟ إذن المسألة ليست ماء دافقًا، ولا الصلب، ولا الترائب. المسألة إرادة المكون أن يكون ذلك الكائن.

(١) سورة الشورى: ٤٩، ٥٠.

إذن فتكريم الحق للإنسان بما صوره هذه الصورة الجميلة، وبعد ذلك بما أتاه من الملكات الواعية الواسعة، كان يجب أنه يقول: هل أصل تكوينك بشيء بما تكون أنت عليه؟ لا. . أصل تكويني لا يشى هذه الوشاية، لا يعطيني هذا الخاطر، إذن إرادة الحق سبحانه وتعالى هى التي جعلت مني ذلك الإنسان. وإلا فشيء آخر يشترك معي في الماء الدافق، أيضًا والصلب والترائب. . ووإلخ. ومع ذلك أيصير إنسانًا، بل يقف عند حيوانيته، ويظل في هذه الحيوانية. ولذلك لا نقول الحيوان له روح إنما نقول: نامية حيوانية فقط. ولذلك هذا السبب إن العلماء حينما يتكلمون عن الإنسان وهو في أمه يقولون أنه لا يصبح إنسانًا إلا بعد ١٢٠ يومًا. يعني يظل بالنامية الحيوانية مدة ١٢٠ يومًا ولذلك لما وصلوا إلى قوله ﷺ: «**إن أحدكم ليوجد في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم علقة في مثل ذلك. ثم مضغة في مثل ذلك. ثم يأتي إليه الملك فينفخ فيه الروح**»، ما هى الروح أليس النمو هذا روحًا؟ لكن ليس الروح الإنسانية. الروح الإنسانية تجيء بعد هذه الفترة. بعد فترة الـ ١٢٠ يومًا إنما فيه نامية حيوانية. ومعنى النامية الحيوانية . . مثلما تجيء ببعض حب الغلال وترميها في الأرض، وبعد ذلك تنبت الحبة هذه ماذا فيها؟ فيها نامية نباتية بالقوة، ولما تنمو يبقى فيها نامية نباتية بالفعل، الحيوان المنوي فيه النامية الحيوانية بالقوة. وبعد ذلك حينما يوجد في البويضة تجيء فيه نامية حيوانية بالفعل. وبعد ذلك حينما يريد الله سبحانه وتعالى له الإنسانية، يأتي له الملك فينفخ فيه الروح، أي الإنسانية. يبقى إذن ليست كلمة الروح هى التي ينشأ عنها النمو، وإلا فالنبات ينمو أيضًا، ولا تقول النبت فيه روح.

إذن الحديث حينما تكلم، تكلم عن الإنسان، إن النامية الحيوانية موجودة فيه في هذه الفترات ولا يوجد فيه التكوين الإنساني أو الروح الإنسانية إلا بعد هذا السن. ولذلك تلك وجهة نظر من أباح الإجهاض قبل هذه المدة. قال:

لأنه لا يوجد اعتداء على إنسان. هو شيء صالح أن يكون إنسانًا، إنما لم يعد إنسان. .

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب﴾ أوهم كثيراً من الباحثين أن ماء الرجل الذي نسميه نطفة من مني يمنى، وماء المرأة يظنون أن ماء المرأة هو الماء الذي يأتي عقب العملية الجنسية. نقول: لا. . ماء المرأة في العملية الجنسية لا دخل له في التكوين الإنساني. فإن المرأة تفرز البويضة سواء تعرضت لعملية جنسية أو لم تتعرض. . والبويضة لها وقت تنزل فيه، فإن صادفت وجود ماء الرجل تنتهي المسألة. إذن فالماء المراد بالماء الدافق ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ هو الماء الذي ينتج في العملية الجنسية من الرجل، ولكنه بالنسبة للمرأة ليس الماء الذي يأتي في العملية الجنسية، وإنما هو الماء الذي في البويضة نفسها. سواء تعرضت لعملية جنسية أو لم تتعرض.

وهنا حصل إشكال، هذا الإشكال الناس الذين ينقبون في القرآن، وينقبون في الحديث مرة ينقبون ليعرفوا آثار الكمال فيه، ومرة ينقبون ليعرفوا آثار التضارب فيه. المستشرقون دارسون وعاملون فهارس للقرآن، وفهارس للحديث، وبعد ذلك تلتفت تجدهم جاءوا على أشياء، هذه الأشياء يثيرونها في الحديث، ومن العجيب لمكرهم، إنهم قبل أن يتكلموا عن الحديث، يقولون هذا الحديث موثق، ويعمل لك فيه العمليات التي تعملها أنت حينما تصفي الحديث الذي تستنبط منه حكمك. فيعطيك فكرة أن هذا إخلاص في البحث. ولكنه يأتي من ناحية أخرى ليبرز ناحية هذه الناحية سطحيات تعارض بعض قضايا العلم. يبقى لو أنه لا يريد بيان هذه، ما كان يتعب نفسه في التوثيق. أنه يريد التوثيق لأنني لو قلت له إن هذا حديث ضعيف، يقول: لا إنه حديث ثابت. يريد أن يأخذ من ثبوت الحديث ليس الإخلاص للحديث، إنما لكي يوثق

الضربة فلما وصلوا إلى قول الرسول ﷺ، لما سئل أن الولد ينزع إلى جنس أبيه كيف، وإلى أمه كيف؟ فقال: إذا سبق ماء الذكر ماء الأنثى، نزع الولد إلى أبيه. وإذا سبق ماء الأنثى ماء الذكر نزع الولد إلى أمه.

هم قالوا: أولاً ماء المرأة لا دخل له في هذه العملية. وحبوا يجعلونا نفسر الماء أنه الذي يأتي أثناء العملية من صلب الرجل وترائب المرأة. لكي يقولوا إن الحديث غير متفق مع الحقائق الكونية، ولا الحقائق العلمية.. هذه واحدة. النقطة الثانية إن في مسألة النزوع. قالوا علميًّا ثبت إن ماء المرأة على إنه البويضة يعني.. إن قلنا له لا، إنها البويضة يقول: البويضة لا دخل لها في تحديد جنس الذكور ولا جنس الأنوثة. وإنما الذي يتحكم في ذلك هو ماء الرجل نفسه.

هذه مسألة جعلتنا إذا سبق ماء الذكر ماء الأنثى، الناس فهموا إن ماء الذكر من الذكر وماء الأنثى من الأنثى. إنما كلمة إذا سبق هى التي تعطينا الجواب. كلمة (سبق) هذه إذا سمعتها، ماذا تفهم منها؟ تفهم منها أن اثنين يتسابقان. المتسابقان لابد أن تكونا منطلقهما من مكان واحد، وفي اتجاه واحد. إذن فكلمة (سبق) كان يجب أن يقفوا عندها معنى (سبق) هنا إن ماء الذكر وماء الأنثى جاءا من جهة الرجل.. وإلا فإذا كانا متقابلان كيف يقال (سبق) في واحد منهما. تقابلا يبقى ليس فيه (سبق) إنما (سبق) يبقى المنطلق من واحد. وما دام المنطلق من واحد يبقى المراد بماء الذكر وماء الأنثى الصادرين من الرجل. وهذا هو الذي أثبته العلم. إن الرجل يخرج من مائه ذكوري وأنثوي يبقى إذن هم لما ينقبوا عن هذه الأشياء، نحن في المولود ذكراً وإن غلب ماء الأنوثة يكون المولود أنثى .. يبقى إذن هم لما ينقبوا عن هذه الأشياء، نحن في الواقع لكي نرد عليهم، لازم يكون عندنا فطنة إلى استقراء كل لفظ في الحديث، الذي نجانا من هذه كلمة (إذا سبق) أو (إذا غلب) في رواية (إذا غلب).. نقول ما دام سبق وغلب يكون الإنسان منطلقهما ليس من مكانين، لازم يكون منطلقهما من مكان واحد.

إذن إدارة الخلق من الحق سبحانه وتعالى لخلقه على الصور الأربعة. لكي نفهم أن السبب ليس ضروريًا في الوجود هذه واحدة. نقطة ثانية أن علم الأجنة، أو العلم الذي يبحث في تكوين الإنسان كل ما تجيء قضية علمية جديدة، نجد القرآن إن لم يكن قد تكلم عنها بصراحة فإنه رمز إليها رمزًا تتسع له العقول التي عاصرت نزوله، ولا يضيق بما ينتهي إليه العقل الطموحي في الاكتشافات.

﴿فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب﴾ وبعد ذلك يأتي المهم **﴿إنه على رجعه لقادر﴾** ما دام أثبت العظمة في التكوين، والعظمة في الإيجاد والعظمة في أنه خلق ذلك الإنسان العظيم بكل مواهبه وملكاته، من ماء مهين، يبقى معنى ذلك أن هذه العناية له، فماذا بقى عليه. لقد قلنا أن كل (له)، يبقى لازم فيه (عليه) حتى ربنا لما طلب (له) أشياء، أيضًا جعل (عليه) أشياء. ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾[1]. يعني إذن المسألة (لك) يبقى لازم فيه مقابلة (عليك). لا تبقى العناية هذه التي سيدتك على كل هذه الأجناس، وجعلتك صاحب هذه الملكات العظيمة، وبعد ذلك تظن أننا عملنا هذه العملية وبعد ذلك أنت متروك عبثًا.

هنا يلاحظ أن السورة تعرضت للقوسين : قوس الإيجاد وقوس الإعادة. **﴿فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب﴾** وبعد ذلك يجتاز مرحلة الحياة الطويلة اجتيازًا لا تشعر بهذه الحياة، ينقلك من الإيجاد الأول، إلى الإيجاد الثاني، وكأن مرحلة هذه الحياة لا دخل لها فيك، ليدلني على أن خلقتي ليست لهذه المسألة، إنا خلقتي وتكويني أخذ هذه المرحلة لكي فقط ينعم المخلوق بأنسه لخالقه، مرحلة الحياة هذه كلها مرحلة مطمورة، هذه المرحلة المطمورة، هى مطمورة في حسابك، وحساب الزمن،

---

(١) سورة الأنعام: ٥٤.

والحق سبحـانه وتعالى أوجدك لهذه الغاية، إذن هذا يعطـيني عناية أكبر. لماذا؟ لأن لو كانت المسألة هى الدنيا هذه فقط، وبعد ذلك نعرف أنها منتهية، ونعرف أن فيها أناس لا يعيشون فيـها كثيراً، تبقى إذن لا تكون هذه هي الغاية، لأنه لما تكون الدنيا هذه هى الـغاية ملثما قـلنا قديمًا، وبعد ذلك يأتي الإنســان صاحب المنهج، ويستوي مع الذي يقصيني عن المنهج، صـاحب المنهج استقام في الحياة واستـقامت به الحـياة، التي أن تقصى عـن المنهج فسد في الحـياة، وأفـسد في الحياة. . يبقى لما تكون المسألة ستنتهى بهذه المسألة يبقى هذا كلام عبث.

إذن قول الحق سبـحانه وتعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[1]. ولذلك قال: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾[2]. تبقى هذه العـملية التي أعـملها. الهندسة العظيمة هذه جاءت لهذه الفـترة؟ لا. . إنما جاءت لعملية أخرى ولكن يلفتنا ويقول: لكي تسعد في العملية الثانية هذه لازم الفترة التي نقول عنها فترة وتخطيناها في الكلام هنا، هى الفترة التي تعطيك خير الفترة الثانية. وما دام فيه حفيظ ورقيب عليك. ما قـيمة الحفيظ، وما قيمـة الرقيب، لماذا حفيظ ورقيب؟ لماذا كانت المسألة متروكة سدى؟ حـفيظ ورقيب لأننا ضروري سنحاسب وما دام سنحاسب حساب من؟. . حساب من يرى منا خفايا الأمور.

ولذلك يقول: ﴿يوم تبلى السـرائر﴾ يعني تخـتبـر بإخراج المكنوز فـيهـا، والسرائـر هى ما يسـره الإنسان وإذا كانت الأمـور التي أسرهـا الإنسان ستـبلى وتختبر وتخرج. يبقى الأمـور التي أعلنها الإنسان من باب أولى واضحة، ولكن لما كان الإنسان يظن أنه بكتمانه، وما أسره لكثـير من الأشياء قد أخفاه نقول له: لا أنت لم تخفه لأن الحق سـبحانه وتعالى: ﴿يعلم السر وأخفى﴾ يقول واحد

(١) سورة القيامة: ٣٦.

(٢) سورة القيامة: ٣٧-٣٩.

السر الذي أسررته في نفسي ولكن ما هو الأخفى هذا؟ تقول له: السر يطلق إطلاقين: هو ما تسره للغير في أذنه. يبقى إن كان السر معناه، يبقى أخفى منه وجود في نفسك قبل أن تسره للغير يعني قبل ما يتصدى، هذه واحدة. . وإن كان السر هو ما أسررت به في نفسك ولم تقله لأحد يبقى الأخفى منه ماذا؟ لأن المخفى لابد أن يكون بعد وجود. أنه يعلمه قبل أن يوجد فينا يبقى كلمة ﴿السر وأخفى﴾ يعني قبل أن يكون سرًا عندك، هو عالم أنه سيجيء عند السر.

إذن ﴿إنه على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر﴾ وبعد ذلك نقطة (رجعه) هذه هي التي كانت موضع الشك عند المعاصرين لنزول القرآن. ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾[1]. ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[2]. فيأتي الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك ليدلل من الوجود الذي يحيط بهم، دليلاً على أن هذه المسألة كوني ارجع هذه مسألة سهلة لأن هذا حادث في كونكم، ما هو الذي حادث في كوننا؟ . . قال: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾[3]. ما هو الرجع؟ الرجع هو المطر. وكنا تناولنا هذه وقلنا إن المطر لما ينزل وبعدين يتبخر، وبعدين يطلع ثانيًا، ﴿ذات الرجع﴾ يعني الماء يرجع يأخذ دورته ويطلع ثانيًا. . ولماذا السماء ذات الرجع؟ لأنه لا يفيد الإنسان الفائدة إلا إذا نزل من السماء، لأنه لازم يكون ماء عذبًا صالحًا لأن تشرب منه وأن تروى، إذن فالعملية كما قلنا عملية دائرة أم غير دائرة؟ عملية دائرة. ولذلك حتى كلمة الرجع ﴿إنه على رجعه لقادر﴾ ونجيء مثلاً في سورة الذاريات ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاتِ وَقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾[4]. جاء بعملية الماء من أولها إلى آخرها، وبعد ذلك قال إنك سترجع. لماذا جاء

---

(١) سورة النازعات: ١١.

(٢) سورة الواقعة: ٤٧.

(٣) سورة الطارق: ١١، ١٢.

(٤) سورة الذاريات: ١-٦.

بعملية الماء؟ لأن هذه الدورة هي الدورة. فإذا كان الماء في هذه الدورة وأنت تشاهدها، وقلنا إن كمية الماء الموجودة في الكون كلها لم تنقص ولا زادت.

وكل ما يحتفظه منه الإنسان بعد ما يموت يتبخر منه الماء وترجع المسألة كما هي. إذن الكأس الذي يشربه الواحد يمكن تكرر ملايين المرات، وبعد ذلك يطلع يتقطر التقطير العالي بعد ما يتبخر يتصاعد في الجو، وبعدين يتجمد ويتكاثف وينزل ويتبخر ثانيًا.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾[1]. تتشقق وتطلع النبات، للخلق الأول، لأن أيضًا الماء الدافق يشبه الرجع **﴿والأرض ذات الصدع﴾** تتشقق وتطلع النبات، طبق الأصل مثل الماء الدافق ينزل في الرحم ويأخذ صورته ونموه وو . . إلخ. إذن الحياة كلها عبارة عن قوانين منسجمة، وهذه القوانين المنسجمة يحكمها قانون واحد، هذا القانون الواحد سائر في كل ألوان الوجود، في الكونيات العليا، في الكونيات السفلى. وإذا تكلم الحق سبحانه وتعالى في الماء الدافق ويخرج من بين الصلب والترائب، لوجود ذلك الإنسان العجيب، هذا الخلق، وبعد ذلك الخلق يرى قيومية عليه قيومية لكي يعيش، وهبة حياة، وفيه استبقاء لهذه الحياة. فتكلم الحق سبحانه وتعالى في الآية الأولى في الدفق **﴿خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب﴾** . (عن وهب الحياة، وبعد ذلك عن استبقاء الحياة). **﴿والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصدع﴾** فحين ينقلنا الحق سبحانه وتعالى من الكون إلى النفس، وبعد ذلك يعرض القرآن الكون والنقص هذا العرض، لكي يعطينا هذه النماذج عليه أن يخلق الكون، هو خالق ذلك الإنسان، هو قائل ذلك القرآن، ما دام يلفتنا أن خالق الكون، وخالق النفس، هو قائل القرآن، إذن لابد أن آخذ ذلك المنهج منه وأعلم أن المنهج هو الفصل.

---

(١) سورة الطارق: ١١، ١٢.

فيقول: ﴿والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصدع﴾ يعود إلى القرآن ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾(١). قول فصل يعني كل ما جاء من أقضية القرآن، ومعنى قول فصل أنه ستوجد خصومات حول الأشياء، ولكن ما الذي سيفصلها؟ كأن الطرفين المتخاصمين، يريدان واحد يفصل بينهما القضية. كأن الحق سبحانه وتعالى يبين لنا أن كونه لا يخلو من قوم سلمت فطرتهم، لأن معنى (فصل) أنه يوجد نزاع بين شيئين، وما دام نزاع بين شيئين لازم يكون كل واحد في جانب وما دام كل واحد في جانب، وبعد ذلك يأتي الحق فيفصل إما أن يقر جانبا على جانب، وإما أن يبين خطأ الجانبين.

يعني يصح لما يكون واحد مع حق، وواحد مع باطل، وتحصل معركة ويجيء واحد يفصل. فصله له صورتان اثنتان: الصورة الأولى أن يرجع حق ذي الحق. الاثنان يتجادلان في باطل ينقل الاثنين إلى مقولة: هذا غلطان، وهذا غلطان. ولذلك عندما قلنا عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(٢). ربنا أخرج هذه الأمة وأرسل لها رسوله ﷺ، ونزل القرآن لماذا؟ الرسول بلغنا سيكون شهيداً علينا، ونحن المطلوب منا أن نكون شهداء على الناس، شهداء على الناس؟ أنت لا تقول: أنا شهيد على فلان إلا إذا كان الحق في غير جانبه وإلا لو أن الحق في جانبه تبقى شهدت له أم عليه؟ شهدت له.

فكأن الحق يقول: إنني جئت بكم في زمن فاسد كله، ولا يوجد طرفان: طرف مع الحق، وطرف مع الباطل، بل الاثنين مبطلين، وما دام مبطلان أنا لم أجيء لكم شهيداً على هؤلاء، إنما ضد هؤلاء، إنما جئت لكم شهيداً على الاثنين. معنى شهيد على الاثنين، أن الاثنين مبطلين ولما تلاحظ أيضًا الفترة

---

(١) سورة الطارق: ١٣، ١٤.

(٢) سورة الحج: ٧٨.

التي جاء فيها القرآن، وجاء فيها الإسلام تجد أن الكفتين كانتا كفتى باطل فقول الحق ﴿إنه لقول فصل﴾ يفصل في قضية، القضية هذه إن كان الطرفان مبطلان، أو أن كان طرفًا عنده شبهة حق يبقى يجيء في ناحية الحق. لكننا نرى الفترة التي جاء فيها القرآن كانوا كلهم مبطلون: أهل الكتاب حرفوا وعملوا ما عملوه، والجماعة الثانية وثنيون، ولم يكن فيه أبدًا منهج للحق واضح، والناس كلهم على ضلال.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[١]. هنا عمليتان: عملية الكيد منهم، وبعد ذلك الكيد الذي قال الله عنه، حينما تجد لفظًا أطلق ونسبه الله لنفسه، مما لا يستسيغ فكرك أن ينسب إلى الله. مثل الله يكيد، الله يمكر. ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

* * *

(١) سورة الطارق: ١٣-١٧.

(٢) سورة النمل: ٥٠.

الإعجاز العلمي وإشارات إلى طبقات الأرض

قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ(١) وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي(٢) اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

ويتابع الحق سبحانه سَرْد آياته الكونية في هذه الآية:

﴿مد الأرض﴾.

يعني إنها موجودة أمامك ومُمْتدة. وبعض الناس يفهمون المَدَّ بمعنى البسط، ونقول: إن البَسْطَ تابع للمَدِّ.

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا: ومن قال إن الأرض كُرَوِيّة؟

إن الحق سبحانه قال: إنها مبسوطة، وهو سبحانه الذي قال: إنه قد مَدَّ الأرض.

وقلتُ لهؤلاء العلماء: فَلْنفهم كلمة المَدِّ أولاً، ولْنفهَمْ أيضًا كلمة ﴿الأرض﴾ وهى التي تقف عليها أنت وغيرك، وتعيش عليها الكائنات، وتمتد شمالاً إلى القُطْب الشمالي، وجنوبًا إلى القُطْب الجنوبي، أيًّا ما كُنْتَ في أيِّ موقع فهى ممدوة شرقًا وغربًا.

ومعنى: ﴿مد الأرض﴾.

تعني إنك إنْ وقفتَ في مكان وتقدمتَ منه؛ تجد الأرض ممدودة أمامك؛ ولا توجد حَافةٌ تنتهى لها، ولو إنها كانت مبسوطة لَكَانَ لها نهاية، ولكانت

---

(١) الرواسي: الجبال.

(٢) غشيت الشيء تغشية إذا غطته.

(٣) سورة الرعد: ٣.

على شكل مُثلّث أو مُربّع أو مُسْتطيل؛ ولكانَ لهـا حافة؛ ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحـافة، وهو يقـول: «لقد وصـلتُ لحافـة الأرض، وأمامي الفـراغ» ولم يحدث أنْ قال ذلك واحد من البشر.

وإذا ما سار إنسان على خط الاسـتواء مثلاً؛ فسيظل ماشـيًا على اليابسة أو راكبًا لمركب تقطع به البحر أو المحيط ليصل إلى نفس النقطة التي بدأ منا سَيْره.

وهكذا نجـد الأرض ممدودة غـيـر مـحـدودة، لا يكون ذلك إلا إذا كـانت الأرض مُكوَّرة، بحيث إذا مشيت مُتـتبعًا أيَّ خط من خطوط العرض أو خطوط الطول لانتهتْ إلى النقطة التي بدأت منها سَيْركَ.

وكـان هذا هو الدليل الذي يقـدمه الـعلماء علـى كروية الأرض؛ قـبل أن يخترعوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوي.

ونأخذ من قول الحق سبحانه:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ ﴾(١).

معـنًى آخر هو ضـرورة أن ينظر الإنسانُ في هذا الامـتداد؛ ومَنْ تضـيق به الحـياة في مـكان يُمكنه أن يرحلَ إلى مكان آخـر، فـأرضُ الله واسعـة، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾(٢).

ونعلم أن فـساد العـالم في زمننا إنما ينشـأ من فـساد السـياسـات، وزيادة الاضطرابات، وذلك واحد من نتائج تعويق مَدِّ الأرض، فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه؛ يجد الحراسات والعوائق عند حدود البلاد المجاورة، وتناسَى الجميع قَوْل الحق سبحانه:

---

(١) سورة الرعد: ٣.

(٢) سورة النساء: ٩٧.

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾[(١)].

فسبحانه قد سَخَّر الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام[(٢)]، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآني؛ سيظل العالم في صراع، وستظلُّ بعض من البلاد في حاجة للبشر، وبعض من البلاد في ضِيق من الرزق؛ لزيادة السكان عن إمكانات الأرض التي يعيشون عليها.

وستظل هناك أرض بلا رجال؛ ورجال بلا أرض، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد.

وحتى تُحل هذه القضية - كما قلنا في الأمم المتحدة - لابد من تطبيق المبدأ القرآني:

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾[(٣)].

ومَنْ تضيق به الأرض التي نشأ فيها فليسمح له بالهجرة.

ويتابع سبحانه في نفس الآية:

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾[(٤)].

والرواسي هى جمع «رَاسٍ» وهو الشيء الثابت.

وسبحانه يقول:

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الرحمن: ١٠.
(٢) الأنام: ما ظهر على الأرض من جميع الخلق.
(٣) سورة الرحمن: ١٠.
(٤) سورة الرعد: ٣.
(٥) سورة النازعات: ٣٢.

وهكذا جاء الحق بالحكم الذي شاء أن تكون عليه الجبال، وفي آية أخرى يأتينا الله بعلة كونها رواسي؛ فيقول:

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾(١).

أي: لا تضطرب بكم الأرض، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات؛ لما احتجنا إلى الجبال الرواسي كي تُثبِّتها، ولكن الأرض مخلوقة متحركة؛ وهى عُرْضة للاضطراب، ولولا الجبال الرواسي لَمادت الأرض.

ولسائل أن يقول: ولكننا نقطع الآن الجبال، ونأخذ الجرانيت من جبل لِنُزِّين به أرضية بعض المناطق؛ ونقطع الرخام من جبل آخر لنصنع منه حمامات وأحواضًا ودرجات السلالم، ونقتطع بعض أحجار أنواع معينة من الجبال؛ لنستخلص اليورانيوم منها؟

ونقول: انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق؛ وحكمته حين دَبَّر، فهذه الأرض لها محيط؛ ولها مركز؛ ولها أقطار، وكلما اقتربتْ من مركز الأرض فالقطر يَقِلّ.

ومثال هذا هو البطيخ؛ فأنت إن استخلصتَ القشرة الخارجية لها يكون لديكَ كرة من القشرة الخضراء؛ وكرة أخرى من مُكوِّنات البطيخة التي نأكلها، ولو استخلصتَ كرة أخرى من مكونات الألياف الحمراء التي تتكون منها البطيخة، لصار عندك كرة أخرى، ولصار قُطْر الكرة الجديدة أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء.

وكلما استخلصتَ كُرِيّات أخرى من مُكوِّنات البطيخة؛ صَغُرَتِ الأقطار؛ لأنك تقترب من مركز الدائرة والمحيط الأخضر الذي يحيط بالبطيخة وهو القشرة؛ يشبه المحيط الذي يوجد على الكرة الأرضية؛ وهذه القشرة التي توجد

---

(١) سورة الأنبياء: ٣١.

حول الكرة الأرضية صُلْبة؛ أما ما بداخل الأرض وجَوْفها؛ فهو مُكوَّن من أشياء ومواد متعددة، منها ما هو سائل ومنها ما هو صَلْب.

وكلما اقتربنا من مركز الأرض؛ وجدنا ارتفاعًا في درجة الحرارة؛ وتدلُّنا على ذلك كُتَل الحُمَم التي تخرج فوَّارة من فُوَّهات البراكين؛ وهى حُمَم ذات حرارة مرتفعة للغاية؛ وهى حُمَم مُحْرِقة.

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً، رحمةً بنا؛ ذلك إننا حين نبني بيوتًا؛ أو نقتطع أحجاراً من الجبال؛ أو نستخدم مُكوِّنات الجبال في أي غرض؛ إنما ننقل بعضًا من مُكوِّنات الأرض من موقع إلى آخر.

وحين ينتقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر؛ فالسائل الذي في باطن الأرض ينتقل من المنطقة التي زاد عليها الثقل إلى المنطقة التي خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن، ولو لم يحدث ذلك لَتساقطتِ العمارات الشاهقة التي نراها أثناء دوران الأرض.

والمَثَلْ الذي يُوضِّح ذلك أنك لو وضعتَ قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة، وجعلت البطيخة أو الكرة في حالة دوران لَطَردتِ الكرة أو البطيخ قطعة العجين من على سطحها.

وقد شرح العلماء في «علم الحركة» ذلك فقالوا: إن كل شيء مستدير يتحرك؛ إنما تنشأ عن حركته عملية اسمها الطرد الذاتي؛ لأن قطعة العجين أو أيَّ شيء نضعه على شيء مستدير يتحرك؛ تكون له كثافة وثقل على المنطقة التي يوجد فيها، ويصل هذا الثقل إلى المركز، ولكي تستمر الحركة الدائرية متوازنة لابد أن يطرد الشيء المستدير ما فوقه من ثقْل زائد.

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نِصْفى الكرة الأرضية من أي موقع تتخيله، متساويًا في الوزن مع النصف الآخر، ومهما أخذتَ من مواد ونقلتَها من موضع إلى آخر، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التي في بطن الأرض.

وهـذا يـدلُّ على عظمـة الخـالق الذي خلق بتـدبير دقـيق، ويكفى أن ننظر إلى عظمـة الحـق الذي لم يجـعل الجبال رواسيَ ليـمنع الأرض من أنْ تميدَ بنا، بل جـعـل في الجـبال والـصحـارى ما اسـتنجـدنا به حين ضـاقت الأرض بنا؛ فذهبنا إلى الجـبال؛ لنستـخرج منها المواد الخام؛ ونُصـدِّرها؛ ثم نشترى بثـمنها الـقـمـح.

ونرى من حـولنا الصحـارى حيث كـان المقيـمون فيـها يلـهثون قـديمًا من العطش، ولا يجدون شجرة يستظلون بها؛ فيُفجِّر فيها الحق آبار البترول.

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فـيـه خيـر مُـسَاوٍ لأي قطاع آخـر من الأرض، وجعل الله لكل أمـر زمنًا يمكن للبشر أن يسـتفيـدوا من هذا الأمر في ذلك الزمن.

ولذلك نجد الحـق سبحانه يقول في الجبال:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا[١] ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[٢] فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾[٣].

أي: إنه سبـحانه بارك في الجـبال، وهي جزء من الأرض، وشـاء أن يُقدِّر الأقواتَ في الجبال والأرض؛ ويكفى أن نعلم أن المطر حين يتـساقط من السماء على الجبال؛ فيحمل المطر بعضًا من الطَّمْى من على أسطُح تلك الجبال، فتتجدد خُصوبة الأرض.

ولو كانت الجبال هَشَّة لذابتِ الجبـال من عدد قليل من مراتِ سقوط المطر، ولَذابتِ القشرة الخصْبة التي تُغذِّي النبات حين نزرعه في الأرض.

---

(١) الند: المثل والنظير، وجمعه أنداد.

(٢) القوت: الطعام يحفظ على البدن حياته.

(٣) سورة فصلت: ٩، ١٠.

ولكنه سبحانه شاء أنْ تَمُرَّ الظروف الجوية باختلافها وتنوُّعها في تتابع يُوفِّر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتشقق؛ فيصير سطح الجبال الصَلْبة هَشًّا لينزل مع المطر؛ وليُغذِّي الأرض بالخُصوبة من أن يستمر استبقاء الحياة بإنتاج ما نحتاجه من نباتات مزروعة.

ونلحظ قوله سبحانه في نفس الآية:

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ... ﴾[1].

وهنا يجمع الحق بين الرواسي وهى الثوابت، وبين الأنهار وهى التي تحمل الماء السائل، وهذا جَمْعٌ بين الأضداد.

والنهر يُطلق على ما يحمل المياه العَذْبة؛ أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح، وأنت إذا استعرضتَ أنهار الدنيا كلها؛ ستجد أن مجاريها تصبُّ في البحار، وهذا دليل على أن منسوب النهر أعلى دائمًا من منسوب البحر، ولو كان الأمر بالعكس؛ لَطَغى ماء البحر على مياه النهر، ولَمَا استطعنا أن نشرب أو نزرع.

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الماء العَذْب هو الأعلى؛ لأن له مهمة يُؤدِّيها قبل أن يصُبَّ في البحر. أقول ذلك حتى نعلم الحكمة في قول الحق سبحانه:

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[2] لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾[3].

ومن العجيب أن البرزخ الذي يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابيًّا، يتدرج نزول مياه النهر في مياه البحر بما يُحقِّق سهولة في هذا الانتقال، ومن العجيب أيضًا أنك إنْ حفرتَ عند شاطئ البحر قد تعثر على الماء العذب.

---

(١) سورة الرعد: ٣.

(٢) البرزخ: الحاجز بين الشيئين.

(٣) سورة الرحمن: ٢٠.

ولذلك حين نزور العريش نجد شاطئًا باسم شاطئ النخيل؛ ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب، وكأن الحق سبحانه قد جعل في هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العَذْب من هذا المكان الذي يوجد على البحر؛ وقد تكون له جداول عذبة.

فسبحانه القائل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ[١] فِي الأَرْضِ﴾[٢].

ونحن في الريف نجد من يحفر بئرًا ويكون ماؤه عَذْبًا، وآخر يحفر بئرًا ويكون ماؤه مالحًا. وهذا دليل على أن الماء في بطن الأرض غير مختلط، بل لكل ماء مسارب[٣] تختلف باختلاف نوعية المياه.

ويُرتِّب الحق سبحانه في نفس الآية مجيء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت - الجبال - كمصدر للغرين[٤] وخصوبة الأرض، وعلى وجود الأنهار التي تحمل الماء اللازم للرى، وهكذا يكون مجيء الثمرات أمرًا طبيعيًّا.

والثمرة كما نعلم هى الغاية من أي زرع.

وفي نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه، فيقول سبحانه:

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[٥].

ويستعمل البعض كلمة «زوج» ويراد به شيئان كقولنا «زوج أحذية» مع أن التعبير الدقيق يقتضي أن نقول «زوجان من الأحذية» كتوصيف لفردة حذاء يُمْنى

---

(١) ينابيع: جمع ينبوع. وهو من نبع الماء إذا جرى من العين، أي: تفجّر. والينبوع: الجدول الكثير الماء.

(٢) سورة الزمر: ٢١.

(٣) السرب: الطريق والمسلك.

(٤) الغرين: ما بقى في أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين.

(٥) سورة الرعد: ٣.

وفردة حذاء يُسْرى؛ لأن كلمة «زوج» مفرد، وتستخدم في الشيء الذي له مثْل؛ ولذلك نجد العدد الفردي والعدد الزوجي؛ والعــدد الزوجي مُفْرد له مثيل؛ وفي الإنسان هو الذكر والأنثى.

وسبحانه القائل:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[1].

ويخطئ الناس أيضًا في فهم كلمــة التوأم، ويظنون أنها تعني الاثنين اللذين يولدان معًا، ولــكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذي يُولَد مــع آخر، ويقال لاثنين معًا «التوأمان» .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾[2].

ولم يخلق الحق سبحانه أيَّ شيء إلا وشاء له أن يتكاثر، مصداقًا لقول الحق سبحانه:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وكُلُّ تكاثر إنما يحتاج إلى زوجين، وكنا نعتقد قديمًا أن التكاثر يحدث فقط في النبات؛ مثلما نُلقِّح النخلة بالذَّكَر، وفي الحيوان يخصب الفَحْل الأنثى، ثم كشف لنا العلم بعد ذلك أن الكهــرباء - على سبيل المثال لا الحصــر - تتكون من سالب وموجب وغير ذلك كثير، وكل ما قدمه العلم من كشوف يؤيد صِدْقه سبحانه:

---

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

(٢) سورة الرعد: ٣.

(٣) سورة يس: ٣٦.

﴿ سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾[١].

ويتابع سبحانه في نفس الآية:

﴿ يُغْشِي[٢] اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾[٣].

أي: أن تأتي الظُّلْمة على النهار فتُغطية؛ وهو القائل في موقع آخر من القرآن:

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[٤].

وذلك تحقيقًا لمشيئته التي قالها:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾[٥].

وإنْ سأل سائل: هل الليل هو الذي خُلِقَ أولاً أم النهار؟

أقول: نحن نرى الآن الليل والنهار، كُلٌّ منهما يُؤدِّي مُهِمَّته في نصفٍ ما في الكرة الأرضية، وكل منهما يخلف الآخر، ولابد أن الأمر كذلك من أول الخلق.

فإنْ كان سبحانه قد أوجد الأرض مبسوطة وفي مواجهتها الشمس، لكان النهار هو الأسبق في الخَلْق، وإنْ كان قد خلق الشمس غير مواجهة للأرض؛ يكون الليل هو الذي سبق النهار في الخَلْق.

ويوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً في سورة يس حين يقول:

﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٦].

---

(١) سورة يس: ٣٦.

(٢) أي: يجعل الليل يغشى النهار ويغطيه بظلامه.

(٣) سورة الرعد: ٣.

(٤) سورة الإسراء: ١٢.

(٥) سورة الفرقان: ٦٢.

(٦) سورة يس: ٤٠.

وكان العـرب قديمًا يظنُّون أن الليل هو الذي سبق الـنهار في الخَلْق؛ لأنهم كانوا يُؤرِّخـون الشهور بالقمـر؛ فيدخل الشهـر بليله لا بنهاره، ونحن نعلم أن رمضان يأتينا بأول ليلة فيه.

وقد أوضح الحق سبحـانه لهم على قَدْر مـعارفـهم، ثم ثبت لنا أن الليل والنهار قد وُجِدا في وقت واحد بـعد أن وضحتْ لنا أن صورة الأرض كروية، وأنه سبـحانه قد خلقهـا كذلك، فما واجـه الشمس كان نهارًا؛ ومـا غابتْ عنه الشمس كان ليلاً، ويخلف كل منهما الآخر.

وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان في آنٍ واحد.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١].

أي: إن على الإنسان مـسئوليـة التفكُّر فيـما يراه من حـوله ليصل إلى لُبِّ الحقائق.

* * *

(١) سورة الرعد: ٣.

الإعجاز العلمي في نزول الغيث

يقول سبحانه من بعد ذلك:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا[١] رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[٢] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾[٣].

وهو سبحانه يُنزِل الماء من جهة العُلو وهو السماء، ونعلم أن الماء يتبخَّر منَ البحار والأنهار والأرض التي تتفجّر فيها العيون ليتجمع كسحاب؛ ثم يتراكم السحاب بعضُه على بعض؛ ويمرُّ بمنطقة باردة فيتساقط المطر.

يقول الحق سبحانه:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾[٤].

والوادي هو المُنْخفض بين الجبلين؛ وساعةَ ينزل المطر على الجبال فهو يسيل على الأدوية؛ وكل وَادٍ يستوعب من المياه على اتساعه.

ولنا أن نلحظ أن حكمة الله شاءتْ ذلك كيْلا يتحول الماء إلى طوفان، فلو زاد الماء في تلك الأودية لَغرقتْ نتيجة ذلك القرى، ولَخرِبت الزراعات، وتهدمتِ البيوت.

والمَثَل على ذلك هو فيضان النيل حين كان يأتي مناسبًا في الكمية لحجم

---

(١) زبد الماء: ما يعلوه عند جيشانه واضطرابه من الرغوة.

(٢) الجفاء: الزبد مثل الزبد الذي ترمى به القدر عند الغليان.

(٣) سورة الرعد: ١٧.

(٤) سورة الرعد: ١٧.

المَجْرى؛ وكان مثل هذا القَدْر من الفيضان هو الذي يُسعد أهل مصر؛ أما إذا زاد فهو يُمثِّل خطراً يَدْهَم القرى ويخربها.

وهكذا نجد أن من رحمة الحق سبحانه أن الماء يسيل من السماء مطراً على قَدْر اتساع الأودية؛ اللهم إلا إذا شاء غير ذلك.

والحق سبحانه هنا يريد أنْ يضرب مثلاً على ما ينفع الناس؛ لذلك جاء بجزئية نزول الماء على قَدْر اتساع الأودية.

ومَنْ رأى مشهد نزول المطر على هذا القَدْر يمكنه أنْ يلحظ أن نزول السَّيل إنما يكنس كل القَشّ والقاذورات؛ فتصنع تلك الزوائد رَغْوةً على سطح الماء الذي يجري في النهر، ثم يندفع الماء إلى المَجْرى؛ لِيُزيح تلك الرَّغاوي جانبًا، ليسير الماء من بعد ذلك صَافِيًا رَقْراقًا.

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً[1]﴾[2].

وهذا المَثَل يدركه أهل البادية؛ لأنها صحراء وجبال ووديان؛ فماذا عن مَثَلٍ يناسب أهل الحضر؟

ويأتي الحق سبحانه بهذا المثل المناسب لهم؛ فيقول:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾[3].

وأنت حين تذهب إلى موقع عمل الحداد أو صائغ الذهب والفضة؛ تجده يُوقد النار ليتحول المعدن إلى سائل مَصْهور؛ ويطفو فوق هذا السائل الزَّبَد وهو الأشياء التي دخلت إلى المعدن، وليست منه في الأصل؛ ويبقى المعدن صافيًا من بعد ذلك.

---

(١) ربا الشيء يربو: زاد ونما.

(٢) سورة الرعد: ١٧.

(٣) سورة الرعد: ١٧.

والصَّائغ يضع الذهب في النار لِيُـخلِّصه من الشوائب؛ ثم يضـيف إليه من المواد ما يُقـوِّي صلابتـه؛ أو ينقله من حالة النقـاء إلى درجة أقل نقـاءً، وحالة النقاء في الذهب هي مـا نطلق عليه «عيـار ٢٤»، والأقل درجة هو الذهب من «عيار ٢١»، والأقل من ذلك هو الذهب من «عيار ١٨» .

والذهب الخالص النقاء يكون ليِّنًا؛ لذلك يُضيفون إليه ما يزيد من صلابته، ويصنع الصائغ من هذا الذهب الحُلي.

وهذا هو المَثَلُ المنـاسب لأهل الحـضر؛ حـين يصنعـون الحلي، وهو أيضًـا يصنعون أدوات أخرى يستعملونها ويستعملها مثلهم أهل البادية كالسيوف مثلاً، وهي لابُدَّ، وأن تكون من الحـديد الصُّلْب؛ ذلك أن كل أداة تصنـع منه لها مـا يناسبـها من الصَّـلابة؛ فإنْ أراد الحدَّاد أن يصـنع سيفًـا فلابد أنْ يختـار له من الحديد نوعية تتناسب مع وظائف السيف.

والزَّبَد في الماء النازل من السمـاء إنما يأتي إليه نتيجـة مرور المطر أثناء نزوله على سطح الجبـال؛ فضلاً عن غـسيل مَجْرى النهـر الذي ينزل فيه؛ وعـادة ما يتراكم هذا الزَّبَد على الحَواف؛ ليبقى الماء صافيًا من بعد ذلك.

وحين تنظر إلى النيل - مـثلاً - فـأنت تجد الشـوائب، وقد ترسـبتْ على جانبي النهـر وحَوافه، وكذلك حين تنـظر إلى مياه البحـر؛ فأنت تجد ما تلقـيه المركب، وهو طافٍ فوق الأمواج؛ لِتُلقيه الأمواج على الشاطئ.

وهكذا ضـرب الله المَثَـل لأهـل البـدو ولأهـل الحـضـر بما يـفـيـدهم في حيـاتـهم؛ سواء حلية يلبسونها، أو أداة يقاتلون بها، أو أداة أخرى يستخدمونها في أَوْجُه أعمالهم الحـياتية؛ وهـم في كل ذلك يلجئون إلى تصـفية المعادن التي يصنعون منها تلك الحلى أو الأدوات الحـياتية ليستخلصـوا المعادن من الخَبَث أو الزَّبـد.

وكذلك يفعل الحق سبحانه:

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾(١).

وحين يضرب الله الحقَّ والباطل؛ فهو يستخلص ما يفيد الناس؛ ويُذهب ما يضرهُم، وقوله: ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾.

أي: يبعده؛ فـ ﴿جفَاء﴾ يعني «مَطْرودًا»؛ من الجَفْوة؛ ويُقال: «فلان جَفَا فلانًا» أي: أبعده عنه.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾(٢).

وشاء سبحانه أن يُبيِّن لنا بالأمور الحسِّية؛ ما يساوى الأمور المعنوية؛ كي يعلمَ الإنسانُ أن الظُّلْمَ حين يستشرى ويَعْلو ويَطْمِس الحق، فهو إلى زَوَال؛ مثله مثل الزَّبَد.

ويستمر الحديث عن الغيث فيقول تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾(٣).

﴿أَلَمْ تَرَ..﴾ إنْ كانت للأمر الحِسِّي الذي تراه العين، فأنت لم تَرَهُ ونُنبهك إليه، وإنْ كانت للأمر الذي لا يُدرَك بالعين فهى بمعنى: ألم تعلم. وتركنا العلم إلى الرؤية لنبين لك أن الذي يُعلِّمك الله به أوثق مما تهديك إليه عَيْنك.

---

(١) سورة الرعد: ١٧.

(٢) سورة الرعد: ١٧.

(٣) سورة الحج: ٦٣.

فالمعنى: ألم تعلم وألم تنظر؟ . المعنيان معًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[1]. فهذه آية تراها، لكن ترى منها الظاهر فقط، فترى الماء ينهمر من السماء، إنما كيف تكوَّن هذا الماء في طبقات الجو؟ ولماذا نزل في هذا المكان بالذات؟ هذه عمليات لم تَرَها، وقدرة الله تعالى واسعة، ولك أن تتأمل لو أردتَ أنْ تجمع كوب ماء واحد من ماء البخار، وكم يأخذ منك من جهد ووقت وعمليات تسخين وتبخير وتكثيف، فهل رأيتَ هذه العمليات في تكوين المطر؟

إذن: رأيت من المطر ظاهره، لذلك يلفتك ربك إلى ما وراء هذا الظاهر لتتأمله.

لذلك؛ جعل الخالق - عز وجل - مسطح الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، فاتساع مُسطَّح الماء يزيد من البَخْر الذي ينشره الله تعالى على اليابس، كما لو وضعتَ مثلاً كوبَ ماء في غرفتك، وتركتَه مدة شهر أو شهرين، ستجد أنه ينقص مثلاً سنتيمترًا، أما لو نثرتَ الكوب على أرض الغرفة فسوف يجفّ بعد دقائق.

إذن: فاتساع رقعة الماء يزيد من كمية البخار المتصاعد منها، ونحن على اليابس نحتاج كمية كبيرة من الماء العَذْب الصالح للزراعة وللشرب.. إلخ، ولا يتوفر هذا إلا بكثرة كمية الأمطار.

ثم يُبيِّن سبحانه نتيجة إنزال الماء من السماء: [illegible] الأَرْضُ [illegible][2]. يعني: تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية. دون أن يذكر شيئًا عن تدخُّل الإنسان في هذه العملية، فالإنسان لم يحرث ولم يبذر ولم يَرْوِ، إنما

---

(١) سورة الحج: ٦٣.

(٢) سورة الحج: ٦٣.

المسألة كلهـا بقدرة الله، لكن من أين أتت البذور التي كـونّتْ هذا النبات؟ ومَنْ بذرها ووزَّعها ؟ البذور كانت موجودة في التربة حيَّة كامنة لم يُصبْها شيء، وإنْ مَرَّ عليـها الزمن؛ لأن الله تعالى يـحفظها إلى أنْ تجـد الماء وتتوفَّر لهـا عوامل الإنبات فتنبت؛ لذلك نُسمِّي هذا النبات (العِذْي)؛ لأنه خرج بقدرة الله لا دَخْل لأحد فيه.

وتولَّتْ الرياح نَقْل هذه البذور من مكان لآخر، كما قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ (١). ولو سلسلْتَ هذه البـذرة ستجـدها من شجرة إلى شـجرة حتى تصل إلى شـجرة أُمٍّ، خلقـها الخالق سـبحانه لا شـجرةَ قـبلها ولا بذرة. لذلك يُرْوى أن يوسف النجار وكـان يرعى السيدة مـريم عليها السـلام ويشرف عليهـا، ويقال كان خطيـبها - لما رآها حـاملاً وليس لها زوج سـألها بأدب: يا مريم، أتوجد شجرة بلا بذرة؟ قالت: نعم الشجرة التي أنبتتْ أول بذرة.

ثم يقول سـبحانه: ﴿إن الله لطيفٌ خبيرٌ﴾ (٢). اللطْف هو دِقَّة التناول للأشياء، فمثلاً حين تريد أن تدخل خيطًـا في إبرة، تجد الخيط لا ينفذ من ثقبها لأول مرة، فتحاول أنْ تُرقِّق من طرف الخيط وتبرمه حتى يِدقّ فينفذ من الثقب، فالخيط بعد أنْ كان غليظًا أصبح لطيفًا دقيقًا.

ويقولون: الشيء كلما لَطُف عَنُف، في حين يظن البـعض أن الشيء الكبير هو القوي، لكن هذا غـير صحيح، فكلما كـان الشيء لطيفًا دقيـقًا كان خطره أعظم، ألاَ ترى الميكروب كـيف يصيب الإنسان وكـيف لا نشعـر به ولا نجد له ألمًا؟ ذلك لأنه دقـيق لطيف؛ وكـذلك له مدخل لطـيف لا تشعـر به؛ لأنه من الصِّغَر بحيث لا تراه بالعين المجردة.

والبعوضة كم هى هيِّنة صغيرة؛ لذلك تُؤلمك لدغتها بخرطومها الدقيق الذي

---

(١) سورة الحجر: ٢٢.

(٢) سورة الحج: ٦٣.

لا تكاد تراه، وكلما دَقَّ الشيء احتاج إلى احتياط أكثر لتحمي نفسك من خطره، فمثلاً إنْ أردتَ بناء بيت في الخلاء أو منطقة نائية، فإنك ستضطر أنْ تضع حديداً على الشبابيك يحميك من الحيوانات المفترسة كالذئاب مثلاً، ثم تضع شبكة من السلك لتحميك من الفئران، فإن أردْتَ أن تحمي نفسك من الذباب والبعوض احتجت إلى سِلْك أدق، وهكذا صَغُر الشيء ولطف احتاج إلى احتياط أكثر.

فاللطيف هو الذي يدخل في الأشياء بلطف؛ لذلك يقولون: فلان لطيف المدخل يعني: يدخل لكل إنسان بما يناسبه، ويعرف لكل إنسان نقطة ضَعْف يدخل إليه منها، كأن معه (طفاشة) للرجال، يستطيع أن يفتح بها أي شخصية.

لكن، ما علاقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[1]. بعد قوله: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[2]؟ قالوا: لأن عملية الإنبات تقوم على مَسَامٍ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات، وتمتصّ الغذاء من التربة، هذه الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لُطْف، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾[3].

فالأرض تصبح مُخضَرَّةً من لُطْف الحق سبحانه، ومن خبرته في مداخل الأشياء، لذلك قال بعدها: ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[4]. ولدقَة الشعيرات الجذرية نحرص ألاَّ تعلو المياه الجوفية في التربة؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعطن وتموت فيصفرُّ النبات ويموت.

---

(١) سورة الحج: ٦٣.

(٢) سورة الحج: ٦٣.

(٣) سورة الرعد: ٤.

(٤) سورة الحج: ٦٣.

الإعجاز العلمي وإشارات إلى حركة الأرض

قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا[1] وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

والماء الذي ينزل من السماء، هو الماء الصالح للري وللسقي؛ لأن المياه الموجودة في الوجود، هي مخازن للحياة، وغالبًا ما تكون مالحة، كمياه البحار والمحيطات، وشاء الحق سبحانه ذلك؛ لحمايتها من العفن والفساد، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التي تحوّل الماء إلى بخار، ويتجمع البخار كسحاب، ثم يسقط ماء عَذْبًا مقطرًا صالحًا للشرب والرّي.

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴾[3].

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك، فإن خلطت بعضًا من حبات الفول مع بعض من حبّات الترمس؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيًّا منهما عن الأخرى، ولكن هناك لونًا آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلّى بالسكر، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزيء من الليمون والسكر في جزئيات الماء.

---

(١) الزخرفة: الزينة.

(٢) سورة يونس: ٢٤.

(٣) سورة يونس: ٢٤.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴾(١). وقد يُفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معًا، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حي مخلوق من الماء مصداقًا لقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾(٢).

وهنا لابد أن نلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط، و«باء» السببية(٣) فالباء هنا في هذه الآية هى باء السببية، وبذلك يكون المعنى: فاختلط بسببه نبات الأرض. وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطى الأرض، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع، أن سطح الأرض مغطى بالزروع، وكلها مختلطة متشابكة، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة في هذه الأرض عالية، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة.

أما إن كانت الأرض غير خصبة، فأنت تجد نَبْتة في منطقة من الأرض، وأخرى متباعدة عنها، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصري أثناء زراعة الذرة على سبيل المثال: «الذرة تفلس» أي: أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض.

إذن: فخصوبة الأرض لها أساس هام في الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات، فتنتشر بها جذور النبات.

وإن سمحتْ لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة في «طوكيو» أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة؛ تُسقى بالماء الذي يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات؛ لأنهم وجدوا أن أي

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٣) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر، ويقع أصليًا أو زائدًا.

نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة في المائة من وزنه، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين في المائة من وزنه.

إذن: فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذي يذيب عناصر الأرض؛ ليمتصها النبات.

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل، والمثل: هو قول شُبِّه مَضْرِبُهُ بِمَوْلِدِه، أي: شيء نريد أن نمثله بشيء، ولابد أن يكون الشيء المُمثَّل به معلومًا، والشيء المأخوذ كمثلٍ هو الذي نريد أن نوضح صورته؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم.

وتجد من يقول لك: ألا تعرف فلانًا؟ فتقول: لا أعرفه، فيرد عليك صاحبك: إنه مثل فلان في الشكل. وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم.

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن، دخلوا من هذه الناحية، وقالوا: إذا كان الشيء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به، ألا نعرِّفه بمعلوم؟ فما بال الله - سبحانه وتعالى - يقول في شجرة الزقوم[١]: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا[٢] كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[٣].

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم، وهى شجرة في النار لا نعرفها، فيعرِّفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رءوس الشياطين، وبذلك يكون سبحانه قد مثَّل مجهولاً بمجهول. والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذي يتكلم هو الله تعالى. وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثِّل لنا شجرة الزقوم بشيء بشع معلوم لنا، والبشع المعلوم هو الشيطان.

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة؛ حتى لا ينقضي التشبيه؛ لأن الشيء

---

(١) شجرة الزقوم: هى الشجرة الملعونة في القرآن.

(٢) الطلع: غلاف يشبه الكوز، يتفتح عن حب منضود.

(٣) سورة الصافات: ٦٤، ٦٥.

قد يكون بشعًا في نظرك، وغير بشع في نظر غيرك. ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم؛ فاختار الشيء المتفق على بشاعته، وهو رءوس الشياطين، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان، بما ينفر منه ويقبِّحه، وهكذا تتجلَّى عظمة الحق سبحانه في أن جعل شكل الشيطان مبهمًا[1].

وأما المثل الذي نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذي أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها، وكلٌّ منا يدرك فترة منها، ولم يدرك أولها، وقد لا يدرك آخرها، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا، وهو الزرع الذي يرتوي بالمطر، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا في مثل معروف لنا جميعًا، وندركه جميعًا؛ فندرك ما سبق، وما يلحق، فكل شيء يأخذ حظه في الازدهار، والجمال، ثم ينتهي، كذلك الدنيا.

يقول الحق سبحانه:

﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾[2].

والزخرف: هو الشيء الجميل المستميل للنفس وتُسرُّ به حينما تراه، وتتزين الدنيا بالألوان المتنوعة في تنسيق بديع، ثم يصبح كل ذلك حصيداً[3] وهذا ما نراه في حياتنا، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها.

---

(١) مبهمًا: خافيًا.

(٢) سورة يونس: ٢٤.

(٣) حصيدًا: محصودة مقطوعة لا شيء فيها.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا[١] * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا[٢] * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا[٣] * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ[٤] * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[٥].

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذي تراه إنما تذوى[٦]، وما تراه من بديع ألوانها إنما يذبل، ومهما ازدانت الدنيا فهى إلى زوال، فإياك أن تبغي؛ لأن البغي فيه متاع الدنيا، والدنيا كلها إلى زوال؛ كزوال الروض التي ينزل عليها المطر؛ فتنبت الأرض الأزهار، ثم يذوى كل ذلك.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾[٧].

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾[٨].

---

(١) قال الحسن البصري: القضب: العلف الذي تأكله الدواب.

(٢) حدائق غُلْبًا، أي: بساتين.

(٣) قال ابن عباس: الأب: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس.

(٤) الصاخة: هي اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله.

(٥) سورة عبس: ٢٤-٣٧.

(٦) تذوى: تذبل.

(٧) سورة القلم: ١٧-٢٠.

(٨) سورة يونس: ٢٤.

والأرض تتزين بأمر ربها، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة. ألم يقل الحق سبحانه في قصة العبد الصالح: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ[١] ... ﴾[٢].

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقضَّ؟ ولو حققنا الأمر جيداً؛ لوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن في الوجود حياة تناسبه، وله إرادة تناسبه، وله انفعال يناسبه. وقد ضرب الحق سبحانه لنا في ذلك صوراً شتَّى، فنجد أن الشيء الذي يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله تعالى.

ومثال هذا: معرفة الهدهد في قصة سليمان - عليه السلام - بالتوحيد، وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان - عليه السلام - بحكاية مملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله، فكأن الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال: ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[٣] فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[٤].

ومن كان يظن أن الهدهد، وهو طائر، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصفى ما تكون؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبيِّن لنا أن هذا الطائر لا هوى له يفسد عقيدته، وأن أهواءنا هي التي تفسد العقائد، ومَنْ أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذي يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان، وأن يختار في ضوء منهج الله تعالى.

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئًا؛ لأن

---

(١) يريد أن ينقض: الانقضاض السقوط بسرعة.

(٢) سورة الكهف: ٧٧.

(٣) الخبء: ما خبيء. والخبء الذي في السموات هو المطر، والخبء الذي في الأرض هو النبات.

(٤) سورة النمل: ٢٥.

غريزته تقوده، فلا نجد حيوانًا يأكل فوق طاقته، لكننا نجد إنسانًا يصيب نفسه بالتخمة[1]، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها، بل نراه وهو يتراجع عنها، ولكنا نجد إنسانًا يشمر عن ساعديه[2]، ليقفز فوق قناة مياه؛ فيقع فيها.

إذن: فنحن بأهوائنا التي تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى. ونجد في مثال الهدهد صفاءً عقديًا في التوحيد كأصفى ما يكون المتصوفة، ويأتي بما يهمه ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3]. لأن الخبء هو رزق الهدهد، فهو لا يأكل من الشيء الظاهر على سطح الأرض، بل يضرب بمنقاره الأرض؛ ليأتي لنفسه بما يطعمه.

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التي قالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[4].

وهذه دقة عدالة من هذه النملة، فإنها لم تقل: إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلمًا لهم، بل قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم.

إذن: كل كائن في الوجود له حياة تناسبه، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن، كتصورها في الكائن الأعلى وهو الإنسان.

ولابد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه، والحيوان له حياة تناسبه،

---

(١) التخمة: تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة في الأكل والشرب.

(٢) الساعد: ملتقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ. والساعد: ساعد الذراع، وهو ما بين الزندين والمرفق، سُمِّي ساعداً لمساعدته الكفّ. وجمع الساعد: سواعد.

(٣) سورة النمل: ٢٥.

(٤) سورة النمل: ١٨.

والجماد له حياة تناسبه، وكل شيء في الحياة له لون من الحياة المناسبة له.

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (١).

والهلاك مقابل للحياة، والحياة مقابلة للموت، والهلاك يساوى الموت. والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (٢).

إذن: فالجماد هالك، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرِّف الحياة التي في الجماد كالحياة في الإنسان.

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله الحق: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً﴾ (٣).

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة، وأنها تدور، وأن كل ليل يقابله نهار، وكذلك جاء قول الحق سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ (٤).

إذن: فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً (٥) كَأَن لَّمْ تَغْنَ (٦) بِالأَمْسِ﴾ (٧).

---

(١) سورة الأنفال: ٤٢.

(٢) القصص: ٨٨.

(٣) سورة يونس: ٢٤.

(٤) سورة الأعراف: ٩٧، ٩٨.

(٥) الحصيد والحصد: الزرع المحصود بعد ما يحصد.

(٦) كأن لم تغن بالأمس: أي: لم تكن عامرة.

(٧) سورة يونس: ٢٤.

أي: كأنها لم يكن لها وجود.

وينهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١].

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع في الأرض الذي ينمو ويزدهر ويزدان، ثم ينتهي، ألا يجب أن نتنبه إلى أن كل زخرف إلى زوال؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها في شيء، وأن نحرص على ألا نبغي في الأرض؛ لأن البغي متاع الحياة الدنيا، وهي إلى زوال.

ونجد القرآن يأتي بذكر التفصيل للآيات، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم «يتفكرون»، أو «يتذكرون»، أو «يعقلون»، أو «يتدبرون» .

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد في مراحل متعددة، فالتعقُّل: هو أن تأتي بالمقدمات؛ لتستنبط ولترى إلى أي نتائج تصل. والتذكُّر يعني: ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام. والتفكُّر: هو أن تُعْمل الفكر. والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر. والتدبُّر[٢]: هو ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء، بل إلى المعطيات الخفية في أي أمر.

والحق سبحانه يقول: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾[٣].

أي: اجعل بصيرتك تمحِّص البدايات والنهايات؛ لتعرف أن المرجع والمصير إلى الله تعالى. والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه، وقد يرهق نفسه في الدنيا الفانية؛ ليستريح في الآخرة.

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية، سنجد أن الآخرة

---

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) التدبر في الأمر: التفكر فيه.

(٣) سورة النساء: ٨٢.

لابد وأن ترجح كفتها؛ لأن عمـر الإنسان في الدنيا مظنون، ولا يعرف فرد هل يحيا في الدنيا عامًا أو عشرة أو سبعين أو مائة عام.

ومهـما طالت الدنيـا مع كل الخَلْق فهى منـتهيـة، والنعيم فـيهـا على قدر إمكاناتك البشرية وعلى قـدر تصورك للنعيم، أما الآخرة فـهى بلا نهاية، وأمر الإنسان فيها مـتيقَّن، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعـالى ومراده سبحانه للنعيم. فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحتْ كفّة الآخرة.

لذلك يقول الحق سـبحانه: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ(1) لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(2).

وفي قوله سبحانه: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾. مبالغة في كونهـا حياة لا فناء فيها، فـاتبع منهج الله سبـحـانه؛ ليأخـذك هذا المنهج إلى دار السـلام والسلامـة من الآفات. واضمن لنفسك الخـروج من دار الفناء والأغيار، وَضَعْ يدك في يد من يدعوك إلى دار السلام.

* * *

---

(١) الحياة الدائمة.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٤.

الإعجاز العلمي في خلق السحاب

قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

إن الله سبحانه برحمته خلق الإنسان منعمًا عليه، وخلق كل ما في الكون نعمة له. ويلفتنا إلى الدليل على هذه القضية بالكون نفسه. ويحدد مظاهر في الكون لم يدّع أحد أنه خلقها وأوجدها، فإذا ما جاء الناس الذين لا يؤمنون بالإله الواحد يزحزحون الألوهية إلى سواه نقول لهم: هذا الكون العجيب الذي يتمثل في الأرض ويتمثل في السماء، ويتمثل في اختلاف الليل والنهار، ويتمثل في الفلك التي تجرى في البحر، ويتمثل في ما أنزل الله من السماء من ماء، ويتمثل في السحاب المسخر بين السماء والأرض؛ كل هذه الآيات - أي الأمور العجيبة - تلفت إلى أن موجدها أعظم منها.

إنه سبحانه يريد أن ينبه العقل إلى أن يستقبل نعمة الوجود في ذاته وفي الكون المسخر له ليستنبط من هذه الآيات العجيبة صدق الله في قوله: ﴿.. وإلهكم إله واحد﴾، لأنه ليس من المعقول أن يخلق غير الله كل ذلك الخلق ثم يسكت عنه! فضلاً عن أن أحدًا لم يدع أنه خلقها، وما دام لم يدع أحدٌ ذلك، وأنت أيها الإنسان لم تخلقها، ورغم الكفر والعناد لم يدع أحد هذه القضية قط، إذن سيظل الملك لله وحده إلى أن يقول أحدٌ أنا لي الملك، ولم

(١) سورة البقرة: ١٦٤.

يوجد إلى الآن من يجرؤ على هذه الكلمة، وهذا دليل على أن الله واحد أحد. إن الحق سبحانه يقول:

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

لماذا؟ . لأن الناس من الأرض قد خُلقوا، وبما في الأرض عاشوا، فالأصل هو أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس؛ فالناس أبناء الأرض، واقتياتهم منها وبقاء حياتهم عليها. ومن المعقول أن الحق سبحانه قد خلق ما يخلق منه الإنسان قبل أن يخلق الإنسان، وحتى يعيش ذلك الإنسان أمده الله بجنس ما خُلِق منه. واذكروا جيداً أننا قلنا إن الله حين يعرض قضية الخلق للإنسان؛ فهو سبحانه يعرضها عرضًا فيه مناعة ضد أي قضية أخرى تناقضها. ولذلك يقول لنا: إن خلق السموات والأرض وخلقكم هو أمر غيبي، وما دام أمراً غيبيًّا فلا رائي له ولا مشاهد له إلا الذي خلقه، فخذوا علم الخلق منه، ولذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ (٢).

فيجب أن نحذر هؤلاء المضللين الذين يحاولون إضلالنا بقضايا ليست حقيقية، فالحق قد علم أزلاً بأنه سيوجد قوم يقولون: إن السماء والأرض خلقتا بطريقة كذا، والإنسان خلق بأسلوب كذا، وعندما نسمع هؤلاء نقول: هؤلاء هم المضللون، وقد نبهنا الله أزلاً إليهم.

إذن، فوجود المضللين هو عين الدليل على صدق الله، هؤلاء الذين قالوا

---

(١) سورة غافر: ٥٧.

(٢) سورة الكهف: ٥١.

الأرض كانت جزءاً من الشمس وانفصلت عنها، والإنسان أصله قرد، لأنه لو لم يوجد مضللون لقلنا: «أين يا رب ما قلت عنهم إنهم مضللون؟».

وحينما يعرض الله سبحانه وتعالى أنه خلقنا من الأرض؛ وجعل اقتياتنا منها، فإن العلم يأتي - حتى من الكافرين بالله - ليؤيد هذه القضية. فحينما حللوا الإنسان؛ وجدوه مكونًا من ستة عشر عنصراً، وحللوا الطين الذي يأتي منه الزرع والخصوبة فوجدوه ستة عشر عنصراً أيضًا تتطابق مع عناصر الإنسان، أولها الأكسجين وآخرها المنجنيز. وعلى ذلك فالحق عندما يقول: أنا خلقت الإنسان من طين. نقول له: صدقت يا رب فقد جعلت اقتياتنا مما يخرج من الطين.

إذن فمسألة خلق السماوات والأرض يجب أن يبدأ منها التعجب، وأنت أيها الإنسان يجب أن تفطن إلى ما خُلق لك لتستدل على خالقك، ولتؤمن ولتشهد أنه إله واحد، وإن حاول أحد إضلالك وقال لك هناك إله آخر، فقل: لا إله إلا هو سبحانه.

وحين يتكلم الحق عن الإنسان فهو سبحانه يتكلم عن مكين في الكون، وهذا المكين في الكون يحتاج إلى شيئين: إلى زمان، وإلى مكان. والمكان للإنسان هو الأرض التي يسير عليها والسماء التي تظلله، والزمان هو ما ينشأ من الليل وما ينشأ من النهار، ولذلك يريد الحق سبحانه أن يعطينا العبرة في اختلاف الليل والنهار. ومعنى اختلاف الليل والنهار أن كلاً منهما يأتي خلف الآخر، النهار يأتي خلف الليل، والليل يأتي خلف النهار.

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾(١).

(١) سورة الفرقان: ٦٢.

فاختلاف الليل والنهار يعني ألا يكون النهار سرمداً أي دائمًا لا ينقطع، ولا يكون الليل كذلك سرمداً، ولذلك فإن هناك آيات أخرى يمتن فيها الحق علينا بهذه النعمة فيقول:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾(١).

إذن فأنت أيها المتحرك في الكون ينطبق عليك ما ينطبق على كل متحرك، لابد لك من سكون بقدر حركتك، ولذلك انقسم الزمان إلى ليل تسكن فيه، وإلى نهار تتحرك فيه، ولذلك يقول الحق:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً ﴾(٢).

ويعلم سبحانه أزلاً أنه لا يمكن أن يكون الليل - أي وقت الراحة - سباتًا لكل الناس، بل لابد من أناس يقومون بأمور تقتضى اليقظة بالليل، ولهؤلاء يقول سبحانه:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾(٣).

إنه يعطى فرصة لهؤلاء الذين تظل عيونهم ساهرة طوال الليل ليستريحوا بالنهار.

إذن فمن عظمة الحق أنه جعل الزمان خلفة، فلو كان الليل سرمداً والنهار سرمداً لفسدت الحياة، ولذلك نجد أن الحق أقسم بقوله:

---

(١) سورة القصص: ٧١، ٧٢.

(٢) سورة الفرقان: ٤٧.

(٣) سورة الروم: ٢٣.

﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾(١).

فالـضحى مـحل الحركـة والكدح، والليل محل السكون، ولابد أن يـوجد الاثنان معًا. والحق سـبحانه يقول: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار والفلك التي تجر في البـحر﴾ وكلمة «فلك» يسـتوى فيـها المفرد والجـمع، كقوله عن سـفينة نوح: ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾. يعني يصنع سفينة واحدة أما الفلك التي تجري فهى كل الفلك. وكيف يكون جريان الفلك في الماء آية؟ . إن الإنسان يدرك أن الماء لو لم يكن على هذه السيول، لما استطاعت المراكب أو الفلك الإبحار فوقه، بل لابد أن يكون الماء سائلاً حتى تستطيع أن تجرى فـوقها الفلك، وقبل اختراع آلات البحار كـانت هذه الفلك تجرى في البحر بقـوة الرياح، لماذا؟. لأن المائية تنقسم قسمين:

مائية أنهار.

ومائية بحار.

ومياه الأنهـار تجرى دائمًا من أعلى إلى أسفل ناحـية المصب، ولذلك فمن المعقـول أن نسلم جريان السـفينة فيـها إلى مجـرى الماء، ولكن إذا كنا نريد أن نسيرها عكس جـريان الماء؛ فلابد من الريح ليساعـدنا على ذلك، ونحن نأخذ كلمة الريح على أنها الهواء. ولكن الريح هى القوة؛ لأن الله سبحانه يقول:

﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢).

يعني قـوتكم، أي إن النزاع إنما ينتج عنه تبـديد القـوة، وكانت الريح قـوة ظاهرة، وعندما توصل الإنسـان إلى اختراع آلة البـخار وتم تشغـيل السفن به، استغنى الإنسان عن تشغيل السفن بالريح. وهكذا نعرف أن كلمة «الريح» تؤخذ

---

(١) سورة الضحى: ١، ٢.

(٢) سورة الأنفال: ٤٦.

على أنها الرياح، وتؤخـذ أيضًا على أنها مطلق القوة، وتؤخذ ثـالثًا على معنى الرائحة.

والقرآن يوضح لنا ذلك، فعند استخدام معنى الريح كمطلق القوة نجد القرآن يقول:

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾[1].

أي إن الله حين يشاء يعطل القوة المحركة لأي شيء فهـو سبحانه يفعل. أما عن معنى الريح كرائحة فنحن نجده في قوله الحق:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾[2].

إن يعقوب والد يوسف عليـهما السلام كان يملك حاسة شـم قوية، فعندما خرجت القافلة من مصر، قال والده: إني أشم رائحة يوسف. وفي الريف نحن نسمع من يقول: «سأنتقم من فلان ولا أجعل له ريحة في الأرض»، ويقصد أنه لن يجعل له أثرًا في الأرض، ولماذا استخدم هنا كلمة الرائحة؟ . لقد ثبت حديثًا فقط أن الرائحة هى أبقى الآثار بالنسبة إلى الكائن الحي، بدليل إن الذين عندهم حاسة الشم قوية من الـكائنات كالكلاب البوليسية يستـدلون برائحة الجاني على مكان وجـوده، كأن الجـاني يترك أثرًا لرائـحتـه في مكان الجريمة، وكل مـا هو مطلوب أن يوجد من له حاسة شم قوية ليستدل عليه.

والحق سبحانه وتعالى أعطانا العقل، ولكنه أبقى لبعض منا ولغير العاقل ما لا تستطيع أغلبـيتنا أن تصل إليه، وأصـبح الكلب الذي هو حيوان بهـيم أعجم يستدل على أشياء لا نستطيع نحن أن نستدل عليها، لأنه لا يزال في عالم الحس فقط، بينما الإنسان أخذ جانبًا من عالم الحس. وجانبًا من العقل.

---

(١) سورة الشورى: ٣٣.

(٢) سورة يوسف: ٩٤.

وقوله الحق: ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ فهل يعني هذا القول إن الماء في السماء؟. لا. إن الماء أصله في الأرض، لكن ماء الأرض الثابت لا ينفع لرينا ولا لري زرعنا إنه ملح أجاج مرٌّ، والذي يوجد على الأرض منه هو مخزون فقط، ولذلك وضع الله له المواد الكيماوية التي تجعله لا يفسد ولا تتغير صفاته وطبيعته، ثم تتسع رقعة الماء على قدر اليابس ثلاث مرات، لماذا؟. لأن الله يريد أن تتسع صفحة الماء اتساعًا يجعل للبخر مصادر كبيرة واسعة، هذا البخر هو عملية التقطير الإلهي.

إن إنزال الماء من السماء هو الذي نراه على هيئة المطر، لكن تسبق نزوله مراحل متعددة هى بخر وتكثيف وتلقيح الرياح للسحاب وغيرها. وتلك المراحل المتعددة اهتدينا إليها مؤخراً، بدليل إننا حاولنا تقليد هذه الدورة، بأن نبخر الماء المالح ونكثفه لنستخرج ماء مقطراً، لكن ذلك له تكاليفه المالية العالية، فكوب واحد من الماء المقطر يستغرق وقتًا ويستلزم جهداً وتكاليف بينما المعمل الإلهي يدر لنا ماء غدقًا لا حصر لكمياته، إن هذا المعمل يعمل ونحن لا ندري.

إن الدورة المائية تبدأ بصعود البخار من الماء، وبعد ذلك يصادف منطقة باردة فينزل ماء عذبًا. ومن دقة الخالق الحكيم سبحانه أن جعل منسوب الماء العذب دائمًا أعلى من منسوب الماء المالح، فلو كان منسوب المالح أعلى من العذب فسيطغى عليه ويفسده، ولا نجد ماء نشربه، لكن الخالق الحكيم جعل منسوب المياه العذبة في الأنهار أعلى من ماء البحار والمحيطات حتى ينساب الماء من النهر إلى البحر؛ وذلك لا يسبب ضرراً.

فالحق سبحانه وتعالى يعلمنا أنه أنزل من السماء ماء، كيف ينزل هذا الماء؟. هذا ما عرفناه مؤخراً، وبالماء العذب يُحيى الله الأرض بعد موتها، وما هو الموت؟ إن الموت هو ذهاب الحركة، كذلك الأرض عندما تجف فلا تبقى لها حركة، ونحن لا نستطيع بحواسنا أن ندرك حركة الأرض أثناء نمو النبات، لكن الله - عز وجل - يؤكد ذلك في قوله:

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾[١].

فالأرض عندما ينزل عليها المطر تنتفخ قشرتها، وتطفو تلك القشرة على سطح الأرض، ثم ماذا يحدث؟

﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[٢].

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾. ثم تمضى الآية ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي نشر فيها كل ما يدب على الأرض، و﴿تصريف الرياح﴾ ومعنى التصريف هو التحويل والتغيير، أي توجيه الرياح إلى نواح مختلفة سواء إلى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب، وهذا الاختلاف لم يجعل للهواء مساراً رتيبًا، وعندما نتأمل عملية الاستطراق في الهواء نجد أنها تعطي اعتدالاً مزاجيًّا للهواء، فمرة يأتي من ناحية حارة؛ ليهب على المناطق الباردة،ومرة يأتي من المناطق الباردة؛ فيهب على المناطق الحارة، وهذا التصريف نعمة من نعم الله، فلو كانت الرياح ثابتة لصارت مرهقة للبشر.

ونحن نسمع عن أسماء الرياح مثل الصبا والدابور، وريح الشمال، وريح الجنوب، والنكباء، والزعزع، والصرصر، وساعة تسمع كلمة «رياح» بصيغة الجمع، فلنعلم أنها للخير، وإن جاءت «ريح» بصيغة المفرد فلنعلم أنها ريح عقيم ضارة. مثل قوله الحق: ﴿بريح صرصر عاتية﴾، لكن هذه القاعدة كسرتها آية واحدة في قوله تعالى:

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[٣].

لماذا؟. لأن الريح لو اختلفت على السفينة لكانت كارثة؛ فكان لابد أن تأتي

---

(١) سورة الحج: ٥.

(٢) سورة الحج: ٥.

(٣) سورة يونس: ٢٢.

الرياح إلى السفينة من اتجاه واحد، ولذلك لم يترك الله كلمة «ريح» مطلقة، وإنما وصفها بأنها ريح طيبة. وفي قول آخر يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾(١).

إنه سبحانه يلفتنا إلى قدرته، حتى لا يعتقد أحد أن الله خلق الخلق وخلق لهم قانونًا ثم تخلى عن حكمهم، لا، إنه سبحانه هو ما يزال قيوم السماوات والأرض وله مطلق القدرة.

﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾.

والتسخير معناه حمل الشيء على حركة مطلوبة منه لا اختيار له فيها، والله يسخر السحاب لأنه يريده أن يمطر هنا، فيأتي مسخر الرياح فيسوقه إلى حيث يريد الله، وأنت قد تنتفع بمطر ينزل من سحابة في غير مكانك، ونحن ننتفع - في مصر - بماء النيل برغم أن المطر ينزل في جنوب السودان، وفي هضاب الحبشة، ولو اقتصرنا على الماء الذي ينزل من سماء مصر لكنا قد هلكنا عطشًا، وهذا يؤكد معنى قوله تعالى:

﴿ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾(٢).

إن السحاب يسير مسخراً إلى غاية مطلوبة منه ولا إرادة له فيها. ويختم الحق الآية بقوله: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي إنها عجائب لقوم يعقلون. وحين يقول الحق: ﴿لقوم يعقلون﴾ فكأنه ينبه المَلَكَة المفكرة العاقلة في الإنسان. وحين يخاطبك مخاطب؛ وينبه فيك الملكة العاقلة؛ فاعلم أن ما يخبر به ينتهي عقلك إليه بمجرد أن تفكر، وإلا لو لم يكن الأمر كذلك؛ ما كانت هناك ضرورة أن يذكر لك كلمة العقل.

---

(٩٨) سورة يونس: ٢٢.

(٩٩) سورة الأعراف: ٥٧.

والقرآن الكريم دائمًا يقول: ﴿يتفكرون﴾، و ﴿يعقلون﴾، و ﴿يتدبرون﴾ و ﴿يتذكرون﴾ وكل ذلك معناه أنهم لو فكروا، ولو عقلوا، ولو تدبروا، ولو تذكروا، لانتهوا إلى الحقيقة التي يريدها الله. والحق سبحانه وتعالى ينبه المسلم دائمًا لأن يستقبل الأمور بعقله وبفكره وبتدبره وبتذكره، لأنه سبحانه يعلم أن الإنسان إذا فكر أو عقل أو تذكر أو تدبر فسوف ينتهي إلى ذات القضية.

وقال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١).

وتصريف الرياح إهاجة للهواء في الكون، والإهاجة للهواء في الكون تأتي منها فوائد كثيرة للغاية، ونحن حين نجلس في مكان مكتظ وممتلئ بالأنفاس نقول لمن يجلس بجوار النافذة: «لنهوى الغرفة قليلاً» . وإن لم يكف هواء النافذة تأت بمروحة لنأخذ من طبقات الجو طبقة هواء جديدة فيها أوكسجين كثير. إذن فإرسال الرياح ضرورة حتى لا يظل الهواء راكدًا. ويتلوث الجو بهذا الركود، ولو أن كل إنسان سيستقر في مكان مكتوم الهواء لامتلأ المكان بثاني أكسيد الكربون الخارج من تنفسه، ثم لا يلبث أن يختنق، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة في كل شيء، وهي أيضًا رحمة تتعلق بالقوت كما تعلقت بمقومات الحياة من نَفَس وماء وطعام، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذي نتنفسه، وكذلك تكوين الماء. لأنه سبحانه القائل عن الرياح:

﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف: ٥٧.

(٢) سورة الأعراف: ٥٧.

والرياح هى التي تساعد في تكوين الأمطار التي تنزل على الأرض فتروى التربة التي نحرثها، وهكذا تكون الرياح بشرى في ثلاثة أشياء: الشيء الأول تحريك طبقات الهواء وإلا لفسد الجو في كل جماعة تستقر في مكان ولاستنشقوا الهواء الفاسد. والعنصر الثاني لمقومات الحياة هو الماء، لأن الرياح هى التي تحمل السحاب وتحركه وتنزل به مطراً على الأرض ونحرث نحن الأرض ونزرعها. وهو سبحانه قال: «بشراً»، لأن هناك فرقًا بين بشرى، وبشراً؛ فالبشرى مفرد، وقد وردت في قوله الحق:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾(١).

أي التبشير. لكن بشراً جمع بشير وهى كلمة مخففة، والأصل فيها بُشُر. والحق يقول: ﴿فلما أن جاء البشير﴾.

وجمع البشير «بُشُر» مثل: «نذير» و «نُذُر»، بضم الشين فسكنت تخفيفًا، فتنطق بُشْراً وبُشُراً. ﴿بشراً بين يدي رحمته﴾.

هى بين يدي رحمته لأنها ستأتي لنا بالماء، وهو الرحمة في ذاته، وبواسطته يعطينا رى الأرض، ونحن نرتوى منه مباشرة أيضًا. ونلحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهى تأتي للخير، أما حين يكون فيها شر فيأتي بكلمة «ريح» مفردة، مثل قوله:

﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾(٢).

فإذن عندما ترى كلة «رياح» فاعلم أنها خير، أما كلمة «ريح» فاعلم أنها شر لماذا؟ أنت إذا كنت قاعداً في حجرة فيها فتحة نافذة يأتي منها الهواء، ويتسلط التيار على إنسان، فالإنسان يصاب بالتعب؛ لأن الهواء يأتي من مكان

---

(١) سورة هود: ٦٩.

(٢) سورة الحاقة: ٦.

واحد، لـكن حين تجلس في الخلاء ويهب الهـواء فأنت لا تتـعب؛ لأن الرياح متعددة. ولكن الريح تأتي كالصاروخ.

الرياح إذن يرسلها الحق بين يدي رحمتـه؛ حتى إذا أقلت أي حملت يقال: «أقل فلان الحمل» أي رفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته، لأنه لو كان أكثر من طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته وبالنسبة لجهده، أقلت أي حملت، وما دامت قد حملت فجهدها فوق ما حملته، وإذا كـان الجهد أقل من الذي حملته لابد أن ينزل إلى الأرض. وأقلت سـحابًا أي حـملت سحـابًا. نعـرف أن السحـاب هو الأبخرة الطالعـة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجو العليا، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر؛ ونرى ذلك في الماء المقطر الذي يصنعونه في الصيدلية؛ فيأتي الصـيدلي بموقد وفوقه إناء فيه ماء ويغلى الماء فيخرج البخار ليسير في الأنابيب التي تمر في تيار بارد فيتكثف البخار ليصير ماء. ﴿حتى إذا أقلت سحابًا ثقالاً سقناه لبلد ميت﴾.

وقال الحق: «سقناه» بضميـر المذكر؛ لأنه نظر إلى السحاب في اسم جنسه، أو نظر إلى لفظه، وجـاء بالوصف مـجمـوعًـا فقـال: ﴿ثقـالاً﴾ نظرًا إلى أن السحـاب جمع سحـابة فرق بينه وبين واحدة بـالتاء، وما دامت السـحب كلها داخلة في السّوق فليس لها تعددات فكأنها شيء واحد.

﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[1].

السحاب لا يـتجه إلى مكان واحد، بل يتـجه لأماكن متـعددة، إذن فالحق يوجه السحاب الثقال لأكثـر من مكان. لكن الحق سبحانه وتعالى يقول: (سقناه لبلد ميت).

---

(١) سورة الأعراف: ٥٧.

والميت هو الذي لا حراك فيه وانتهى اختياره في الحركة، كذلك الأرض، فالماء ينزل من السماء على الأرض وهى هامدة ليس بها حركة حياة أي إن الله يرسل السحاب ويزجيه إلى البلد الميت في أي مكان من الأرض.

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (١).

إذن فالأرض التي لا يأتيها الماء تظل هامدة أي ليس بها حركة حياة مثل الميت.

﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (٢).

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا وينبهنا إلى القضية اليومية التي نراها دائمًا في صور شتى، وهى أن الأرض تكون في بعض الأحيان جدبًا، ثم يهبط عليها بعض المطر، وبمجرد أن ينزل المطر على الجبل، وبعد يومين من نزول المطر نجد الجبل في اليوم الثالث وهو مخضر، فمن الذي بذر البذرة للنبات هذا اليوم؟ إذن فالنبات كان ينتظر هذه المياه. وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً، وهذا دليل على أن كل منطقة في الأرض فيها مقومات الحياة.

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣).

فالماء الذي ينزل على الأرض الميتة يحيي الأرض؛ لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم، وحين يوضح لنا سبحانه أنه سيبعثنا من جديد فليس في هذا أمر عجيب، وهكذا جعل الله القضية الكونية مرئية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع

(١) سورة الحج: ٥.
(٢) سورة الأعراف: ٥٧.
(٣) سورة الأعراف: ٥٧.

أحد أن يكابر ويعاند فيها، لأنها أمر حسيّ مشاهد، ومنها نستنبط صدق القضية وصدق الرب.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[1].

* * *

(١) سورة الأعراف: ٥٨.

الإعجاز العلمي في البرق

يقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١).

وكُلُّنا يعرف البَـرْق، ونحن نستقـبله بالخوف مما يُزعِج وبالطمع فيـما يُحَبّ ويُرْغَب، فساعةَ يأتي البرق فنحن نخاف من الصواعق، لأن الصواعق عادةً تأتي بعد البَرْق؛ أو تأتي السحابات المُمْطِرة.

وهكذا يأتي الخَـوْف والطَّمَـع من الظاهرة الواحـدة. أو: أنْ يكون الخـوف لقوم؛ والرجاء والطمع لقوم آخرين.

والمثل الذي أضربه لذلك دائمًـا هو قول أحد المقاتلين العرب وصف سـيفه بأنه «فَتْح لأحبابه، وحَتْف(٢) لأعدائه».

والمثل الآخر الذي أضربه مـا رواه لنا أمير بلدة اسمهـا «الشريعة» وهى تقع بين الطائف ومكة؛ وقد حدثنا أمـير الشريعة عام ١٩٥٣ عن امرأة صـالحة تحفظ القرآن؛ اسمها «آمنة».

هذه المرأة كان لها بنتـان؛ تزوَّجتا؛ وأخذ كُلُّ زَوْجٍ زوجته إلى مَـحَلّ إقامته؛ وكان أحدُ زَوْجَى البنتين يعمل في الزراعـة؛ والآخر يعمل بصناعة «الشُّرُك»(٣). وقالت آمنة لزوجها: ألاَ تذهب لمعرفة أحوال البنتين؟ فذهب الرجل لمعرفة أحوال البنتين، فكان أول مَنْ لقى في رحلته هى ابنته المتزوجـة مِمَّنْ يحرث ويبذر، فقال لها: كيف حالك وحال زوجك وحال الدنيا معك أنت وزوجك؟

---

(١) سورة الرعد: ١٢.

(٢) الحتف: الموت. وجمعه: حُتُوف. والحتف: الهلاك.

(٣) الشُّرُك: جمع شَرَك، وهو حبائل الصائد.

قالت: يا أبت، أنا معه على خير، وهو معي على خير، وأما حال الدنيا، فَادْعُ لنا الله أنْ يُنزِل المطر؛ لأننا حرثنا الأرض وبذرنَا البذور، وفي انتظار رَيٍّ السماء.

فرفع الأب يديه إلى السماء وقال: اللهم إنِّي أسألك الغَيْث لها.

وذهب إلى الأخرى؛ وقال لها: ما حالك؟ وما حال زوجك؟ فقالت: خير، وأرجوك يا أبي أن تدعوَ لنا الله أنْ يمنع المطر؛ لأننا قد صنعنا الشِّرَاك من الطين؛ ولو أمطرتْ لَفسدتِ الشُّرُك، فَدَعا لها.

وعاد إلى امرأته التي سألته عن حال البنتين؛ فبدا عليه الضيق وقال: هي سَنَة سيئة على واحدة منهما، وروى لها حال البنتين؛ وأضاف: ستكون سنة مُرْهِقة لواحدة منهما.

فقالت له آمنة: لو صبرتَ؛ لَقُلْتُ لك: إن ما تقوله قد لا يتحقق؛ وسبحانه قادر على ذلك.

قال لها: ونعم بالله، قولي لي كيف؟ فقالت آمنة: ألم تقرأ قول الله:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً[2] فَتَرَى الْوَدْقَ[3] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[4] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾[5].

فسجد الرجل لله شكراً أنْ رزقه بزوج تُعينه على أمر دينه، ودعا: اللهم اصْرِف عن صاحب الشِّراكِ المطر؛ وأفِضْ بالمطر على صاحب الحَرْث. وقد كان.

---

(١) أزجاه: ساقه برفق.

(٢) الركام: السحاب المتراكم بعضه فوق بعض.

(٣) الودق: المطر شديده وهيِّنه.

(٤) البرد: حبات صغار من الثلج.

(٥) سورة النور: ٤٣.

وهذا المثل يوضح جيداً معنى الخوف والطمع عند رؤية الرعد:

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ (١).

إما من النفس الواحدة بأن يخافَ الإنسانُ من الصواعق، ويطمع في نزول المطر، أو من متقابلين؛ واحد ينفعه هذا؛ وواحد يضره هذا.

ويضيف الحق سبحانه:

﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ (٢).

ونحن نعلم أن السحاب هو الغَيْم المُتَراكم؛ ويكون ثقيلاً حين يكون مُعَبَّأً؛ وهو عكس السحاب الخفيف الذي يبدو كَنُتَفِ القطن.

ويُقَال عند العرب: «لا تستبطئ الخَيْل؛ لأن أبطأ الدِّلاء فَيْضًا أملؤها، وأثقلَ السحابِ مَشْيًا أَحْفَلُهَا».

فحين تنزل الدَّلْو في البئر؛ وترفعه؛ فالدَّلْو المَلآن هو الذي يُرهقك حين تشدّه من البئر؛ أما الدلو الفارغ فهو خفيفٌ لحظة جَذْبه خارج البئر، وكذلك السحاب الثِّقَال تكون بطيئة لِمَا تحمله من ماء.

* * *

(١) سورة الرعد: ١٢

(٢) سورة الرعد: ١٢.

الإعجاز العلمي وإشارات إلى غزو الفضاء

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[١].

إنك يا محمد رسول من عند الله، ومعك منهج هو معجزتك الدالة على صدق ما جئت به، فإن كبر عليك إعراضهم وعظم عليك أن يتولوا ويعرضوا عنك فإن استطعت أن تصنع لنفسك نفقًا في الأرض لتأتيهم بآية أو أن تبنى سلمًا لتصعد به إلى السماء طلبًا لهذه الآية فافعل، ولكنك لن تستطيع ذلك لأن ذلك فوق حدود قدرتك وسيلقى المشركون والمنافقون العذاب لأنك جئت يا رسول الله تبدد من صولجان سلطتهم الزمنية وتقيم العدل الإيماني. ولذلك حاولوا السخرية منك وإيذاءك .

وقد طلب الكافرون من رسول الله ﷺ أن ينزل إلى الأرض ليفجر لهم منها ينبوعًا، وطلبوا إليه أن يصعد إلى السماء وأن يجعلها تسقط عليهم كسفًا وقطعًا لتهلكهم. وهذه أشياء لم تكن في مكنة واستطاعة رسول الله ﷺ، ولذلك يقول له الحق سبحانه وتعالى ما يقفل عليه أبواب الحزن ويقضي على أسباب الأسى والأسف عنده بسبب إعراضهم، وأن يعرف أن السخرية والمقاومة هى مسألة طبيعية بالنسبة لكل رسول من الرسل، وأنت يا رسول الله أولى بهذا لأن مهمتك أضخم من كل الرسل. ونلحظ أن الحق سبحانه يحذف هنا جواب «إن» فهو يقول:

---

(١) سورة الأنعام: ٣٥.

﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ (١).

ولم يقل الحق: فافعل ذلك، كأن المسألة هي تهدئة للرسول؛ لأن الجواب في مثل هذه الحالة معلوم؛ فالرسول لا يجبر أحدًا على الإيمان. وإعراض هؤلاء القوم أمر مقصود لواجب الوجود حتى يختبرهم ولو أراد قهرهم لفعل، فلا أحد يتأبى على الله، فالكون كله مطيع لله، الشمس، والقمر، والنجوم، والهواء، والماء، والجبال، والأرض، وكل ما في الكون مطيع لله بما في ذلك الحيوان المسخر لخدمة الإنسان. ولكنه - سبحانه - أعطى الاختيار للإنسان ليأتي إلى الله محبًا.

ونعلم أن الحق قد ترك بعضًا من المسخرات غير مذللة ليثبت للإنسان إنه لم يذلل الأشياء بحيلته، ولكنه - جل شأنه - هو الذي خلقها وذللها له، لذلك نرى الجمل الضخم يجره طفل صغير، ونرى أي رجل مهما تكن قوته يأخذ الحذر والاحتياط من ثعبان صغير.

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ (١).

ولو لم يذللها الله فلن يستطيع أحد أن يقترب منها. وأضرب هذا المثل دائمًا، عندما قال قائل: لماذا خلق الله الذباب؟ فقال رجل من أهل الإشراق: ليذل به الجبابر؛ فسلطانهم لا يمتد إلى هذه الحشرات. لقد أعطى الحق الإنسان عزَّة السيادة، وعلمه أيضًا أن يتواضع للخالق.

ويبلغ الحق سبحانه وتعالى رسوله:

---

(١) سورة الأنعام: ٣٥.

(٢) سورة يس: ٧١، ٧٢.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[(١)].

أي أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم مؤمنين. وقد يقول قائل: كيف يخاطب الله رسوله فيقول له: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾؟ ونقول: إن الحق حين يقول لرسوله ذلك فهو يقولها لا من مظنة أن يفعلها الرسول؛ فالرسول معصوم من الجهل، ولكن هو قول فيه تنزيه للرسول عن أن يكون في مثل هذا الصنف من الجاهلين.

وقال - عز وجل -:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[(٢)].

نجد من يقول إن ربنا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وما ذنب المكلف إذن؟.

وللرد على هذا نقول: لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان: المعنى الأول: الدلالة وهى أمر وارد وواجب حتى للكافر. فإن هُدى الله للكافر أن يدله إلى طريق الخير، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهى للذي آمن، ويصبح أهلاً لمعونة الله، بأن يخفف عنه أعباء التكاليف وييسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البغض والتجافي عن كل النواهي.

يقول بعض الصالحين: «اللهم إني أخاف ألا تثيبني على طاعة، لأني أصبحت أشتهيها» كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد يجد فيها مشقة أو تكليفًا، لذلك فهو خائف، وكأنه قد فهم أنه لابد أن توجد مشقة، ولمثل هذا الإنسان

---

(١) سورة الأنعام: ٣٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٥.

الصالح نقول: لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقته فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة، فقد كان ﷺ يرى أنه إذا نودى إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالى لكنه ﷺ يقول لبلال حينما يأتي وقت الصلاة: **«أرحنا بها يا بلال»**.

وهذا غير ما يقول بعض ممن يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم: هيا نصلي لنزيحها من على ظهورنا، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق. أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم، يقول الواحد منهم: ما دامت الصلاة تريح القلب، فلأذهب إليها وألقى ربي زائداً على أمر تكليفه لي متقربًا إليه بالنوافل، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة. ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به. فيقوم إلى الصلاة، وهذا أمر منطقي، ولله المثل الأعلى.

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نروح؟ إننا نلجأ لربنا ولقد كان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة.

إذن فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة، وقد يجوز أنه شاق عليك؛ لأنه يخرجك أولاً عمَّا ألفت من الاعتياد. فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول: إن هذه المشقة إنما يريد الله بها لي حسن الجزاء، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حبًّا لك، وكان واحد من الصالحين - كما قلت - يخاف ألا يثاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه في شهواتها لكن رسول الله ﷺ وضع لنا المثل فقال: **«لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعًا لما جئت به»** أي يصبح ما يشتهيه موافقًا لمنهج الله، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوى.

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان: هداية بمعنى الدلالة، وهداية بمعنى المعونة.

فإذا ما اقتنعت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسبحانه يخفف عليك أمور التكليف، ويجعلك عاشقًا لها، ولذلك يقول أهل الصلاح: ربنا قد فرض علينا خمس صلوات، وسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات، وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه واهب كل شيء، وهذا عشق التكليف، وهذا هو معنى قوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾.

﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ أي يدلّه سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج، لكن الذي اقتنع بالدلالة وآمن يسهل عليه تبعات التكليف مصداقًا لقوله الحق:

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾(١).

فهذه هداية المعونة، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان. ولذلك نجد أن كبار رجال قريش رفضوا أن يقولوا: «لا إله إلا الله»؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال، ولكن لها مطلوبات تتعب في التكاليف الناتجة عنها بـ «افعل» و «لا تفعل» فالتكليف يقول لك: «افعل» لشيء هو صعب عليك، ويقول لك: «لا تفعل» في شيء من الصعب أن تتركه، لذلك يقول سبحانه:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾(٢).

وسبحانه يشرح صدره للإسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها واطمأن بها، فيأتي إلى فهم التكاليف؛ لأن صحيح الإسلام يقتضى

---

(١) سورة مريم: ٧٦.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٥.

الانقيـاد لأمور التكاليف، فـمن أخذ الـهداية الأولـى وآمن بربه، يوضح له سبحانه: آمـنت بي وجئتني؛ لذلك أخفف عنك تبعات العـمل، ويشرح صدره للإسلام، وشرح الصدر قد يكون جزاءً. فسبحانه هو القائل:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (١).

فقد جازاه ربنا بذلك؛ لأنه أدى ما علـيه وصمد. كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق، وحينمـا يقبل على الحق، يبحث العبد ليـتعرف على المراد والمطلوب منه فيـعلم أنها التكاليف، فإذا رأى الله منك الاسـتعداد المتمـيز لقبول التكاليف، فإنّه يخففها عنك لا بالتقليل منها،ولكن بأن يجعلك تشتهيها، وقـد تلزم نفسك بأشـياء فـوق ما كلـفك الله؛ لتكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ومن الذين يدخلون مع الله في ود، وتلتفت لنفسك وأنت تقول: لقد كلفني الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير. فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائمًا الحديث القدسي:

«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افتـرضته عليه، ولا يزال عـبدي يتقـرب إلي بالنوافل حتى أحبـه، فإذا أحبـبتـه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» (٢).

أي بالأمور التي تزيد على ما كلفه في الصلاة والزكاة والصيام والحج.

إذن فمـعنى **﴿فـمن يرد الله أن يهـديه يشرح صـدره للإسـلام﴾** أي يجعل الأمور التي يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحـة ويقبل عليها بشـوق وخشوع. ولذلك فـالحق سبحانه وتعـالى يترك في

---

(١) سورة الشرح: ١.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، (٨/١٣١)، والبيهقي (٣/٣٤٦)، (١٠/٢١٩) في سننه الكبرى، و(٤٩١) في الأسماء والصفات.

خلقه مثُلاً للناس، فنجد المال عـزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جـاء بطريق شرعـه الله وأحله فهو يأتـي بتعب وبكدٍّ؛ لذلك يحـرص عليه الإنسان، فيحنن الله العبد من أجل البذل والعطاء.

إننا نجد المؤمن يعطي للسائل لأن السائل هو الجسر الذي يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله، فيـقول العبد المؤمن للســائل: مرحبًا بمن جـاء ليحمل زادي إلى الآخرة بغـير أجرة، ولذلك عندمـا جاء مسلم إلى الإمـام عليّ - رضي الله عنه وكرّم الله وجهه - قال المسلم: أنا أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟

واختار الإمام عليّ مقيـاسًا للإيمان في نفس كل مؤمن، وقال له: إن جاءك من يطلب منك، وجاء من يعطيك، فـإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا، وإن كنت تهشّ لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب.

إذن فـ ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ أي يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقـة، ثم يرتقى بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يُعشّـقه في التكليف. ويهديه الله إلى طريق الجنة، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلـى الجزاء على المنهج، ولذلك نجد القرآن يقول؛ عمن ضلوا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ۞ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ (١).

كأن هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء، ونجد الحق يقول:

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (٢).

---

(١) سورة النساء: ١٦٨، ١٦٩.

(٢) سورة محمد: ٤-٦.

وقد يتساءل إنسان: كيف يهدى الله من قُتل، وهل هناك تكليف بعد القتل؟. نقول: انظر إلى الهداية، إنها هداية الجزاء ﴿سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم﴾.

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء، من يحسن العمل يُجزِه الله الجنة، أما من يسيء له عذاب في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وهل هذا تجن من الله على خلقه؟ لا، لأنه ما دام دعاهم للإيمان فآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر. ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدي به مهمته، فحين يقال: ضاق البيت بي وبعيالي، فهذا يعني أن الرجل وزوجه في البداية عاشا في غرفتين، وكان البيت متسعًا. ثم أنجبا عيالاً كثيرةً فضاق بهم البيت. وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل. ويقال: صدره ضيّق أو ضيْق فقد ورد في القرآن لفظ ضيق على لغتين: فالحق يقول:

﴿ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾(٢).

وهناك في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها توجد كلمة ضيّق، والحق يقول:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٢) سورة النحل: ١٢٧.

(٣) سورة هود: ١٢.

فما المراد من «ضائق»، و«ضيّق»، و«ضيْق»؟ . نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين في التكوين: القلب والرئة، والرئة هي الجارحة التي لا تستمر الحياة إلا بعملها؛ فقد تبطىء الأمعاء مثلاً، أو تتوقف قليلاً عن عملها، ويتغذى الإنسان على خزينه من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة، ويصبر على الماء مدة أقل، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير.

ولقد قلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد يملّك بعضًا قوت بعض. وأقل منه أن يملّك بعضًا ماء بعض، لكن أيملّك أحدًا هواء أحد؟ لا؛ لأن الرضا والغضب أغيار في النفس البشرية. فإذا غضب إنسان على إنسان، وكان يملك الهواء وحبسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر، ولذلك لم يملك الله الهواء لأحد من خلقه أبدًا.

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله: ﴿يجعل صدره ضيقًا حرجًا﴾ نعلم عنها أن الصدر هو محل التنفس، والرئة تأخذ الأوكسجين وتطرد ثاني أوكسيد الكربون، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة في التنفس، كأن حيّز الصدر صار ضيقًا، فلا يدخل الهواء الكافي لتشغيل الرئتين، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فينهج. ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء، فينهج؛ لأن الحيّز قد ضاق، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلمًا، ينهج أيضًا؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود، لمعاندة جاذبية الأرض، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية.

إننا نجد نزول السلم مريحًا؛ لأن في النزول مساعدة للجاذبية، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك إن حيز الصدر لم يعد قادرًا على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم، ولذلك يقال: «فلان

صدره ضيق﴾ أي إن التنفس يجهده إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذي يسعه صدره.

﴿ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقًا حرجًا﴾ والحرج معناه الحجز عن الفعل، كأن نقول حرّجت على فلان أن يفعل كذا، أي ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدي هذا العمل. ﴿كأنما يصّعد في السماء﴾.

وعلمنَا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته. فالجهات التي تحيط بأي شيء ست: هي فوق وتحت، ويمين، شمال، وأمام، وخلف، وعرفنا أن الهبوط سهل؛ لأن الجاذبية تساعد عليه، والمشي ماذا يعني؟ المشي إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف، فهو فعل في الاستواء العادي الظاهر، والذي يتعب هو أن يصعد الإنسان، لأنه سيعاند الجاذبية، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين: قوة للفعل في ذاته، والقوة الثانية لمعاندة الجاذبية.

﴿ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصّعد في السماء﴾ وذلك بسبب مشقات التكليف؛ لأنه لم يدخلها بعشق، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذي يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر وانبساط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل، والذي يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها؛ فالذي يجتهد في دروسه إنما يستحضر في ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح في نفسه مستقبلاً وفي أهله. أما الذي لا يستحضر نتائج ما يفعل فيكون العمل شاقًّا عليه.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(١).

والسماء هي كل ما علاك فأظلك، فالجو الذي يعلوك هو سماء، وكذلك

(٢) سورة الأنعام: ١٢٥.

السحابة، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن، وتساءلوا: من الذي كان يدرك أن الذي يصعد في الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين: الأول للعمل والثاني لمناهضة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافي لإمداده بطاقة تولد وقوداً.

ونقول لهؤلاء العلماء: لا يوجد ما يمنع استنباط ما يتفق في القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق، ولكن لنحبس شهوتنا في أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لا نتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية.

إنه يجب على المخلصين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب. لذلك نقول: أبعد القرآن عن هذه حتى لا تعرضه للذبذبة. ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التي أثبتت التجارب صدقها.

وقائل القرآن هو خالق الكون، لذلك لا تتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية؛ لذلك لا تحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها في شيء وهي غير محصورة فيه. وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية، وكذلك الحقيقة الكونية.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

والرجس وهو العذاب، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

الإعجاز العلمي وإشارات إلى الجاذبية الأرضية

قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

ويتابع الحق سبحانه سَرْد آياته الكونية في هذه الآية:

﴿ مَدَّ الأَرْضَ ﴾(٢).

يعني أنها موجودة أمامك ومُمْتَدة، وبعض الناس يفهمون المَدَّ بمعنى البسط، ونقول: إن البَسْطَ تابع للمَدِّ.

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا: ومن قال إن الأرض كُرَوِيّة؟

إن الحق سبحانه قال: إنها مبسوطة، وهو سبحانه الذي قال: إنه قد مَدَّ الأرض.

وقلتُ لهؤلاء العلماء: فَلْنفهم كلمة المَدِّ أولاً، ولْفهَمْ أيضًا كلمة الأرض وهى التي تقف عليها أنت وغيرك، وتعيش عليها الكائنات، وتمتد شمالاً إلى القُطْب الشمالي، وجنوبًا إلى القُطْب الجنوبي، أيًّا ما كُنْت في أيِّ موقع فهى مَمْدودة شرقًا وغربًا.

ومعنى: ﴿ مَدَّ الأَرْضَ ﴾(٣).

---

(١) سورة الرعد: ٣.

(٢) سورة الرعد: ٣.

(٣) سورة الرعد: ٣.

تعني إنك إنْ وقفتَ في مكان وتقدمتَ منه؛ تجد الأرض ممدودة أمامك؛ ولا توجد حَافةٌ تنتهي لها، ولو أنها كانت مبسوطة لَكَانَ لها نهاية، ولكانت على شكل مُثلّث أو مُربّع أو مُسْتطيل؛ ولكانَ لها حافة؛ ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة، وهو يقول: «لقد وصلتُ لحافة الأرض؛ وأمامي الفراغ» ولم يحدث أنْ قال ذلك واحد من البشر.

وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلاً؛ فسيظل ماشيًا على اليابسة أو راكبًا لمركب تقطع به البحر أو المحيط ليصل إلى نفس النقطة التي بدأ منها سَيْره.

وهكذا نجد الأرض ممدود غير محدودة، لا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة، بحيث إذا مشيت مُتتبِّعًا أيَّ خط من خطوط العرض أو خطوط الطول لانتهتْ إلى النقطة التي بدأت منها سَيْرك.

وكان هذا هو الدليل الذي يقدمه العلماء على كروية الأرض، قبل أن يخترعوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوي.

ونأخذ من قول الحق سبحانه:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ ﴾[1].

معنًى آخر هو ضرورة أن ينظر الإنسانُ في هذا الامتداد؛ ومَنْ تضيق به الحياة في مكان يُمكنه أن يرحلَ إلى مكان آخر، فأرضُ الله واسعة، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾[2].

ونعلم أن فساد العالم في زمننا إنما ينشأ من فساد السياسات، وزيادة

---

(١) سورة الرعد: ٣.

(٢) سورة النساء: ٩٧.

الاضطرابات، وذلك واحد من نتائج تعويق مَدِّ الأرض، فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه، يجد الحراسات والعوائق عند حدود البلاد المجاورة، وتناسَى الجميع قَوْل الحق سبحانه:

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾[1].

فسبحانه قد سَخَّر الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام[2]، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآني؛ سيظل العالم في صراع؛ وستظلُّ بعض من البلاد في حاجة للبشر، وبعض من البلاد في ضيق من الرزق؛ لزيادة السكان من إمكانات الأرض التي يعيشون عليها.

وستظل هناك أرض بلا رجال؛ ورجال بلا أرض، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد.

وحتى تُحل هذه القضية - كما قلنا في الأمم المتحدة - لابد من تطبيق المبدأ القرآني:

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾[3].

ومَنْ تضيق به الأرض التي نشأ فيها فليسمح له بالهجرة.

ويتابع سبحانه في نفس الآية:

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ﴾[4].

والرواسي هى جمع «رَاسٍ» وهو الشيء الثابت.

وسبحانه يقول:

(١) سورة الرحمن: ١٠.

(٢) الأنام: ما ظهر على الأرض من جميع الخلْق.

(٣) سورة الرحمن: ١٠.

(٤) سورة الرعد: ٣.

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾[(١)].

وهكذا جاء الحق بالحكم الذي شاء أن تكون عليه الجبال، وفي آية أخرى يأتينا الله بعلة كونها رواسي؛ فيقول:

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[(٢)].

أي: لا تضطرب بكم الأرض، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات؛ لما احتجْنَا إلى الجبال الرواسي كي تُثَبِّتها، ولكن الأرض مخلوقة متحركة، وهى عُرْضة للاضطراب، ولولا الجبال الرواسي لَمَادتِ الأرض.

ولسائل أن يقول: ولكننا نقطع الآن الجبال، ونأخذ الجرانيت من جبل لِنُزِّين به أرضية بعض المناطق، ونقطع الرخام من جبل آخر لنصنع منه حمامات وأحواضًا ودرجات السلالم، ونقتطع بعض أحجار أنواع معينة من الجبال؛ لنستخلص اليورانيوم منها؟

ونقول: انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق؛ وحكمته حين دَبَّر، فهذه الأرض لها محيط؛ ولها مركز؛ ولها أقطار، وكلما اقتربتْ من مركز الأرض فالقطر يَقِلّ.

ومثال هذا هو البطيخة؛ فأنت إن استخلصتَ القشرة الخارجية لها يكون لديْكَ كرة من القشرة الخضراء؛ وكرة أخرى من مُكوِّنات البطيخة التي نأكلها، ولو استخلصتَ كرة أخرى من مكونات الألياف الحمراء التي تتكون منها البطيخة، لصار عندك كرة أخرى، ولصار قُطْر الكرة الجديدة أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء.

وكلما استخلصتَ كُريات أخرى من مُكوِّنات البطيخة؛ صَغُرَتِ الأقطار؛

(١) سورة النازعات: ٣٢.
(٢) سورة الأنبياء: ٣١.

لأنك تقترب من مركز الدائرة، والمحيط الأخضر الذي يحيط بالبطيخة وهو القشرة؛ يشبه المحيط الذي يوجد على الكرة الأرضية؛ وهذه القشرة التي توجد حول الكرة الأرضية صُلْبة؛ أما ما بداخل الأرض وجَوْفها؛ فهو مُكوَّن من أشياء ومواد متعددة، منها ما هو سائل ومنها ما هو صَلْب.

وكلما اقتربنا من مركز الأرض؛ وجدنا ارتفاعًا في درجة الحرارة؛ وتدلُّنا على ذلك كُتَل الحُمَم التي تخرج فوَّارة من فُوَّهات البراكين؛ وهى حُمَم ذات حرارة مرتفعة للغاية؛ وهى حُمَم محرقة.

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً، رحمة بنا؛ ذلك أننا حين نبنى بيوتًا؛ أو نقتطع أحجارًا من الجبال؛ أو نستخدم مُكونَّات الجبال في أي غرض؛ إنما ننقل بعضًا من مُكوِّنات الأرض من موقع إلى آخر.

وحين ينتقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر؛ فالسائل الذي في باطن الأرض ينتقل من المنطقة التي زاد عليها الثقل إلى المنطقة التي خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن، ولو لم يحدث ذلك لَتسَاقطتِ العمارات الشاهقة التي نراها أثناء دوران الأرض.

والمَثَلُ الذي يُوضِّح ذلك إنك لو وضعتَ قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة، وجعلت البطيخة أو الكرة في حالة دوران لَطردتِ الكرة أو البطيخة قطعة العجين من على سطحها.

وقد شرح العلماء في «علم الحركة» ذلك فقالوا: إن كل شيء مستدير يتحرك؛ إنما تنشأ عن حركته عملية اسمها الطرد الذاتي؛ لأن قطعة العجين أو أيَّ شيء نضعه على شيء مستدير يتحرك؛ تكون له كثافة وثقل على المنطقة التي يوجد فيها، ويصل هذا الثقل إلى المركز، ولكي تستمر الحركة الدائرية متوازنة لابد أن يطرد الشيء المستدير ما فوقه من ثُقْل زائد.

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نِصْفي الكرة الأرضية من أي موقع تتخيله، متساويًا في الوزن مع النصف الآخر، ومهما أخذتَ من مواد ونقلتَها من موقع إلى آخر، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التي في بطن الأرض.

وهذا يدلُّ على عظمة الخالق الذي خلق بتدبير دقيق، ويكفى أن ننظر إلى عظمة الحق الذي لم يجعل الجبال رواسيَ ليمنع الأرض من أنْ تميدَ بنا، بل جعل في الجبال والصحارى ما استنجدنا به حين ضاقت الأرض بنا؛ فذهبنا إلى الجبال؛ لنستخرج منها المواد الخام؛ ونُصدِّرها؛ ثم نشتري بثمنها القمح.

ونرى من حولنا الصحارى حيث كان المقيمون فيها يلهثون قديمًا من العطش، ولا يجدون شجرة يستظلون بها؛ فيُفجِّر فيها الحق آبار البترول.

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فيه خير مُسَاوٍ لأي قطاع من الأرض، وجعل الله لكل أمر زمنًا يمكن للبشر أن يستفيدوا من هذا الأمر في ذلك الزمن.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الجبال:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً(١) ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾(٢).

أي: إنه سبحانه بارك في الجبال، وهى جزء من الأرض، شاء أن يُقدِّر الأقواتَ في الجبال والأرض؛ ويكفى أن نعلم أن المطر حين يتساقط من السماء على الجبال؛ فيحمل المطر بعضًا من الطَّمْى من على أسطُح تلك الجبال، فتتجدد خُصوبة الأرض.

ولو كانت الجبال هَشَّة لَذابت الجبال من عدد قليل من مراتِ سقوط المطر، ولَذابتِ القشرة الخِصْبة التي تُغذِّي النبات حين نزرعه في الأرض.

---

(١) الند: المثل والنظير.

(٢) سورة فصلت: ٩، ١٠.

ولكنه سبحانه شاء أنْ تَمُرَّ الظروف الجوية باختلافها وتنوُّعها في تتابع يُوفِّر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتشقق؛ فيصير سطح الجبال الصَّلْبة هَشًّا لينزل مع المطر؛ وليُغـذِّي الأرض بالخُصوبة من أجل أن يستمر استبقاء الحياة بإنتاج ما نحتاجه من نباتات مزروعة.

ونلحظ قوله سبحانه في نفس الآية:

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ﴾[١].

وهنا يجمع الحق بين الرواسي وهى الثوابت، وبين الأنهار وهى التي تحمل الماء السائل، وهذا جَمْع بين الأضداد.

والنهر يُطلق على ما يحمل المياه العَذْبة؛ أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح، وأنت إذا استعرضتَ أنهار الدنيا كلها؛ ستجد أن مجاريها تصبُّ في البحار، وهذا دليل على أن منسوب النهر أعلى دائمًا من منسوب البحر، ولو كان الأمر بالعكس؛ لَطَغى ماء البحر على مياه النهر، ولَمَا استطعنا أن نشرب أو نزرع.

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الماء العَذْب هو الأعلى؛ لأن له مهمة يُؤدِّيها قبل أن يصُبَّ في البحر. أقول لك حتى نعلم الحكمة في قول الحق سبحانه:

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[٢] لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾[٣].

ومن العجيب أن البرزخ الذي يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابيًّا، يتدرج نزول مياه النهر في مياه البحر بما يُحقِّق سهولة في هذا الانتقال، ومن العجيب أيضًا أنك إنْ حفرتَ عند شاطئ البحر قد تعثر على الماء العذب.

(١) سورة الرعد: ٣.

(٢) البرزخ: الحاجز بين الشيئين.

(٣) سورة الرحمن: ٢٠.

ولذلك حين نزور العريش نجد شاطئًا باسم شاطئ النخيل؛ ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب، وكأن الحق سبحانه قد جعل في هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العَذْب من هذا المكان الذي يوجد على البحر، وقد تكون له جداول عذبة.

فسبحانه القائل:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ[١] فِي الأَرْضِ ﴾[٢].

ونحن في الريف نجد من يحفر بئرًا ويكون ماؤه عَذْبًا؛ وآخر يحفر بئرًا ويكون ماؤه مالحًا. وهذا دليل على أن الماء في بطن الأرض غير مختلط، بل لكل ماء مسارب[٣] تختلف باختلاف نوعية المياه.

ويُرتِّب الحق سبحانه في نفس الآية مجيء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت - الجبال - كمصدر للغرِين[٤] وخصوبة الأرض، وعلى وجود الأنهار التي تحمل الماء اللازم للري، وهكذا يكون مجيء الثمرات أمرًا طبيعيًّا.

والثمرة كما نعلم هى الغاية من أي زرع.

وفي نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه، فيقول سبحانه:

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾[٥].

ويستعمل البعض كلمة «زوج» ويراد به شيئان كقولنا «زوج أحذية» مع أن التعبير الدقيق يقتضى أن نقول «زوجان من الأحذية» كتوصيف لفردة حذاء يُمْنى وفردة حذاء يُسْرى؛ لأن كلمة «زوج» مفرد، وتستخدم في الشيء الذي له مثل؛

(١) ينابيع: جمع ينبوع.

(٢) سورة الزمر: ٢١.

(٣) السرب: الطريق والمسلك.

(٤) الغرين: ما بقى في أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين.

(٥) سورة الرعد: ٣.

ولذلك نجد العدد الفردي والعدد الزوجي؛ والعدد الزوجي مُفْرد له مثيل؛ وفي الإنسان هو الذكر والأنثى.

وسبحانه القائل:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[1].

ويخطيء الناس أيضًا في فهم كلمة التوأم، ويظنون أنها تعني الاثنين اللذين يولدان معًا، ولكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذي يُولَد مع آخر، ويقال لاثنين معًا «التوأمان».

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾[2].

ولم يخلق الحق سبحانه أيَّ شيء إلا وشاء له أن يتكاثر، مصداقًا لقول الحق سبحانه:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وكُلُّ تكاثر إنما يحتاج إلى زوجين، وكنا نعتقد قديمًا أن التكاثر يحدث فقط في النبات؛ مثلما نُلقِّح النخلة بالذَّكَر، وفي الحيوان يخصب الفَحْل الأنثى، ثم كشف لنا العلم بعد ذلك أن الكهرباء – على سبيل المثال لا الحصر – تتكون من سالب وموجب وغير ذلك كثير، وكل ما قدمه العلم من كشوف يؤيد صِدْقه سبحانه:

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

(٢) سورة الرعد: ٣.

(٣) سورة يس: ٣٦.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾[(١)].

ويتابع سبحانه في نفس الآية:

﴿ يُغْشِي[(٢)] اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾[(٣)].

أي: أن تأتي الظُّلْمـة على النهار فـتُغطيـه؛ وهو القائل في مـوقع آخر من القرآن:

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[(٤)].

وذلك تحقيقًا لمشيئته التي قالها:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً[(٥)] ﴾[(٦)].

وإنْ سأل سائل: هل الليل هو الذي خُلِقَ أولاً أم النهار؟

أقول: نحن نرى الآن الليل والنهـار، كُلٌّ منهما يُؤدِّي مُهِمَّـته في نصف ما في الكرة الأرضيـة، وكل منهما يخلف الآخر، ولابد أن الأمـر كذلك من أول الخلق.

فإنْ كان سبحـانه قد أوجد الأرض مبسوطة وفي مواجهـتها الشمس، لَكان النهار هو الأسبق في الخَلْق، وإنْ كـان قد خلق الشمس غير مـواجهة للأرض؛ يكون الليل هو الذي سبق النهار في الخَلْق.

ويوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً في سورة يس حين يقول:

---

(١) سورة يس: ٣٦.

(٢) أي: يجعل الليل يَغْشَى النهار ويغطيه بظلامه.

(٣) سورة الرعد: ٣.

(٤) سورة الإسراء: ١٢.

(٥) الخلفة: اسم مصدر بمعنى الاختلاف.

(٦) سورة الفرقان: ٦٢.

﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[١].

وكان العرب قديمًا يظنُّون أن الليل هو الذي سبق النهار في الخَلْق؛ لأنهم كانوا يُؤرِّخون الشهور بالقمر؛ فيدخل الشهر بليله لا بنهاره، ونحن نعلم أن رمضان يأتينا بأول ليلة فيه.

وقد أوضح الحق سبحانه لهم على قَدْر معارفهم، ثم ثبت لنا أن الليل والنهار قد وُجِدا في وقت واحد بعد أن وضحتْ لنا أن صورة الأرض كروية، وأنه سبحانه قد خلقها كذلك، فما واجه الشمس كان نهاراً؛ وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً، ويخلف كل منهما الآخر.

وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان في آنٍ واحد.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢].

أي: أن على الإنسان مسئولية التفكُّر فيما يراه من حوله ليصل إلى لُبِّ الحقائق.

وقال تعالى: ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ[٣] وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٤].

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض قد خُلِقت على مراحل، ويشرح ذلك قوله سبحانه:

---

(١) سورة يس: ٤٠.

(٢) سورة الرعد: ٣.

(٣) ماد يميد: تحرك واهتز. ومادت الأرض: اضطربت وزلزلت.

(٤) سورة النحل: ١٥.

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً[١] ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾[٢].

وهكذا عَلِمنا أن جِرْم الأرض العام قد خُلِق أولاً؛ وهو مخلوق على هيئة الحركة؛ ولأن الحركة هي التي تأتي بالمَيدان - التأرجُح يمينًا وشمالاً - وعدم استقرار الجِرْم على وَضْع، لذلك شاء سبحانه أن يخلق الأرض الرواسي لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة، والرَّاسي هو الذي يَثبت.

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله الجبال، ولكنه خلقَ الأرض على هيئة الحركة، ومنع أنْ تميد بخَلْق الجبال ليجعلَ الجبال رواسيَ للأرض.

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾[٣].

وكلمة ﴿أَلْقَى﴾ تدلُّ على أن الجبال شيء متماسك وُضِع ليستقر.

ثم يعطف سبحانه على الجبال:

﴿ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً ﴾[٤].

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بفعل يناسب الأنهار، ومن العجيب أن الأسلوب يجمع جماداً في الجبال، وسيولة في الأنهار، وسبلاً أي طرقًا، وكُلُّ ذلك:

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٥].

---

(١) الأنداد: جمع نِد. وهو الضد والشبيه.

(٢) سورة فصلت: ٩، ١٠.

(٣) سورة النمل: ٨٨.

(٤) سورة النحل: ١٥.

(٥) سورة النحل: ١٥.

أي: إن الجَعْل كلّه لعلنا نهتدى.

ونعلم أن العرب كانوا يهتدون بالجبـال، ويجعلون منها علامات، والمثَل هو جبل «هرشا» الذي يقول فيه الشاعر:

خُذُوا بَطْن هرشا أو قَفَاهَا فإنَّهُ ... كِلاَ جَانِبي هرشا لَهُنّ طَرِيقُ

وأيضًا جبل التوباد كان يُعتبر علامة.

وكذلك قَوْل الحق سبحانه:

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ﴾ [١].

وهكذا نجد من ضمن فوائد الجبال أنهـا علاماتٌ نهتدي بها إلى الطرق وإلى الأماكن، وتلك من المهام الجانبية للجبال.

أو:

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [٢].

باتعاظكم بالأشياء المخلوقة لكم، كي تهتدوا لِمَنْ أوجدها لكم.

* * *

(١) سورة مريم: ٥٢.

(٢) سورة النحل: ١٥.

الإعجاز العلمي وإشارات إلى حكمة خلق الجبال

قال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا[1] وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ[2] تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[3].

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن أصحاب البيوت الذين يناسبهم الاستقرار، ويجدون مُقوّمات الحياة، وتكلم عن أهل الترحال والتنقُّل وما يناسبهم من بيوت خفيفة يحملونها عند ترحالهم. ثم تحدث هنا عن هؤلاء الذين لا يملكون شيئًا، ولا حتى جلود الأنعام.. ماذا يفعل هؤلاء؟

الحق سبحانه جعل لهم الظل يستظِلّون به من وهج الشمس، وجعل لهم من الكهوف والسراديب في الجبال ما يأوون إليه ويسكنون فيه. وهكذا استوعبتِ الآيات جميع الحالات التي يمكن أن يكون عليها بشر، فقد نثر الحق سبحانه نعمه على الناس، بحيث يأخذ كل واحد منهم ما يناسبه من نعم الله.

أما مَنْ لا يملك بيتًا يأويه، وليس عنده من الأنعام ما يتخذ من جلودها بيتًا، فقد جعل الله له الأشجار يستظل بها من حَرِّ الشمس، وجعل له كهوف الجبال تُكِنّه وتأويه.

ونلاحظ هنا أن الآية ذكرت الظل الذي يقينا حَرَّ الشمس، ولم تذكر مثلاً البرد؛ ذلك لأن القرآن الكريم نزل بجزيرة العرب وهي بلاد حارة، وحاجتها إلى الظل أكثر من حاجتها إلى الدِّفء.

---

(١) الكِنُّ: ما يُصان أو يستتر فيه الشيء والبيوت أكنان لأصحابها.

(٢) السربال: القميص يقي الحر والبرد.

(٣) سورة النحل: ٨١.

وقوله: ﴿ظِلالاً﴾[1].

الظلال جمع ظل، وهو الواقي من الشمس ومن إشعاعاتها، وقد يُوصَف الظل بأنه ظِل ظليل.. أي: الظل نفسه مُظلل، وهذا ما نراه في صناعة الخيام مثلاً، حيث يجعلون لها سقفًا من طبقة واحدة تتلقّى حرارة الشمس، وإنْ حجبت أشعة الشمس فلا تحجب الحرارة، وهنا يلجأون إلى جَعْل السقف من طبقتين بينهما مسافة لتقليل حرارة الشمس.

وهنا نقول: إن الظلّ نفسه مُظلّل، وكذلك الحال في ظل الأشجار حيث يظلّل الورق بعضه بعضًا، فتشعر تحت ظِلّ الأشجار بجوٍّ لطيف بارد حيث يغطيك ظِلٌّ ظليل يحجب عنك ضوء الشمس، ويسمح بمرور الهواء فلا تشعر بالضيق.

لذلك فالشاعر يقول في وصف روضة:

وَقَانَا لَفْحةَ الرمْضَاء وَادٍ ... سَقَاهُ مضاعف الغيْثِ العَمِيمِ

يَصُدُّ الشمسَ أنَّى وَاجهتْنا ... فيحجُبها ويأذنُ للنسيمِ

وهكذا الأشجار تحجب عنا الضارّ، وتسمح بالنافع.

وقوله: ﴿أَكْنَاناً﴾[2].

جمع كِنّ، وهو الكهف أو المغارة في الجبل تكون سكنًا وساترًا لمن يلجأ إليها ويحتمى بها، والكِنّ من الستر؛ لأنها تستر الناس ونحن نقول مثلاً للولد: أنكنْ يعني: اسكُنْ وانستر.

ويقول تعالى:

---

(١) سورة النحل: ٨١.

(٢) سورة النحل: ٨١.

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾(١).

السرابيل: هى ما يُلبس من الثياب أو الدروع.

﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾(٢).

أي: تحميكم من الحر.. فقال هنا الحر أيضًا؛ لذلك وجدنا بعض العلماء يحاول أن يجد مخرجًا لهذه الآية فقال: المعنى تقيكم الحر وتقيكم البرد، ففي الآية اكتفاءٌ بالحر عن البرد؛ لأن الشيء إذا جاء يأتي مقابله.. فليس بالضرورة ذكر الحالتين؛ فإحداهما تعني الأخرى.

هذا دفاع مشكور منهم، ومعنى مقبول حول هذه الآية.. لكن لو فَطنَّا إلى باقي الآيات التي تحدثت في هذا الموضوع لوجدناها واحدة تتكلم عن الحر، وهى هذه الآية، وأخرى تتكلّم عن البرد في قوله تعالى:

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾(٣).

أي: من جلود الأنعام وأصوافها نتخذ ما يقينا البرد، وما نستدفيء به.. وهكذا تتكامل الآيات وينسجم المعنى.

والمتأمل في تدفئة الإنسان يجد أن ما يرتديه من ملبوسات لا يعطى للإنسان حرارة تُدفئه، بل تحفظ للإنسان حرارة جسمه فقط، فحرارة الإنسان ذاتية من داخله، وبهذه الحرارة يحفظ الخالق سبحانه الإنسان.

والأطباء يقولون: إن الجسم السليم حرارته ٣٧° لا تختلف إن عاش عند خط الاستواء أو عاش في بلاد الاسكيمو في القطب الشمالي، فهذه هى الحرارة العامة للجسم.

(١) سورة النحل: ٨١.

(٢) سورة النحل: ٨١.

(٣) سورة النحل: ٥.

في حين أن أجهزة الجسم المختلفة ربما اختلفتْ درجة حرارتها، كُلٌّ حَسب ما يناسبه: فالكبد مثلاً درجة حرارته ٤٠°، وتختلّ وظيفته إذا نقصت عن هذه الدرجة، في حين أن درجة حرارة جَفْن العين مثلاً ٩°، ولو ارتفعت درجة حرارتها تذوب حبّة العين، ويفقد الإنسان البصر.. فسبحان الله الذي حفظ حرارة هذه الأعضاء في الجسم لا يطغى أحدها على الآخر.

لذلك حينما سافرنا إلى أمريكا، وفي إحدى مناطق البرودة الشديدة كانت أول نصائحهم لنا ألاّ نمسك آذاننا بأيدينا.. لماذا؟ قالوا: لأن درجة حرارة اليد أقلّ من درجة حرارة الأذن، ووَضْع اليد الباردة على الأذن قد تُسبِّب كثيراً من الأضرار.

إذن: كل ما نستخدمه من ملابس وأغطية تقينا برد الشتاء لا تعطينا حرارة، بل تحفظ علينا حرارتنا الطبيعية فلا تتسرب، وبذلك تتم التدفئة.. وتستطيع أنْ تضعَ يدك على فراشك قبل أن تنام فسوف تجده بارداً، أما في الصباح فتجده دافئًا.. فالفراش اكتسب الحرارة من حرارة جسمك، وليس العكس.

وقوله:

﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾[1].

البأس هنا: أي الحرب، والسرابيل التي تقي من البأس هى الدروع التي يلبسها الجنود في الحر لتقيهم الضربات.

ولكن هذه الآية في سياق الحديث عن بعض نِعَم الله علينا في الاستقرار والسكن وما جعله لنا من بيوت وظلال.. حياة دَعَة وسلام ونعمة، فما الداعي لذكر الحرب هنا؟

ذلك لأن الحياةَ لها منطق سلامة للجميع، فإن اختلّ منطق السلامة فعلى

---

(١) سورة النحل: ٨١.

الناس أنْ يقفوا في وجـه مَنْ يُخِلّ بسلامة المجتمع. . وأن يكون على اسـتعداد لذلك في كل وقت، لابُدّ في وقت السِّلْم أنْ نَعُدَّ العُـدّة للحرب؛ لذلك تحدث عن الحرب وعُدتها، وهو يتحدث عن السكون والاستقرار والنعمة.

والحق سبحانه وتعالى حين يُنزِل الآيات البـينات التي تحمل لنا منهج السماء يقول:

﴿ لَقَـدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَـا بِالْبَـيِّنَاتِ وَأَنزَلْنا مَـعَهُـمُ الْكِتَابَ وَالْمِـيـزَانَ لِيَقُـومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(١).

هذا هو المنهج الذي يعتمد على الحجة والإقناع. . فإن لم يصلح هذا المنهج لبعض الناس وتمردوا عليه أتى إذن دور القوة والقهر، يقول تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾(٢).

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾(٣).

كأن من تمام نـعمة الله أنْ نحـفظها ممنْ يُفـسدها علينا، ونقف لـه بالمرصاد ونضرب على يده؛ لأنه لو تركنا هؤلاء المفسـدين في مجتمعنا فـسوف يفُسِدون علينا هذه النِّعم، وسنظل مُهددّين، لا نشعر بلذة الحياة ومُتعِها.

إذن: لا تتم النعمة إلا بحفظ السلامة العامة للمجتمع.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾(٤).

تُسلِمـون: أي تُلْقون زمام الاستسـلام إلى الله الذي أسلمتَ له، وأنت لا تُلقى زمامك إلا لمنْ تثق فيـه. . والإنسان قد يُلقى زمامه في أمـر لا يجيده إلى

---

(١) سورة الحديد: ٢٥.
(٢) سورة الحديد: ٢٥.
(٣) سورة النحل: ٨١.
(٤) سورة النحل: ٨١.

إنسان مثله يُجيد هذا الأمر، فإذا كنتَ في حاجات نفسك تُلقى زمامك لمن هو مثلك، ويساويك في قِلّة المعلومات، ويساويك في قِلّة الحكمة، ومع ذلك تُسلِم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئًا لا تجيده أنت، أفلا تُلقى زمامك وتُسلِم أمرك إلى ربك وخالقك، وخالق كُلّ هذه النعم من أجلك؟

إذن: جاء ذِكْر هذه النعم، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه حتى نُسلمَ عن يقين واقتناع، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة في طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، إنْ أطعناه فلن نزيد في مُلكِه سبحانه، وإنْ عصيناه فلن ننقصَ من مُلكه سبحانه.

إذن: تسليمنا الأمر والزمام لله من مصلحتنا نحن.. فالإنسان حينما يُسلم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تَلْوى رأيه في المسألة، إنما ربُّنا سبحانه حينما يُوجِّه إلينا حُكْمًا فليس له مصلحة فيه فلا يُلْوَى، لا يكون إلاّ لصالحك.

وبعد أنْ عدّد هذه النعم في الذات والمحيطات وفي السكن وفي الانطباعات. قال: إياك بعد ذلك أنْ تُسلِمَ زمامك لغيري، وإنْ أجريتُ عليك ما يُخرجك عن نفع السلامة؛ لأنني لا أجرى عليك ما يُخرجك عن نفس السلامة إلا لغرض أسلم منه.

لذلك نقول: لا عبادة كالتسليم؛ لأن التسليم لحُكْمِه تسليمٌ لحكيم، تسليمٌ لغير منتفع.. وما دُمْتَ قد سلمْتَ زمامك لربك - عز وجل - يُجلِّى لك الحكمة فيما جرى لك من الأحداث لتعلمَ رضاك عن حُكْمه لحكمته، فتقول: أنا رضيتُ بحكمك يا رب.

ولذلك نقول في الدعاء: أحمدك على كُلِّ قضائك، وجميع قَدرِك حَمْد الرِّضا بحكمك لليقين بحكمتك.

أي: لك حكمة يا رب فيما أجريتَ عليَّ من أحداث، ولكني لا أراها.

والذي يعلم مكانة التسليم لله تعالى فيما يُجرى عليه من أحداث وما يقع به من بلاء لا يضجر ولا يسخط؛ لأنه بذلك يُطيل على نفسه أمدَ القضاء؛ لأن الله لا يرفع قضاءه عن عبده حتى يرضى به، فالله تعالى لا مُجبر له.

فإن أردت رَفْع القضاء فـارْضَ به أولاً، وإذا لم يرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضا من نفسك لم يكُنْ مقبولاً، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطًا ضَجِراً.

فـالذي يُسلِم زَمامـه إلى الله ويردّ كل حـدث وقع أو بلاء نزل به يردُّه إلى الله، وإلى حكمـة مُجريه، الله تعـالى يقول له: لقـد فهـمتَ عني، ويرفع عنه البلاء.

وفي مقام التسليم لله دائمًا نذكر قصـة سيدنا إبراهيم حينمـا أمر ربه بذبح ولده إسماعيل - عليهما السلام - وهل هناك بلاء أكثر من أن يُبتلَى الرجل بذبح ولده الذي رُزِقه على كِبَر، ويذبحه هو بيده.

إنه ابتلاء من مراتب مُتعدِّدة، ومن نَواح مختلفة، وليْتَ الأمر بوحي ظاهر، ولكنه بمنام كان يستطيع أن يتأوّل فيه، ولكن رؤيا الأنبياء حق.

ونرى إبراهيم - عليـه السلام - يقـصُّ على ولده المسألة حِـرْصًا عليـه أنْ يتحولّ قلبه عن أبيـه ساعةَ يأخذه ليذبحه، وأيضًـا لكي يشاركه ولده في الرضا بقدر الله، ولا يحرم ثواب هذا الابتلاء.. فقال له:

﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾(١).

فليس الغرض هنا أنْ يزعجه أو يُخيفه، ولـكن ليقول له: هذه مسألة تعبدية أمرنا بها الخالق سبحانه ليكون على بصيرة هو أيضًا، ولا يتغير قلبه على أبيه.

---

(١) سورة الصافات: ١٠٢.

ولذلك كان الولد حكيمًا في الرد، فقال:

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[١].

ما دام الأمر من الله فافعل، وهكذا سلّمَ إسماعيلُ كما سلَّم إبراهيم، فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ[٢] لِلْجَبِينِ﴾[٣].

أسلما: أي الأب والابن، ورَضيا بقضاء الله، جاء الفرج ورُفِع القضاء، فقد فهم كل منهما الأمر عن الله، فلم يرفع القضاء وفقط، بل وفديناه بذبح عظيم، ليس هذا وفقط، بل ومنّنا عليه بولد آخر:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾[٤].

إذن: لعلكم تُسلِمون زمامكم إلى الله، وتعلمون أنه خلق لكم الكون قبل أن يُوجِدكم فيه، وأمدّكم بكل متطلبات الحياة ضمانًا لبقاء حياتكم، وضمانًا لبقاء نوعكم، ومتَّعكم هذه المتع.

فالذي أنعم عليكم بهذا كله عن غير حاجة له عندكم جديرٌ أنْ تُسلِموا له زمام أمركم وتُسلموا له.

* * *

(١) سورة الصافات: ١٠٢.

(٢) تله: ألقاه على عنقه.

(٣) سورة الصافات: ١٠٣.

(٤) سورة الصافات: ١١٢.

مسألة نسف الجبال يوم القيامة

وقال تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾[١].

تكلمنا عن ﴿يسألونك﴾ في قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾[٢].

والسؤال استفهام يعني: طلب فَهْم يحتاج إلى جواب، والسؤال إما أن يكون من جاهل لعالم، كالتلميذ يسأل أستاذه ليعلم الجواب، أو: من عالم لجاهل، كالأستاذ يسأل تلميذه ليعرف مكانته من العلم وإقراره بما يعلم.

وهذه المسألة حلَّتْ لنا إشكالاً كان المستشرقون يُوغلون فيه، يقولون: بينما الحق - تبارك وتعالى - يقول: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾[٣]. يقول في آية أخرى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[٤]. فالأولى تنفي السؤال، والثانية تُثبته؛ لذلك اتهموا القرآن بالتضارب بين آياته.

وهؤلاء معذورون، فليست لديهم المَلَكَة العربية لفَهْم الأداء القرآني، وبيان هذا الإشكال أن السؤال يردُ في اللغة إمَّا لتعلمَ ما جهلتَ، وإما لتقرير المجيب بما تعلم أنت ليكون حجة عليه.

فالحق سبحانه حين يقول: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[٥]. أي: سؤالَ

---

(١) سورة طه: ١٠٥.

(٢) سورة البقرة: ٢١٩.

(٣) سورة الرحمن: ٣٩.

(٤) سورة الصافات: ٢٤.

(٥) سورة الصافات: ٢٤.

إقرار، لا سؤال استفهام، فحين ينفي السؤال ينفي سؤال العلم من جهة المتكلم، وحين يثبت السؤال فهو سؤال التقرير.

والحدث مرة يُنفَى، ومرة يُثبت، لكن جهة النفي مُنفكّة عن جهة الإثبات، فمثلاً الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾[١].

فنفى الرمي في الأولى، وأثبته في الثانية، والحدث واحد، والمثبَت له والمنفيّ عنه واحد هو محمد ﷺ ، فكيف نخرج من هذا الإشكال؟ أرمَى الرسول أم لم يَرْمِ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً بالأب الذي جلس بجوار ولده كي يذاكر دروسه، فأخذ الولد يذاكر، ويُقلّب صفحات الكتاب، وحين أراد الأب اختبار مدى ما حصَّل من معلومات لم يجد عنده شيئًا، فقال للولد: ذاكرت وما ذاكرت. ذاكرت يعني: فعلت فِعْل المذاكر، وما ذاكرت لأنك لم تُحصِّل شيئًا.

فرسول الله ﷺ حينما رمى، أيمكنه أنْ يُوصل هذه الرمية إلى أعين الجيش كله؟ إذن: فرسول الله أخذ قبضة من التراب ورمى بها ناحية الجيش، إنما قدرة الله هى التي أوصلتْ حفنة التراب هذه وذَرَّتْها في أعينِ الأعداء جميعًا.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[٢]. فنفتْ عنهم العلم، وفي آية أخرى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[٣]. فأثبتتْ لهم عِلْمًا.

نعود إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾[٤]. وحينما استعرضنا ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في القرآن الكريم وجدنا جوابها مسبوقًا بـ (قُلْ) كما في قوله

---

(١) سورة الأنفال: ١٧.

(٢) سورة الجاثية: ٢٦.

(٣) سورة الروم: ٧.

(٤) سورة طه: ١٠٥.

تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ(٢) قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(٣). وهكذا في كل الآيات، ما عدا قوله تعالى هنا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾(٤). فاقترن الفعل ﴿قُلْ﴾ بالفاء، لماذا؟

قالوا: لأن السؤال في كُلِّ هذه الآيات سؤال عن شيء وقع بالفعل، فكان الجواب بقُلْ. مثل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾(٥). أما ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ﴾(٦). قال في الجواب ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾(٧)؛ لأنه حَدَثٌ لم يقع بَعْدُ.

والحق - سبحانه وتعالى - يُخبر رسوله ﷺ أنه سيُسأل هذا السؤال، فكأن الفاء هنا دلَّتْ على شرط مُقدّر، بمعنى: إنْ سألوك بالفعل فقُلْ: كذا وكذا.

إذن: السؤال عن الجبال لم يكُنْ وقت نزول الآية، أمَّا الأسئلة الأخرى فكانت موجودة، وسُئِلت لرسول الله قبل نزول آياتها.

وقد تأتي إجابة السؤال بدون ﴿قُلْ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(٨). ولم يقُلْ هنا (قُلْ أو فَقُلْ) لأنها تدلُّ على

(١) سورة البقرة: ٢١٩.
(٢) الأهلة: جمع هلال. والهلال: القمر في أول ظهوره.
(٣) سورة البقرة: ١٨٩.
(٤) سورة طه: ١٠٥.
(٥) سورة البقرة: ٢٢٢.
(٦) سورة طه: ١٠٥.
(٧) سورة طه: ١٠٥.
(٨) سورة البقرة: ١٨٦.

الواسطة بين الله تعالى وبين عباده، وكأن الحق سبحانه يُوضّح أنه قريب من عباده حتى عن الجواب بقُلْ.

وقد تتعجب: كيف تأتي في القرآن كل هذه الأسئلة لرسول الله مع أن القرآن كتاب منهج جاء بتكاليف قد تشقُّ على الناس؛ لأنه يلزمهم بأمور تخالف ما يشتهون، فكان المفروض ألاَّ يسألوا عن الأمور التي لم ينزل فيها حكم.

نقول: دلَّتْ أسئلتهم هذه على عِشْقهم لأحكام الله وتكاليفه، فالأشياء التي كانت عاداتٍ لهم في الجاهلية يريدون الآن أنْ يُؤدُّوها على طريقة الإسلام على أنها عبادة، لا مجرد عادة جاهلية.

مع أن النبي ﷺ نهاهم عن السؤال فقال: **«دعوني ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»**[(١)].

ومع ذلك سألوا وأرادوا أنْ تُبنَى حياتهم على منهج القرآن من الله، لا على أنه إِلْف عادة كانت لهم في الجاهلية، إذن: هذه الأسئلة ترسيمٌ للأمر من جانب الحق سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾[(٢)]. تكلمنا عن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾[(٣)]. فالمراد: نُفتِّتها ونذروها في الهواء، وأكَّد النسف، فقال ﴿نَسْفاً﴾. ليؤكد أن الجبل سيتفتت إلى ذرات صغيرة يذروها الهواء.

فقد يتصورَّ البعض أنْ الجبال تُهَدُّ، وتتحول إلى كُتَل صخرية كما نُفجِّر

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٨٨)، وأحمد في مسنده (٢/٣١٣، ٤٨٢، ٤٩٥)، ومسلم في صحيحه (١٣٣٧).

(٢) سورة طه: ١٠٥.

(٣) سورة طه: ٩٧.

نحن الصخور الآن إلى قطع كبيرة؛ لذلك أكّد على النسف، وأن الجبال ستكون ذرات تتطاير؛ لذلك قال في آية أخرى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾[1]. أي: كالصوف المندوف.

لكن، لماذا ذكر الجبال بالذات؟

قالوا: لأن الإنسان يرى أنه ابْنُ أغيار في ذاته، وابن أغيار فيما حوله ممَّا يخدمه من حيوان أو نبات، فيرى الحيوان يموت أو يُذبح، ويرى النبات يذبل ثم يجفّ ويتفتّت، والإنسان نفسه يموت وينتهي.

إذن: كل ما يراه حوله بيِّن فيه التغيير والانتهاء إلا الجبال يراها راسية ثابتة، لا يلحقها تغيير ظاهر على مرِّ العصور.

لذلك يُضرب بها المثل في الثبات، كما في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[2].

فالجبال مظهر للثبات، فقد يتساءل الإنسان عن هذا الخلق الثابت المستقر، ماذا سيفعل الله به؟ فأجابت الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿لاَ تَرَى فيهَا عوجاً ولاَ أَمْتاً﴾[3].

أي: كأنها مُستوية على «ميزان الماء» لا ترى فيها اعوجاجًا ولا ﴿أمْتًا﴾ يعني: منخفض ومرتفع، فهي مستوية استواءً تامًّا، كما نفعل نحن في الجدار، ونحرص على استوائه.

لذلك نرى المهندس إذا أراد استلام مبنى من المقاول يعتمد إما على شعاع

---

(١) سورة القارعة: ٥.

(٢) سورة إبراهيم: ٤٦.

(٣) سورة طه: ١٠٧.

الضوء؛ لأنه مستقيم ويكشف له أدنى عَيْب فـي الجدار أو على ذرات التراب؛ لأنها تسقط على استقامتـها، وبعد عدة أيام تستطيع أن تلاحظ من ذرات التراب ما في الجدار من التواءات أو نتوءات.

*   *   *

الإعجاز العلمي والسبل في الأرض

قال تعالى:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾[(١)].

مَهْداً: من التمهيد وتوطئة الشيء ليكون صالحًا لمهمته، كما تفعل في فراشك قبل أن تنام، ومن ذلك يسمى فراش الطفل مَهْدًا، لأنك تُمهِّده له وتُسوِّيه، وتزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقر في مَهْده ويستريح.

ولابُدَّ لك أنْ تقوم له بهذه المهمة؛ لأنه يعيش بغريزتك أنت، إلا أن تتنبه غرائزه لمثل هذه الأمور، فيقوم بها بنفسه؛ لذلك لزمك في هذه الفترة رعايته وتربيته والعناية به.

فمعنى ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً ﴾[(٢)]. أي: سوَّاها ومهَّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها.

وليس معنى مهّدها جعلها مستوية، إنما سوّاها لمهمتها، وإلا ففي الأرض جبال ومرتفعات ووديان، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها، فتسويتها تقتضي إصلاحها للعيش عليها، سواء بالاستواء أو التعرّج أو الارتفاع أو الانخفاض.

فمثلاً في الأرض المستوية نجد الطرق مستوية ومستقيمة، أما في المناطق الجبلية فهي مُتعرّجة مُلتوية؛ لأنها لا تكون إلا كذلك، ولها ميزة في التوائها أنك لا تواجه الشمس لفترة طويلة، بل تراوح بين مواجهة الشمس مرة والظل أخرى.

---

(١) سورة طه: ٥٣.

(٢) سورة طه: ٥٣.

وسبق أن ضربنا مثلاً بالخطّاف الذي نصنعه من الحديد، فلو جعلناه مستقيمًا ما أدَّى مهمته، إذن، فاستقامته في كَوْنه مُعْوجًا فتقول: سويته ليؤدي مهمته، ولو كان مستقيمًا ما جذب الشيء المراد جَذْبه به.

إذن: نقول التسوية: جَعْل الشيء صالحًا لمهمته، سواء أكان بالاعتدال أو الاعوجاج، سواء أكان بالأَمْت[1] أو بالاستقامة.

ثم يقول تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾[2]. أي: طرقًا ممهدة تُوصّلكم إلى مهماتكم بسهولة.

سلك: بمعنى دخل، وتأتي متعدية، تقول: سلك فلان الطريق. وقال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ[3]﴾[4]. فالمخاطبون مسلوكون في سقر يعني: داخلون، وقال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾[5] أي: أَدْخِلْها.

فتعديها إلى المفعول الداخل أو للمدخول فيه، فقوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾[6]. متعدية للمدخول فيه أي: عديت المخاطب إلى المدخول فيه، فأنتم دخلتم، والسُّبل مدخول فيه. إذن: المفعول مرة يكون المسلوك، ومرة يكون المسلوك فيه.

وحينما تسير في الطرق الصحراوية تجدها مختلفة على قَدْر طاقة السير فيها، فمنها الضّيق على قَدْر القدم للشخص الواحد، ومنها المتسع الذي تسير فيه الجمال المحمّلة أو السيارات، فسلك لكم طرقًا مختلفةً ومتنوعة على قَدْر المهمة التي تؤدونها.

---

(١) الأَمْت: الاختلاف في المكان ارتفاعًا وانخفاضًا.

(٢) سورة طه: ٥٣.

(٣) سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح.

(٤) سورة المدثر: ٤٢.

(٥) سورة القصص: ٣٢.

(٦) سورة طه: ٥٣.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾(١).

وهذه أيضًا من مسألة الخَلْق التي لا يدعيـها أحد؛ لأنها دَعْوى مردودة على مدعـيها، فـأنت يا مَنْ تدّعى الألوهية أخرجْ لـنا شيئًـا من ذلك، أرِنَا نوعًا من النبات فلن يقدر، وبذلك لزمتْه الحجة.

كما أن إنزال الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه، لكن عندما يخرج النبات قد يكون لنا عمل مثل الحَرْث والبَذْر والسَّقْى وخـلافه، لكن هذا العمل مستمد من الأسـباب التي خلقـها الله لك؛ لذلك لما تكلم عن المـاء قال ﴿أَنْزَلَ﴾ فلا دَخْل لأحد فيه، ولما تكلـم عن إخراج النبات قال ﴿أَخْرَجْنَا﴾ لأنه تتكاتف فيه صفات كثيـرة، تساعد في عملية إخراجه، وكأن الحق ـ تبـارك وتعالى ـ يحترم عملك السَّببي ويُقدِّره.

اقـرأ قـوله تعـالى: ﴿ أَفَـرَأَيْتُم مَّـا تَحْـرُثُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَزْرَعُـونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾(٢). فأثبت لهم عمـلاً، واحترم مجهـودهم، إنما لما حرثتم من أين لكم بالبذور؟ فإذا ما تتبعت سِلْسلة البـذور القبلية لانتهتْ بك إلى نبات لا قَبْلَ له. كمـا لو تتبعتَ سلسلة الإنـسان لوجدتهـا تنتهي إلى أب، لا أب له إلا مَنْ خلقه.

وأنت بعد أن ألـقيتَ البذرة في الأرض وسـقيـتْهـا، أَلَكَ حيلة في إنبـاتها ونُموها يومًا بعد يوم؟ أأمسكْتَ بها وجذبْتها لتنمو؟ أم أنها قدرة القادر ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾(٣).

(١) سورة طه: ٥٣.

(٢) سورة الواقعة: ٦٣، ٦٤.

(٣) سورة الأعلى ٢، ٣.

لذلك يقول تعالى بعدها: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾[١]، فإنْ كانت هذه صنعتكم فحافظوا عليها.

كما حدث مع قارون حينما قال عن نعمة الله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[٢].

فما دام الأمر كذلك فحافظ عليه يا قارون بما عندك من العلم، فلما خسف الله به وبداره الأرض دَلَّ ذلك على كذبه في مقولته.

ونلحظ في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾[٣]. أنه مؤكد باللام، لماذا؟ لأن لك شبهة عمل في مسألة الزرع، قد تُطمِعك وتجعلك مُتردّدًا في القبول.

إنما حينما تكلم عن الماء قال:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[٤].

هكذا بدون توكيد؛ لأنها مسألة لا يدَّعيها أحد لنفسه.

وقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[٥]. لم يقل: نباتًا فقط. بل أزواجًا؛ لأن الله تعالى يريد أن تتكاثر الأشياء، والتكاثر لابُدَّ له من زوجين: ذكر وأنثى. وكما أن الإنسان يتكاثر، كذلك باقي المخلوقات؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها، ولابُدَّ لهذه الأقوات أن تكفي كل مَنْ يعيش على هذه الأرض.

فإذا ضاقت الأرض، ولم تُخرِج ما يكفينا، وجاع الناس، فلنعلم أن

---

(١) سورة الواقعة: ٦٥.

(٢) سورة الزمر: ٤٩.

(٣) سورة الواقعة: ٦٥.

(٤) سورة الواقعة: ٦٨-٧٠.

(٥) سورة طه: ٥٣.

التقصير منّا نحن البشر في استصلاح الأرض وزراعتها؛ لذلك حينما حدث عندنا ضيق في الغذاء خرجنا إلى الصحراء نستصلحها، وقد بدأت الآن تُؤتى ثمارها ونرى خيرها، والآن عرفنا أننا كنا في غفلة طوال المدة السابقة، فتكاثرنا ولم نُكثِّر ما حولنا من الرقعة الزراعية.

والذكر والأنثى ليسا في النبات فحسب، بل في كل ما خلق الله:
﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[1].

فالزوجية في كل شيء، علِمته أو لم تعلمه، حتى في الجمادات، هناك السالب والموجب والالكترونات والأيونات في الذرة، وهكذا كلما تكاثر البشر تكاثر العطاء.

وقوله تعالى: ﴿من نبات شتى﴾[2]. شتى مثل: مرضى جمع مريض فشتى جمع شتيت. يعني أشياء كثيرة مختلفة ومتفرقة، ليست في الأنواع فقط، بل في النوع الواحد هناك اختلاف.

فلو ذهبت مثلاً إلى سوق التمور في مدينة رسول الله ﷺ تجد أنواعًا كثيرة، مختلفة الأشكال والطُّعوم والأحجام، كلها تحت مُسمّى واحد هو: التمر. وهكذا لو تأملتَ باقي الأنواع من المزروعات.

---

(١) سورة يس: ٣٦.

(٢) سورة طه: ٥٣.

الإعجاز العلمي في مكونات الإنسان

إذا أردنا أن نبدأ بالأدلة المادية فلابد أن نبدأ بالخلْق.. ذلك الدليل الذي نراه جميعًا أمام أعيننا ليلاً ونهاراً.. ونلمسه لأننا نعيشه.. فالبداية هى أن هذا الكون بكل ما فيه قد وُجد أولاً قبل أن يُخلَق الإنسان.. وتلك قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها.. فلا أحد يستطيع أن يقول إن خَلْق السموات والأرض تمّ بعد خلق الإنسان.. بمعنى أن الإنسان جاء ولم تكن هناك أرض يعيش عليها.. ولا شمس تشرق.. ولا ليل ونهار.. ولا هواء يتنفسه.. بل إن الإنسان جاء وكل شيء قد أعد له قبل أن يأتي وقبل أن يوجد، وليس فقط أن كل شيء قد أعد له.. بل إن هناك أشياء أكبر من قدرة الإنسان خلقت وسخرت لتخدمه وتعطيه كل متطلبات الحياة بدون مقابل.. وأشياء أخرى خُلقت وسخِّرت للإنسان تعطيه ما يشاء ولكنها محتاجة إلى جهد الإنسان وعمله، وذلك حتى تتم عمارة الأرض.

إذن فباستخدام العقل وحده لا أحد يستطيع أن يجادل أن هذا الكون قد خُلق وأعدّ لحياة الإنسان قبل أن يُخلق الإنسان نفسه.. فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وقال لنا:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١).

لا يستطيع أحد أن يجادل عقليًا في هذه القضية.. لأن الكون تم خلقه قبل خلق الإنسان.. فكيف يكون للإنسان عمل قبل أن يوجد ويخلق.. وتأتي الآية الكريمة:

---

(١) سورة البقرة: ٢٩.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[١].

نقول إن هذا يؤكد الحقيقة بأن الكون أعد للإنسان قبل أن يخلق.. وهذه قضية يؤكدها العقل.. ولا يستطيع أن يجادل فيها.

نكون بذلك قد وصلنا إلى النقطة الأولى، وهى أن الله سبحانه وتعالى بكمال صفاته وقدراته قد خلق هذا الكون وأوجده ونظمه غير مستعين بأحد من خلقه.. ولا محتاج لأحد من عباده.. وأننا نحن جميعًا - أي البشر - قد جئنا إلى كون معد لنا إعداداً كاملاً.

ولكن قدرة هذا الكون لا تخضع لنا ولا لقدراتنا. بل هى أكبر من هذه القدرات بكثير.. فالشمس مثلاً أقوى من قدرة البشر جميعًا.. وكذلك الأرض والبحار والجبال.. إذن فلابدّ أن تكون هذه الأشياء قد أخضعت لنا بقدرة مَن خلقها وليس بقدرتنا نحن. ذلك أنها مسخرة لنا لا تستطيع أن تعصى أمراً.. فلا الشمس تستطيع أن تشرق يومًا وتغيب يومًا حسب هواها لتعطي الدفء ووسائل استمرار الحياة لمن تريد.. وتمنعه عمن تشاء - ولا الهواء يستطيع أن يهب يومًا ويتوقف يومًا.. ولا المطر يستطيع أن يمتنع عن الأرض فتنعدم الحياة ويهلك الناس.. ولا الأرض تستطيع أن تمتنع عن إنبات الزرع.. لا شيء من هذا يمكن أن يحدث.. ولا تستطيع البشرية كلها أن تدّعى أن لها دخلاً في مهمة هذا الكون.. لأن لا خلق هذه الأشياء ولا استمرارها في عطائها يخضع لإرادة البشر.

فإذا جئنا إلى الإنسان وجدناه هو الآخر لابدّ أن يشهد بأن له خالقًا وموجداً.. لا يوجد من يستطيع أن يدّعى أنه خلق إنسانًا.. ولا من يستطيع أن يدّعى أنه خلق نفسه.

إذن فقضية الخلْق محسومة لله سبحانه وتعالى لا يقبل فيها جدل عقلي..

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

فإذا جاء بعض الناس وقالوا إن هذا الكون خُلِق بالمصادفة.. نقول إن المصادفة لا تنشيء نظامًا دقيقًا كنظام الكون.. لا يَخْتَلّ رغم مرور ملايين السنين.

وإذا جاء بعض العلماء ليدّعى أنه كانت هناك ذرات ساكنة ثم تحركت وتكثفت واتحدت.. نقول من الذي أوجد هذه الذرات.. ومن الذي حركها من السكون.. وإذا قيل إن الحياة بدأت بخلية واحدة في الماء نتيجة تفاعلات كيماوية.. نقول من الذي أوجد هذه التفاعلات لتصنع هذه الخلية؟

ونحن لن ندخل مع هؤلاء في جدل عقيم.. وإنما نقول لهم إن من إعجاز الخالق.. أنه أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا.. وأنبأنا أكثر من ذلك أن هؤلاء مضلّون.. أي ليسوا على حق، ولكنهم على ضلال.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1].

وهكذا نرى من يأتي ليضلّ الناس بنظريات كاذبة عن أصل خلق السموات والأرض.. وأصل خلق الإنسان.. ومن يدّعى أن أصل الإنسان قرد.. وهى نظرية يملؤها الغباء.. فنحن لم نشهد قردًا تحول لإنسان.. وإذا كان أصل الإنسان قردًا.. فلماذا بقيت القرود على حالها حتى الآن، ولم تتحول إلى بشر.. ومن الذي منعها أن يحدث لها هذا التحول ما دام قد حدث في الماضي.. ولقد نسى هؤلاء أن الوجود لابدّ أن يكون من ذكر وأنثى وإلا انقرض النوع.. وهؤلاء لم يقولوا لنا عندما ادّعوا أن قردًا تحول إلى الإنسان.. من أين جاء القرد الذي تحول إلى امرأة ليتم التكاثر.

وبدون الدخول في جدل لا يفيد.. نقول لهؤلاء جميعًا.. لقد جئتم مثبتين

---

(١) سورة الكهف: ٥١.

للإيمان ومثبتين لكلام الله.. فلو أنه لم يأت من يضلّ بنظريات كاذبة في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان.. لقلنا إن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في القرآن الكريم.. أنه سيأتي من يضلّ في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان، ولكن لم يأت أحد يفعل ذلك.. ولكن كونهم جاءوا وكونهم أضلّوا.. يجعلنا نقول سبحان ربنا.. لقد أخبرنا عن المضلين وجاءوا فعلاً بعد قرون كثيرة من نزول القرآن.. فكأن هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا قضية الإيمان.. قد أثبتوها وأقاموا الدليل عليها.

على أننا نقول لكل من جاء يتحدث عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان مدّعيًا أن الله ليس هو الخالق.. نقول له أشهدت الخلق؟ .. فإذا قال: لا .. نسأله: ففيم تجادل؟

على أن قضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى لأنه هو وحده سبحانه الذي قال إنه خَلَقَ.. ولم يأت أحد ولن يجرؤ أحد على أن يدّعى أنه الخالق.. وإذا كان من يفعل شيئًا يحرص على الإعلان عما فعل.. حتى لا يوجد شيء صغير اخترعه البشر في الدنيا.. إلا وحرص صاحبه على الإعلان عن نفسه.

* * *

الإعجاز العلمي بين المصباح والشمس

فإذا كان ذلك الذي اخترع المصباح قد حرص على أن يعرف العالم كله اسمه وتاريخه وقصة اختراعه.. أيكون الذي أوجد الشمس غافلاً عن أن يخبرنا أنه هو الذي خلقها.. وإذا كانت هناك قوة أخرى قد أوجدت أفلا تعلن عن نفسها؟

إذن فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى.. لأنه وحده سبحانه الذي قال إنه خلق .. حتى يأتي من يدّعى الخلق.. ولن يأتي.. فإن الله سبحانه هو وحده الخالق بلا جدال.. وحتى الكفار لم يستطيعوا أن يجادلوا في هذه القضية.. ولذلك يأتي القرآن في سورة العنكبوت فيقول:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾(1).

ثم يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾(2).

وهذه الآيات نزلت في الكافرين والمشركين.. وهم رغم كفرهم وإشراكهم لم يستطيعوا أن يجادلوا في خلق الكون والإنسان.

إذن فقضية الخلق محسومة لله.. لأنه سبحانه وتعالى هو الذي خلق . الذي أخبرنا بأنه هو الذي خلق.

ولكن القضية لا تقف عند الكون وحده .. بل تمتد إلى كل ما في الدنيا

---

(١) سورة العنكبوت: ٦١.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٣.

حتى تلك الأشياء التي يقدر عليها الإنسان.. فأصل الوجود كله.. بكل ما فيه من خلق الله سبحانه وتعالى.. والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾(١).

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾(٢).

فما من شيء في هذا الوجود إلا هو خالقه.

ولنأخذ هذه القضية في كل ما حولنا.. في كل ما في هذا الكون.. لنأخذ مثلاً الخشب.. شجرة الخشب التي تعطينا كل الأخشاب التي نستعملها في بيوتنا وأثاثنا إلى غير ذلك.. هذه الشجرة من أين جاءت؟.. تسأل تاجر الخشب من أين جاءت؟.. يقول من السويد.. وتسأل أهل السويد يقولون من الغابة.. وتذهب إلى الغابة فيقولون لك من شتلات نعدها.. وتسأل من أين جاءت هذه الشتلات؟.. من جيل سابق من الأشجار.. والجيل السابق من جيل سبقه.. وتظل تمضى حتى تصل إلى الشجرة الأولى التي أخذ منها هذا كله.. من الذي أوجد الشجرة الأولى؟.. إنه الله.. فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الشجرة الأولى أو أوجدها من عدم.

فإذا انتقلنا إلى باقي أنواع الزرع لنبحث عن التفاحة الأولى والبرتقالة الأولى.. والتمرة الأولى.. وحبة القمح الأولى وشجرة القطن الأولى.. نجد أنها وغيرها من كل ما تنتجه الأرض.. كلها من خلق الله خلقًا مباشراً.. ثم بعد ذلك استمر وجودها بالأسباب التي خلقها الله في الكون.. قد يقال إن هناك

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٢.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٢.

تهجينًا وتحسينًا.. وخلطًا بين الأنواع لتنتج نوعًا أكثر جودة.. نقول إن هذا كله لا ينفى أن الثمرة الأولى مخلوقة خلقًا مباشرًا من الله.. وقد يدُعى بعض العلماء أنهم حسَّنوا أو استنبطوا أنواعًا جديدة.. نقول لهم كل هذا لا ينفى أن الوجود الأول من الله.. وأنهم استخدموا ما خلق الله بالعلم المتاح من الله في كل ما فعلوه.. ولكن أحدًا لا يستطيع أن يدعى أنه أوجد أي شيء في الأرض من عدم.. فكل هذه الاكتشافات العلمية هى من موجود.. ولا يوجد اكتشاف علمي واحد من عدم.

وإذا انتقلنا من النبات إلى الحيوان.. نجد أن كل الحيوانات والطيور والحشرات بدأت بخلق من الله سبحانه وتعالى.. وبخلق من ذكر وأنثى.. وهذه هى بداية الخلق جميعًا.. ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه خلق من عدم ذكرًا وأنثى من أي نوع من النبات أو الحيوان.. والله سبحانه وتعالى يلفتنا في القرآن الكريم فيقول:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[1].

* * *

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

الإعجاز العلمي في ثبات قوانين الكون

هل جاء أحد المخترعين وقال لنا إنه أوجد من عدم؟ أو أنه خلق ذكرًا وأنثى من أي شيء موجود في هذا الكون؟ وما أكثر الموجودات في كون الله.. لا أبدًا، ولم ولن يأتي وهنا تأتي الحقيقة القرآنية تتحدى في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾(١).

هذا هو التحدي الإلهي الذي سيبقى قائمًا حتى يوم القيامة.. فلن يستطيع علماء الدنيا ولو اجتمعوا أن يخلقوا ذبابة.

ولقد وصل الإنسان إلى القمر، وقد يصل إلى المريخ، وقد يتجاوز ذلك.. ولكنه سيظل عاجزًا عن خلق ذبابة مهما كشف الله له من العلم.. ولن يعطيه القدرة على خلق ذبابة.. وهذا من إعجاز الله.. لأنه وحده الذي خلق كل شيء والعلم كاشف لقدرات الله في الأرض، ولكنه ليس موجدًا لشيء.. ولذلك يقول القرآن الكريم..

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾(٢).

بهذا نكون قد أثبتنا بالدليل العقلي أن الله خالق كل شيء في الدنيا.. فإذا كان الله قد خلق من هم من دون الإنسان من نبات وجماد وحيوان فكيف بالإنسان بما له من إدراكات وعقل وفكر وتمييز... سنتحدث عنه تفصيلاً في فصل قادم. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة الحج: ٧٣.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٢.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾(١).

وإذا كـان كل شيء في هذا الكون من خلق الله سبـحانه وتـعالى. . فـإن قوانين الكون أيضًـا. . تلك القوانين التي يسـير عليهـا الكون هى من وضع الله سبحانه وتعالى. . إلا ما شاء الله أن يجعل للإنسان فيه اختياراً. . فالقوانين التي يمضى عليها الكون هى من وضع الله. . والأسبـاب التي تتم بها الأشياء هى من وضع الله . . فالشمس والقمر والنجوم والأرض لا تتبع قوانين البشر. . بل تتبع القانون الإلهي . . والذي خلـقها وضع لها القـانون الأمثل لتؤدي مـهمتـها في الكون.

فالشـمس لها حركـة كونية . . ولهـا تحرك آخر في فلك خلقـه الله لها. . وكذلك القـمر، وكـذلك الأرض. . وكذلك الرياح وكذلك الـنجوم. . ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(٢).

إذن الشمس والقمر والنجـوم تتحرك بحساب دقيق فـلا تتأخر الشمس عن موعـد شروقهـا ثانية ولا تتقدم مـنذ ملايين السنين. . وكذلك القـمر في دورته الشهرية. . وكذلك النجوم في حركتها. . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٣).

أي أن كل هذه الأجرام لها فلك معين أو مـسار معين تمضي فيه بإذن الله. .

---

(١) سورة الطور: ٣٥.

(٢) سورة الرحمن: ١-٧.

(٣) سورة يس: ٤٠.

ولا تستطيع البشرية كلها أن تؤخر شروق الشمس ثانية، أو أن تقدمها ثانية.. أو أن توقف دوران الأرض أو تسرع بها أو تبطئ إلى غير ذلك.

إذن فثبات قوانين الكون دليل على دقة الخالق وإبداعه وعظمته وقدرته.. وهذا ما لا يستطيع أحد أن ينكره.

يأتي الفلاسفة ليقولوا: إن الثبات وحده لا يعطي القدرة الكاملة للحق سبحانه وتعالى.. ذلك أن الإله بقدرته لابد أن يستطيع أن يخرج عن ميكانيكيته.. فذلك هو دوام القدرة أو طلاقة القدرة.. أما بقاء الثابت على ثباته.. فإن ذلك قد يعطى الدليل على دقة القدرة وإبداع الخالق.. ولكنه لا يعطي الدليل على طلاقة القدرة.

نقول إن الله قد أعطى في كونه الدليل على طلاقة القدرة.. ولكنه لم يعطه في القوانين الكونية.. لأنه لو أعطاه في القوانين الكونية فأشرقت الشمس يومًا، وغابت أيامًا.. ودارت الأرض ساعات وتوقفت ساعات.. وتغير مسار النجوم لفسد الكون.. إذن فمن كمال الخلق أن تكون القوانين الكونية بالنسبة للنظام الأساسي للكون ثابتة لا تتغير، وإلا ضاع النظام، وضاع معه الكون كله.. فلا يقول أحد إن ثبات النظام الكوني يحمل معه الدليل على عدم طلاقة القدرة.. بل هو يحمل الدليل على طلاقة القدرة التي تبقى هذا النظام ليصلح الكون.

والله سبحانه وتعالى لا يريد كونًا فاسدًا في نظامه.. ولكنه يريد كونًا يتناسب مع عظمة الخالق وقدرته وإبداعه.. فيبقى بطلاقة قدرته الثبات في قوانين هذا الكون.. ويظهر بطلاقة قدرته أنه قادر على أن يغير، ويخرق النواميس بما لا يفسد الحياة في الكون.. ولكن بما يلفت خلقه إلا طلاقة قدرته.

ولنتحدث قليلاً عن طلاقة قدرة الله في كونه.. أول مظاهر طلاقة القدرة

هى المعجزات التي أيـد بها الله رسله وأنبياءه.. ولكننا لن نتـحدث عنها هنا.. فنحن مع العقل وحـده.. لنؤكد بالدليل العقلي أن كل مـا في هذا الكون يؤكد أنه لا إله إلا الله.. وأنه هو الخـالق والموجـد.. نأتـي إلى الأشـيـاء التي تنطق بطلاقة القدرة وهى في كل شيء.. وإذا جاز لنا أن نبدأ بالإنسان فإننا نبدأ بميلاد الإنسان أولاً.. الإنسان ككل شيء في هذا الكون يوجـد من ذكر وأنثى.. فإذا اجتمع الذكر والأنثى جاء الولد.. هذا هو قانون الأسـباب.. فيأتي الله سبحانه وتعالى ويلتقى الذكر والأنثى ولا يأتي الولد.. مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (١).

إذن: الله سبـحانه وتعـالى جعل في قوانين الأسـباب أنه مـتى تزوج الذكر والأنثى يأتي الولد.. ولكن أبقى لنفسه سبحـانه طلاقة القدرة فجعل هناك ذكراً وأنثى يتزوجان أعـوامًا طويلة ولا يرزقان بالولد.. فمع قوانين الأسـباب كانت هناك طلاقة القـدرة.. ولم يجعلها الله سبـحانه وتعالى عامة.. بل جـعلها في أمثلـة قليلة لتلفتنا إلى طلاقـة قدرته.. حـتى لا نحسب أننـا نعيش بالأسـباب وحدها.

ولم تقف طلاقـة قـدرة الله في خلق الإنسـان عند هذا الحـد.. بل امتـدت لتـشمـل كل أوجه الخلق.. فـالأصل في الإيجـاد من ذكـر وأنثى.. ولكن الله سبـحانه وتـعالى بطلاقـة قدرته خلق إنسـانًا بدون ذكر أو أنثى وهو آدم - عليـه السلام - .. وخلق من ذكر بدون أنثى وهى حـواء.. خلقها من ضلع من آدم - عليه السلام -.. وخلق إنسانًا من أنثى بدون ذكر وهو عيسى - عليه السلام -.. وهذه كلها حـدثت مرة واحدة لإثبـات طلاقة القـدرة.. وهى لا تتكرر.. لأنها

(١) سورة الشورى: ٤٩، ٥٠.

تلفتنا إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى.. وأنه ليس على قدرته قيود ولا حدود.. فهو جلّ جلاله خالق الأسباب.. وقدرته تبارك وتعالى فوق الأسباب.. على أن هناك أشياء كثيرة عن طلاقة قدرة الله بالنسبة للإنسان ستتحدث عنها تفصيلاً في فصل قادم.

نأتي إلى طلاقة قدرة الله تعالى في ظواهر الكون.. لو أخذنا المطر مثلاً.. الله سبحانه وتعالى بأسباب كونه جعل مناطق ممطرة في الكون.. ومناطق لا ينزل فيها المطر.. والعلماء كشف الله لهم من علمه ما جعلهم يضعون خريطة للأسباب تحدد المناطق الممطرة وغير الممطرة.

يأتي الله سبحانه وتعالى في لفتة إلى طلاقة قدرته.. فتجد المناطق الممطرة لا تنزل فيها قطرة ماء وتصاب بالجدب، ويهلك الزرع والحيوان وقد يموت الإنسان عطشًا.. بينما هذه المناطق كان المطر ينزل فيها وربما سار في أنهار ليروى غيرها من البلاد التي لا ينزل فيها المطر.. فنجد مثلاً منابع النيل التي هى مناطق غزيرة المطر.. تأتي فيها سنوات جدب فلا يجد الناس الماء.. بلادًا كالولايات المتحدة وبلاد أوربا يصيبها الجدب في سنوات.. ولا يحدث هذا بشكل مستمر.. بل في سنوات متباعدة.. لو أن هذا المطر بالأسباب وحدها ما وقع هذا الجدب في المناطق غزيرة المطر.. ولكن الله أراد أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته.. وإلى أن الماء الذي ينزل من السماء ليس للأسباب وحدها. ولكن الذي يحكمه هو طلاقة قدرة الله.. حتى لا نقول إننا أخذنا الدنيا وملكناها بالأسباب.. ولكن نعرف أن هناك طلاقة قدرته سبحانه وتعالى هى التي تعطي وتمنع.. وإنه جلّ جلاله فوق الأسباب سبحانه المسبب يغير ويبدل كما يشاء.

* * *

الإعجاز العلمي في عالم النبات والحيوان

إذا جئنا إلى الزرع.. ذلك الذي فيه عمل للإنسان.. نجد مظاهر طلاقة القدرة.. فالإنسان يزرع الزرع والله يعطيه كل الأسباب.. الماء موجود والكيماويات متوافرة.. والأرض جيدة. ثم بعد ذلك تأتي آفة لا يعرف أحد عنها شيئًا، ولا يحسب حسابها، فتقضى على هذا الزرع تمامًا.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[1].

ونحن نعرف أن الآفات تصيب كل مكان في الأرض لا يعلو عليها علم مهما بلغ.. وهكذا حتى نعرف أن الأرض لا تعطينا الثمر بالأسباب وحدها.. ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى التي هى فوق الأسباب.. فلا نعبد الأسباب وننسى المسبب وهو الله سبحانه وتعالى.

إذا انتقلنا إلى الحيوان نجد طلاقة القدرة واضحة.. فهناك من الحيوان ما تزيد قوته على الإنسان مرات ومرات.. ولكن الله سبحانه وتعالى قد أخضعه وذلله للإنسان. فتجد الصبي الصغير يقود الجمل أو الحصان ويضربه.. والجمل مثلاً يستطيع بضربة قدم واحدة أن يقضى على هذا الطفل ولكنه لا يفعل شيئًا ويمضى ذليلاً مطيعًا ولا يرد على الإيذاء رغم قدرته على ذلك.. ونجد الكلب مثلاً يحرس صاحبه ويدافع عنه لأن الله ذلله له.. فإذا جئنا إلى الذئب أو الثعلب من نفس فصيلة الكلب نجده يفترس الإنسان ويقتله.. ولو أن هذا التذليل للحيوان بقدرة الإنسان لاستطاع كما ذلّ الجمل والبقرة والكلب أن

(١) سورة الكهف: ٤٢.

يذللّ الذئب والثعلب وغيرهما من الحيوانات.. ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى أن هذا التذليل بقدرته سبحانه وتعالى.. بل إن الثعبان الصغير وهو حشرة ضئيلة الحجم يقتل الإنسان.. دون أن يستطيع أن يذلّله.. وهذه علامة من علامات طلاقة القدرة في الكون.. ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن كل شيء بقدرته ومنه.. وليس بالأسباب وليس بقدرة الإنسان.. بل إن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق وهو الذي جعل هذا في خدمة الإنسان.. وهذا يمكن أن يؤذي الإنسان.. وجعل موازين القوة والضخامة تختل.. حتى لا يقال إن هذا الحيوان قوى بحجمه أو بالقوة التي خلقت له.. بل جعل أضعف الأشياء يمكن أن يكون قاتلاً للبشر.

* * *

الإعجاز العلمي في عالم الجماد

ثم نأتي إلى الجماد.. الأرض من طبيعتها ثبات قشرتها حتى يستطيع الناس أن يعيشوا عليها، ويبنوا مساكنهم، ويمارسوا حياتهم.. ولو إن قشرة الأرض لم تكن ثابتة لاستحالت الحياة عليها، ولاستحالت عمارتها.. والله سبحانه وتعالى يريد منا عمارة الأرض. ولـذلك جعل قشرتها ثابتـة صلبة.. ولكن وفي بعض الأحيـان تتحول هذه القـشرة الثابتة إلى عـدم ثبات.. فتنفـجر البراكين ملقـية بالجمم.. وتحدث الزلازل التي تدمّر كل ما على المكان الذي تقع فيه.. ويتقدم العلم ويكشف الله من علمه لخلقه ما يشاء.. ولكن يبقى الإنسان عاجزاً عن أن يتنبأ بالزلازل.. فيأتي الزلزال في أكثر بلاد الدنيـا تقدمًا ليفاجيء أهلها دون أن يشعروا بقرب وقوعه.. بل إنه من طلاقة قدرة الله أنه أعطى بعض الحيوانات.. التي ليس لها عـقول تفكر، ولا علم ولا حـضارة.. أعطاها غريزة الإحـساس بقرب وقوع الزلزال.. ولذلك فهى تسـارع بمغادرة المكان أو يحدث لها هياج.. إن كانت مـحبوسة في أقـفاص أو حظائر مغلقـة.. وذلك ليلفتنا الله سبـحانه وتعالى.. إلى أن العلم يأتي منه ولا يحصل عليه الإنسان بقدرته.. فيعطى من لا قدرة له على الـفكر والكشف العلمي ما لا يعطيـه لذلك الذي ميـزه بالعقل والعلم.

لماذا؟ لنعلم أن كل شيء من الله فلا نعبد قدراتنا.. ولا نقول: انتهى عصر الدين والإيمان وبدأ عصر العلم.. بل نلتفت إلى أن الله يعطى لمن هم دوننا في الخلق علمًـا لا نصل نحن إليه.. فنعـرف أن كل شيء بقدرته وحـده سبـحانه وتعالى.

ومظاهر طلاقة قدرة الله في كونه كثيـرة.. فهو وحده الذي ينصر الضعيف على القوى، وينتـقم للمظلوم من الظالم.. وكل ما في الكون خـاضع لطلاقة

قدرة الله سبحانه وتعالى.. على أن طلاقة القدرة في تغيير ما هو ثابت من قوانين الكون إنما يأتي عند نهاية الحياة على الأرض.. حينئذ يغير الله القوانين كلها ويحدث الدمار وتنتهي الحياة.. وذلك مصداقًا لقوله تعالى:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[1].

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم.. تنبئنا بما سيحدث عندما تقوم القيامة.

إذن الذين يقولون: إن عظمة الله سبحانه وتعالى في خلقه هى الثبات والدقة التي لا تتأثر بالزمن.. والتي تبقى ملايين السنين دون أن تختل ولو ثانية واحدة، نقول لهم.. هذه موجودة وانظروا إلى القوانين الكونية ودقتها وكيف أنها لم تتأثر بالزمن.. والذين يقولون إن عظمة الحق سبحانه وتعالى في طلاقة قدرته في كونه.. وألا تكون الأسباب مقيدة لقدرة الخالق والمسبب.. نقول لهم انظروا في الكون وحولكم مظاهر طلاقة القدرة.. وليست هذه المظاهر مختفية أو مستورة.. بل هى ظاهرة أمامنا جميعًا.. وليست في أحداث بعيدة عن حياتنا.. بل هى تحدث لنا كل يوم.

وإذا صاح إنسان من قلبه «ربنا كبير».. أو «ربنا موجود» .. أو«ربك يمهل ولا يهمل».. فمعنى ذلك إنه رأى طلاقة قدرة الله، تنصف مظلومًا، أو تنتقم من ظالم.. أو تنصر ضعيفًا على قوى.. أو تأخذ قويًا وهو محاط بكل قوته الدنيوية.

فالإنسان لا يتذكر قدرة الله عندما يرى الكون أمامه يمضى بالأسباب.. ذلك أن هذا شيء عادي لا يوجب التعجب.. فانتصار القوى على الضعيف لا

(١) سورة الانفطار: ١-٥.

يثيـر في النفس اندهاشًا. . والأجـر المعقـول للعمل شيء عـادي. . والأحداث بالأسبـاب هو ما يعيـشه الناس. . ولكننا نتذكـر قدرة الله إذا اختلت الأسـباب أمامنا . . وجاء المسبب ليعطينا ما لا يتفق مع الأسباب ولا مع قوانينها.

إلى هنا ونصل إلى أننا استـعرضنا بعض أسبـاب الوجود التي تثبت قضـية الإيمان بالدليل العقلي. . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[1].

وبعض الناس ينظر إلى نفسه فلا يرى شيئًا. . فما معنى هذه الآية الكريمة؟

* * *

(١) سورة الذاريات: ٢١.

الإعجاز العلمي في النفس البشرية

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[1].

هذه الآية يمرّ عليها كثير من الناس دون أن يتنبهوا إلى الفيوضات والمعاني التي تحتويها.. بل إنك إذا سألت إنسانًا غير مؤمن ماذا يعرف عن هذه الآية الكريمة.. يقول لك لا شيء في نفسي.. فأنا إنسان أولد وأكبر وأتزوج وأعمل وتنتهي حياتي وأموت.. فماذا في نفسي؟.. نقول له لو إنك تدبرت لعلمت أن في نفسك آيات وآيات.. ونحن سنذكر في هذا الفصل بعض هذه الآيات، لأن آيات الله في الإنسان كثيرة ومتعددة.

أول شيء هو قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[2].

إذا قرأت هذه الآية يقول غير المؤمن لم نشهد شيئًا ولم نر شيئًا ولم نحس شيئًا.. نقول بل شهدت.. وأنت شهيد على نفسك في ذلك.. كيف؟.. الله سبحانه وتعالى عرفنا أنه موجود.. وعرفنا بشهادة ربوبية وليس بشهاد ألوهية.. ومعنى ذلك أن المؤمن والكافر يعلم في نفسه وجود الله.. ولكن الكافر يحاول أن يستر هذا الوجود ليحقق شهواته وما يريد ولو على حساب حقوق الآخرين.. ولننظر إلى ما أحل الله وما حرم الله.. ثم لننظر إلى النفس البشرية

(١) سورة الذاريات: ٢١.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٢.

على عمومها لنرى ماذا تفعل.. ولنعرف يقينًا أن هذه النفس تعرف ما أحل الله وتستريح له وتنسجم معه.. وتعرف ما حرم الله فيصيبها انزعاج واضطراب وذعر وهى ترتكبه.. وأول الأشياء هو العلاقة بين الرجل والمرأة.

إذا جاءك رجل وقال أريد أن أختلى في حجرة مع ابنتك.. ماذا تفعل به؟.. قد تقتله.. وإن لم تقتله فقد تضربه. .ويعينك على ذلك كل الناس. .استنكار عام من المؤمن وغير المؤمن.

فإذا جاءك هذا الرجل وقال أريد أن أتزوج ابنتك.. تستقبله بالترحاب وتدعو الناس للترحيب به.. وتعلن النبأ على الجميع.. وتعقد القران، وبعد عقد القران تتركه هو وابنتك في الحجرة.. وتوافق على الخلوة بينهما.

ما الفرق بين الحالتين؟ بعض الناس يقول إنها وثيقة الزواج التي تحرر.. فهل الفرق هو الورقة فعلاً؟.. لا.. الفرق هو الحلال والحرام.. ما أحله الله وما حرمه.. ما أحله الله ينسجم مع النفس البشرية ويقبله كل الناس.. وما حرمه الله تستنكره كل نفس بشرية وتنفعل ضده.

كيف يحدث هذا؟.. لأنك عرفت يقينًا منهج الحق والباطل.. وممن عرفته؟ من الذي وضعه.. وليس هذا فقط.. بل انظر إلى إنسان في شقة مع زوجته.. مطمئن تمامًا يدخل أمام الناس إلى بيته.. وإذا طرق الباب قام وفتح للطارق.. وإذا جاء صديق استقبله باطمئنان.. وإذا خرج إلى الشارع أخذ زوجته معه أمام الناس جميعًا.. انظر مع نفس الشخص مع زوجة غيره.. يغلق الأبواب والنوافذ حتى لا يراه أحد.. وإذا طرق الباب انزعج ولا يفتح.. وإذا جاءه صديق أصيب بالذعر.. وإذا خرج إلى الشارع مشى بعيدًا عنها.

ما الفارق بين الحالتين؟.. الفارق هو الحلال والحرام اللذان تعرفهما كل نفس، حتى تلك التي لم تقرأ شيئًا عن الدين.. لأن الله سبحانه قال:

﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾(١).

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى أوجه الحياة.. لص يريد أن يسرق.. يتأكد أولاً من أن الطريق خال.. ولا يجرؤ أن يفعل ذلك إلا في الظلام أو بعيداً عن الناس.. وبمجرد أن يأخذ ما يريد أن يسرقه ينطلق بسرعة وهو يتلفت يمينًا ويساراً خوفًا من أن يراه أحد.. ثم يبحث عن مكان يخفى فيه المسروقات.. انفعالات رهيبة في داخله تؤكد أنه يعرف أن ما يفعله إثم وخطيئة.. فإذا كان الإنسان يريد أن يدخل بيته ليأخذ شيئًا دخل أمام الناس جميعًا ومشى باطمئنان.. وحمل الشيء الذي يريده وهو لا يخشى أن يراه أحد.. ذلك أنه يحس في داخله بأنه يفعل شيئًا لا يحرمه الله.. الذي يأخذ رشوة مثلاً.. يتلفت حوله يمينًا ويساراً ويسارع بإخفائها.. والذي يقبض مرتبه يفعل ذلك أمام الدنيا كلها.

وهكذا كل مقاييس الخير والشر.. مقاييس الخير تنسجم معها النفس البشرية، وتحس بطبيعتها وراحتها.. ومقاييس الشر تضطرب معها النفس البشرية وتحس بالفزع والذعر وهى ترتكبها.. من الذي وضع في النفس هذا إلا أنها تعرف يقينًا هذه المقاييس التي وضعها الله لمنهجه في كونه.. ومن الذي أعلم هذه النفس أن هناك مقاييس.. وأن هناك إلهًا.. إلا أن تكون الآية الكريمة؟

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾(٢).

هى التفسير الوحيد لمقاييس الخير ومقاييس الشر التي وضعت فينا بالفطرة.. وبما أن هذا عطاء ربوبية فإن الله سبحانه وتعالى رب الناس كل الناس.. مَن آمن به ومن لم يؤمن.. ولذلك وجدت في البشر كلهم.

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٢.

نأتي بعد ذلك إلى نقطة ثانية.. الله سبحانه وتعالى غيب.. وغير المؤمن يقول أنا لا أؤمن إلا بما أرى.. أما ما هو غيب عني فلا أؤمن به لأنني لم أشهده .. والإيمان غير الرؤية .. فأنت إذا رأيتني أمامك لا تقول أنا أؤمن أني أراك.. لأن الرؤية عين يقين ليس بعدها دلالة .. ولا تقول أنا أؤمن أنني أجلس مع أصدقائي.. ولا تقول إني أؤمن أني أرى الشمس مثلاً.. ذلك هو عين اليقين .. وهناك علم يقين، وعين يقين وحق يقين.. فعلم اليقين هو الذي يأتيك من إنسان تثق فيه وفي أنه صادق في كلامه.. فإذا قال لك إنسان مشهود له بالصدق أنا رأيت فلانًا يفعل كذا.. فأنت تصدق بوثوقك بمن قال.. فإذا رأيت الشيء أمامك يكون ذلك عين اليقين.. فالذي يقول لك مثلاً إن هناك مخلوقًا نادراً في بلدة كذا فأنت تصدقه، لأنك تثق فيه.. فإذا جاء معه بهذا المخلوق وأظهره أمامك أصبح علم اليقين عين يقين.. فإذا لمسته بيدك وتحسسته وتأكدت من أوصافه يكون هذا حق اليقين.

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب غير المؤمنين عن جهنم يقول:

﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾[1].

أي إن كلاً منا سيرى جهنم بعينيه في الآخرة.. ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۞ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۞ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾[2].

أي إن الكفار حين يدخلون النار ويعذبون فيها سيكون ذلك حق يقين.. أي واقعًا يعيشونه وليست مجرد رؤية.

---

(١) سورة التكاثر: ٥-٧.

(٢) سورة الواقعة: ٩٢-٩٥.

هذه هى الرؤية. . أما الإيمان فـهو تصديق بغيب. . فـأنت تقول. . أنا أؤمن أن ذلك حدث كما أراك أمامي. . أي إنك لم تشهد ما حدث. . ولكنك وصلت بالدليل والاقتناع إلى أنه قد حدث . . وأصبح في نفسك كيقين الرؤية تمامًا.

غيـر المؤمن يقول إن الله غيـب وأنا لا أصدق إلا ما أرى. . نقـول قبل أن تعلن هذا الكلام تذكر الآية الكريمة:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[(١)].

وأنت في جسدك الروح هى التي تهـبك الحيـاة والحركـة. . فإذا خـرجت الروح من جسدك سكنت الحركة وانتهت الحياة.

إذن كل منا يعرف يقينا أن هناك شيئًـا اسمه الروح. . إذا دخل الجسد أعطاه الحـياة. . وإذا خـرج منه توقفت الحـيـاة. . مَن منا رأى الروح؟ . . بل مَن منا يعـرف أين موقـعـها من الجـسد؟ . . أهى فـي القلب الذي ينبض؟ . . أو في العقل الذي يفكر؟ . . أو في القدم الـتي تتحرك؟ . . أو في العين التي ترى ؟ . . أو في الأذن التي تسمع؟ . . أين مكانها بالضبط؟ . . وما هى الروح؟ . .

أكبر علماء الدنيا لا يعرف عنها شـيئًا. . حتى ذلك العالم السويسري الذي جاء بالناس وهم يحتضرون ووضعهم على ميزان دقيق. . وعندما أسلموا الروح وجد أن الجسد قد فقد من وزنه بضعة جرامات لحظة خروج الروح. . فأعلن أن الروح لها وزن. . أو أن لها كيانًا ماديًّا وإن كان لا يزيد على جرامات. . نقول إن هذا غير صحيح. . لأن هذه الجـرامات قد تكون هى وزن الهواء الذي خرج من الرئتين، ولم يدخل غيره. . أو تكون بسبب توقف سريان الدم بالجسم.

إذن الروح - وهى موجودة في جسدك - غـيب عنك. . فأنت لا تعرف ما هى؟ . . ولا أين هى؟ وأنت لا تعرف كـيفية سريانهـا في الجسم. . وإلا قل لنا

---

(١) سورة الذاريات: ٢١.

إذا أصيب إنسان في حادث وبترت ساقاه.. أين ذهبت الروح التي كانت في الساقين تعطيهما الحياة والحركة.. ولكنك تستدل على وجود الروح مع أنها غيب عنك بآثارها في أنها تعطى الحياة والحركة لجسدك.. ولكن هل وجود الروح في المخلوق الحي وجود يقيني.. يقول أكبر علماء الدنيا الماديين: نعم.. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الجسد الحي فيه الروح، وأن الجسد الميت قد خرجت منه الروح.

إذن فوجود الروح علم يقين مستدل عليه بآثارها. فهل إذا كان وجود الروح في جسدك يؤكد لك يقينًا أنها موجود مستدلاً على ذلك بالحركة والحياة التي تعطيها في الجسد.. ألا يدل هذا الكون كله بما فيه من إعجاز الخلق على وجود الله يقينًا.. ألا تنظر إلى جسدك والروح فيه ثم تنظر إلى الكون لتستخدم نفس القانون.. أم أنك في جسدك لا تستطيع أن تجادل.. وفي الكون بعظمته تجادل؟!.. أليس هذا كذبًا على النفس واحتقارًا لمهمة العقل.. ألا نتدبر في معنى الآية الكريمة:

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

ثم نأتي بعد ذلك إلى النقطة الثالثة.. غير المؤمن يقول أنا سيد نفسي.. أنا حاكم نفسي أفعل بها ما أشاء.. نقول: هذا افتراء على الله.. فجسدك هو ملك لله.. وهو يفعل فيه ما يشاء إلا ما شاء أن يجعلك فيه مختارًا.. وإذا لم تصدق ذلك فانظر إلى جسدك.

القلب ينبض.. فهل أنت الذي تجعله ينبض؟.. وهل تستطيع أن توقفه قليلاً ليستريح؟.. أو تجعله إذا توقف أن يعود إلى الحركة مرة أخرى؟.. وكيف يمكن أن يتبع القلب لإرادتك، وهو ينبض، وأنت نائم مسلوب الإرادة

(١) سورة الذاريات: ٢١.

.. ومن الذي يعطي الأمر للقلب لكي يقلل نبضاته وأنت نائم، لأنك متوقف عن الحركة .. ويجعله يسرع في النبض وأنت تقوم بأي مجهود محتاج إلى سرعة حركة الدم في الجسم.

وحركة التنفس هل أنت الذي تقوم بها؟ .. وإذا قلت نعم فكيف تتنفس وأنت نائم؟ .. إنها حركة تتم بالقهر لا سلطان لك عليها.. فإذا صدر لها الأمر الإلهي بأن تتوقف فلا أحد يستطيع أن يعيدها.

ومعدتك وما يحدث فيها من تفاعلات لهضم الطعام وأنزيمات تفرز من غدد متعددة.. أيتم هذا بإرادتك..

وأمعاؤك وحركة الطعام فيها وامتصاص ما يفيد الجسم وطرد ما لا يفيده.. أيحدث هذا بإرادتك أم إنها تتم دون أن تدري.. وكرات الدم البيضاء وهى تتصدى للميكروبات التي تدخل جسدك فترسل كرات معينة لتحدد ما يمكن أن يقضي على الميكروبات.. ثم يقوم النخاع بتصنيع المواد المضادة فتقضي على الميكروب فعلاً .. أتدري أنت شيئًا عن هذه العملية؟.. إن كل هذا مقهور لله سبحانه وتعالى.. يقوم بعمله دون أن يتوقف.. ودون أن تدري أنت عنه شيئًا.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى.. أنه خلق هذه الأجهزة البشرية مقهورة له .. وإلا لما استطاع الإنسان الحياة، ولا العمل، ولا أداء مهمته في عمارة الكون.. وإلا فقل لي بالله عليك.. لو أن قلبك يخضع لإرادتك كيف يمكن أن تنام؟ .. إنك ستظل يقظًا ليستمر القلب في النبض.. لو أن معدتك تخضع لإرادتك لاحتجت إلى ساعات طويلة بعد كل وجبة لتتم عملية الهضم.. لو أن الدورة الدموية تخضع لإرادتك.. لما استطاع عقلك أن يستمر في الحياة وهو مشغول بمئات العمليات التي تتم كل دقيقة.

وهكذا شاءت رحمة الله أن يجعل كل هذا بالقهر حتى تستطيع الحياة والسعي في الأرض، وحتى يمكنك أن تتمتع بحياتك.

إذن لا تقل أنا حرٌّ في جسدي.. أو جسدي خاضع لي.. فهذا غير صحيح علميًّا وبالدليل المادي.. فأنت مقهور في كل أجهزة جسدك.. حتى تلك التي أخضعها الله لإرادتك فهذا خضوع ظاهري وليس خضوعًا حقيقيًّا.. ولقد شاءت حكمة الله أن يرينا هذا في الدنيا أمامنا بالدليل المادي.. فأنت تبصر بعينيك، وحتى لا تغترّ وتعتقد أن هذا الإبصار من ذاتك، وإنه خاضع لإرادتك.. أوجد الله سبحانه وتعالى مَن له عينان مفتوحتان ولا يبصر.. وأنت تمشي بقدميك.. ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشي.. أنت لك يدان تتحرك وتفعل بهما ما تشاء.. ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له يدان ولا تستطيعان الحركة.. وأنت تتحدث بلسانك وتسمع بأذنيك.. ولكن الله سبحانه وتعالى قد أوجد من له لسان ولا يقدر على الكلام.. ومن له أذنان ولا يسمع.. كل هذه أمثلة قليلة وضعها الله في الكون.. ليلفتنا إلى أنه ليس لنا ذاتية.. وأن الأمر كله لله.

فإذا كنا نبصر بأعيننا فنحن نبصر بقدرة الله التي أعطت العين قوة الإبصار.. ونمشي بقدرة الله التي أعطت القدمين قوة الحركة.. ونسمع ونتكلم بقدرة الله التي أعطت اللسان قدرة الكلام والأذن خاصية السمع.. ولو كان هذا بذاتية منا.. ما استطاع أحد أن يسلبنا النظر أو السمع أو الحركة أو الكلام.

بل إن الله سبحانه وتعالى أقام لنا الدليل على أنه حتى حركاتنا الاختيارية لا تتم إلا بقدرته.. مثلاً إذا أردت أن تقوم من مكانك.. كم عضلة تنقبض، وكم عضلة تنبسط، حتى تتمكن من القيام؟.. ولكن نقوم من أماكننا ونحن لا ندري أي العضلات تتحرك وأيها لا يتحرك.. بمجرد أن يخطر على بالنا لنقوم هذه العضلة تنبسط، وهذه تنقبض بقدرة الله، وليس بإرادتنا.. العملية التي

تتم في عضلات الجسم ساعة القيام.. ليس لنا في حركتها إرادة إلا أننا أردنا أن نقوم.. وكذلك في المشي والجري وكل حركة نقوم بها.

إذن حركات الجسد كلها خاضعة لنا بإرادة الله سبحانه وتعالى.. الله هو الذي أخضعها لما نريد وجعلها تفعل ما نشاء.. وهى لا تفعله، ونحن على علم بذلك.. بل تفعله بشفرة إلهية وضعها الله في أجسادنا.. فتنقبض وتنبسط العضلات فيتم كل شيء ونحن لا ندري.

ثم يقول الإنسان أنا مسيطر على جسدي أفعل ما أشاء.. نقول له لو كنت مسيطراً حقيقة لعلمت ما يجرى فيه.. ولكن هذا الجسد مسخر لك بقدرة الله.. ولذلك فهو يفعل لك ما تريد دون أن تدري، أو تحس كيف يتم هذا الفعل..

* * *

عجيب أمر الأطباء

ومن العجيب أنـك ترى أكبر أطباء القلب يموتون بأمـراض القلب.. وأكبر أطبـاء المخ تنتهـي حيـاتهم بمرض في المخ.. فـإذا ملكت اللحظة التي تعـيش فيـها.. وبقيت حـتى ساعـة إتمام الفعل، فإنك قـد تصاب بمرض يقـعدك عن الحركة، فلا تستطيع إتمام الفعل.. هذا بالنسبة للفاعل..

فإذا جئنا للزمن فأنت لا تملك الزمن، ولكنه هو الذي يملك.. ولذلك فإنه قد يـأتي زمن التنفيـذ فتـفاجـأ بحدث يمنعك.. كـأن يصاب ابنك فـي حادث مثـلاً.. أو يموت أحـد أقربائك.. أو تضطر اضطراراً إلى سـفر عـاجل لمهـمة ضرورية .. أو يقبض عليك في جريمة أو في اتهام.. إذن فأنت لا تملك الزمن ولا تستطيع أن تقول إنني في ساعة كذا سأفعل كذا.

فإذا جئنا للمكان فقد تـختار مكانًا لتبني فيه عمارة مثـلاً.. فتأتي لتجد أن هذا المكان قد استولت عليه الدولة للمنفعة العامة.. أو قد ظهر له ورثة لم تكن تعرفـهم فأوقفـوا العمل.. أو أن تقرر أن يـقام وسطه طريق .. أو أن الأرض تحتها مياه جوفية تجعلها غير صالحة للبناء.

وإذا جئنا للمفعول به فقد يرفض الذي تطلب منه العمل القيام به.. وقد لا تجد عمالاً ليـقوموا بالتنفيذ.. وقد لا يأتي المقاول الذي اتفـقت معه.. وقد لا يحضر الموظف الذي سيعطيك الرخصة لتبدأ العمل. إذن فأنت لا تملك شيئًا من عناصر الفعل كلها. ولذلك طلب منك الله سبحانه وتعالى.. أن تتأدب وتعطى الشيء لأهله، وتنسبه إلى الفاعل الحقيقي.. فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾[1].

---

(١) سورة الكهف: ٢٣، ٢٤.

أي إذا أنساك الشيطان أن القوة لله جميعًا فتذكر هذه الحقيقة ولا تتجاوزها.

نأتي بعد ذلك إلى معجزة أخرى في النفس البشرية.. تلك هى معجزة القرآن الكريم.. والقرآن فيه إعجاز كثير.. ولكننا نتحدث هنا عن الإعجاز القرآني في النفس البشرية.. كل إنسان منا له طاقة وقدرة عقلية.. فالمتعلم طاقته العقلية أكبر ممن لم ينل حظًا من العلم أو من الأميّ.. وهؤلاء جميعًا لا يمكن أن يجتمعوا عقلاً ليشهدوا شيئًا واحداً.. وكل واحد منهم ينسجم مع هذا الشيء نفس الانسجام.. فإذا كانت مثلاً هناك محاضرة في فرع من العلوم فلا يستطيع أن ينسجم معها إلا ذلك.الذي يفهم في هذا الفرع.. أما إذا دخل إليها عدد من الذين لم يقرأوا عن هذا العلم فإن الانسجام يضيع.. ذلك يحدث في كل فرع من فروع الدنيا.. ولكنك إذا جئت إلى القرآن الكريم، وهو كلام الله، تجد أن كل النفوس البشرية المؤمنة تنسجم معه.. لا تجمعها رابطة علم أو ثقافة.. وإنما الذي يجمعها هو رابطة الإيمان.. فتدخل إلى المسجد تجد فيه المتعلم ونصف المتعلم والعالم وقد جلسوا معًا جميعًا يستمعون إلى القرآن الكريم .. وتجدهم جميعًا منسجمون مع القرآن.. تهتز نفوسهم له.. وترتاح ملكاتهم إليه.. لا فرق بينهم حتى ذلك الذي لا يعرف معنى ألفاظ القرآن الكريم.. تجده جالسًا يستمع وهو منسجم ويهتز من داخله .. وتقام الصلاة.. فيقف الجميع في انسجام وراء الإمام.. تختفى الفوارق الدنيوية بينهم.. ولكن تجمعهم رابطة الإيمان.. فيصلّون جميعًا بانسجام.. لأن ملكاتهم التي خلقها الله فيهم منسجمة ومتفقة مع كلام الله .. فلا تلحظ فرقًا ولا نرى إلا مساواة إيمانية.

* * *

إعجازٌ حتى في الحفظ

إنه من العجيب أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد في العالم الذي يمكن أن يحفظه الإنسان بدون فهم.. فتجد الطفل الصغير عمره سبع سنوات وربما أقل من ذلك. ومع هذا يحفظ القرآن كله.. أيمكن لهذا الطفل الصغير غير المكلف أن يستوعب معاني القرآن الكريم؟.. بالطبع لا.. ولكن الإيمان الفطري في داخله يجعله يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويتلوه.. لأن هذا الإيمان من الخالق، وهو الله سبحانه وتعالى.. والقرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى.. ولذلك تنسجم النفس البشرية وهي في أولى مراحلها مع كلام خالقها.. أليس هذا إعجازاً نقف عنده ليلفتنا إلى الله سبحانه وتعالى.. وأنه هو الخالق وهو الموجد.

فإذا قال رسول الله ﷺ:

«إن الإنسان يولد على الفطرة مسلمًا، وأهله يهودانه أو ينصرانه»[١].

قلنا صدقت يا رسول الله، وأكبر دليل على ذلك هو انسجام فطرة الإنسان مع كلام الله.

بل وأكثر من ذلك، يأتي الله سبحانه وتعالى ليرينا أن الإنسان هو هو.. وأنه سيأتي به يوم القيامة.. دون أن يختلط أحد مع أحد.. ويتساءل الذين لا يؤمنون كيف يمكن أن يأتي الإنسان بنفسه يوم القيامة دون أن يختلط أحد مع أحد؟

نقول إن الله سبحانه وتعالى رحمة بعقولنا قد أعطانا الدليل في الدنيا..

قال تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾[٢].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٢/ ١٢٥)، ومالك (٢٤١) في الموطأ، وأبو داود (٤٧١٤)، والحميدي (١١١٣)، والترمذي (٢١٣٨)، وأحمد (٢/ ٢٣٣، ٢٧٥، ٢٨٢).

(٢) سورة الشمس: ٨.

وإن هذه النفس بالدليل المادي لا تملك لذاتها نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله.. وإنها منسجمة مع الإيمان بفطرة خلقها.. ومنسجمة مع كلام الله بفطرتها الإيمانية.

على أن الدليل المادي لوجود الله لا يشمل النفس البشرية وحدها.. بل يشمل كل شيء في الكون.. فكل ما في الكون ينطق بأنه لا إله إلا الله.. وفي كل شيء دليل..

وهكذا نرى مدى الإعجاز في أن الله سبحانه وتعالى.. قد بيّن لنا الدليل المادي أنه يعلم الغيب.. وأن علمه للغيب علم يقين لابد أن يحدث وأن يتم.. وأنه مسيطر على أمور الدنيا كلها.. حتى في تلك الأشياء التي لا يمكن أن يتنبأ بنتيجتها أحد قبل حدوثها بتسع سنوات.. بل لا يمكن أن يتنبأ بنتيجتها أحد حتى ساعة حدوثها..

ألي هذا دليلاً ماديًا على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يسير الأمر في كونه.. وهو الذي إذا قال كُنْ فيكون.. أليس هذا دليلاً على أن الله سبحانه وتعالى إذا قال:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1].

قول من إله خالق ومسيطر وقادر على كل أحداث كونه.. فإذا عرفنا ذلك بالدليل المادي.. ألا نفهم معنى الآية الكريمة:

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[2].

ونصدق يقينًا بأن الله سبحانه وتعالى وحده هو رب وإله هذا الكون.

* * *

---

(١) سورة يس: ٨٢.

(٢) سورة النحل: ١.

الإعجاز العلمي وعالم الجراثيم

على أننا لابدّ أن ننتقل بعد ذلك إلى نقطة هامة جدًا.. وهي إن عدم إدراكنا لوجود الشيء.. لا يعني أن هذا الشيء غير موجود.. فإذا حدّثنا الله سبحانه وتعالى عن الملائكة وعن الجنة وعن النار وعن الشياطين.. فلابدّ أن نصدق.. ليس بالدليل الإيماني فقط.. لأن القائل هو الله.. ولكنه سبحانه وتعالى في تحدّ أعطى الدليل المادي لغير المؤمن به على أن الغيب موجود وإن لم نكن ندرك وجوده.. وأعطاه لنا من أحداث هذا الكون وما يقع فيه من ماديات.

فإذا أخذنا مثلاً الجراثيم تلك المخلوقات الدقيقة التي تهاجم جسد الإنسان وتصيبه بالمرض.. هذه الجراثيم عاشت مع الإنسان عمره كله.. ولكننا في أول الحياة البشرية وحتى فترة قصيرة لم نكن نعرف عنها شيئًا.. ثم تقدم العلم وتوصل العلماء إلى الميكرسكوبات الالكترونية التي تكبر حجم الشيء ملايين المرات.. فماذا رأينا؟.. رأينا عجبًا ميكروبات لها شكل ولها حركة.. ولها حياة ولها تناسل وتكاثر.. ولها طريقة لتخترق جسم الإنسان وتصل إلى الدم.. ولها تفاعلات مع كرات الدم.. عالم كبير لم نكن نعرف عنه شيئًا بل كان غيبًا عنا منذ مائة سنة.. ومع ذلك.. ومع كونه كان غيبًا عنا.. فهل لم يكن موجودًا؟.. لا.. بل كان موجودًا يؤدي مهمته في الحياة.. وكان العلماء في الماضي يعتقدون أن المرض معناه أن الأرواح الشريرة قد تلبست جسد الإنسان.. وكانوا يضربون المرضى أو يكوون أجزاء من أجسادهم حتى تخرج هذه الأرواح الشريرة.

ثم تقدم العلم. واستطعنا أن نرى رؤية العين هذه الجراثيم، وهي تتحرك وتتناسل.. وتخترق وتحارب.. بل استطعنا في تجاربنا العلمية أن ندخل هذه الجراثيم إلى أجساد الحيوانات.. لندرس دورة حياتها وكيفية القضاء عليها.

وهكذا أعطانا الله الدليل المادي على أن ما هو غيب عنا موجود ويؤدي مهمته في الحياة.. وأن عدم إدراكنا لوجوده لا يعني عدم هذا الوجود..

وإذا نظرنا إلى قطرة الماء الذي نشربه تحت الميكرسكوب لوجدنا فيها أشياء عجيبة.. أشياء فيها حياة ولها حركة.. ولها كيان ولها دور في الحياة.. ولكننا لم نكن نعرف منذ فترة قصيرة أن هذه الأشياء موجودة.. فهل كان هذا شهادة بعدم وجودها.. أم أنها كانت في الحقيقة موجودة.. ولكننا لا ندرك هذا الوجود.

فإذا انتقلنا إلى الكون كله .. وجدناه يشهد أن الوجود شيء وإدراك الوجود شيء آخر تمامًا.. وأن ما لا ندرك وجوده يؤدي مهمته في الكون.. فلننظر مثلاً إلى الأقمار الصناعية والإرسال التليفزيوني.. هل كان أحد يعرف أن ما يقع في مكان ما في العالم يستطيع العالم كله أن يشهده وفي نفس لحظة حدوثه؟ .. طبعًا لم يكن أحد يعرف ذلك.

لم كشف الله سبحانه وتعالى لنا من علمه.. ما مكننا من أن نعرف أنه موجود في الكون من الخصائص ما يمكن أن يجعل الإنسان في كل الدنيا يرى ويشهد ما يقع في مكان ما وقت حدوثه - ويرى الإنسان وهو ينزل على القمر وهو يمشي فوقه.. كيف توصل الإنسان إلى هذا التقدم العلمي؟ .. هل اخترع غلافًا جويًّا يستطيع أن ينقل الصور؟ .. هل جاء بمواد خارج الأرض .. أو بمواد من خارج خلق الله ليصنع منها الأقمار الصناعية التي حققت هذه الاتصالات؟ .. طبعًا لا.. ولا يستطيع أن يقول ولا حتى أكبر الماديين أن هذه الخصائص التي استخدمت قد أوجدها الإنسان وخلقها.. ولكن الغلاف الجوي والمواد في الأرض موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها.. ولكن خصائصها كانت غيبًا عنا.

وعندما جاءت مشيئة الله لتكشفها لنا وجدنا شيئًا عجيبًا فاستخدمناه فأعطانا ما نحن فيه من تقدم علمي. أيستطيع أحد أن ينكر خصائص الكون وأنها كانت موجودة . . قبل أن يعلمنا الله كيف نستخدمها وفيم نستخدمها. . لا يستطيع أي مكابر أن يقول إنها لم تكن موجودة . . بل كانت موجودة ولكنها غيب عنا. . فلما أرادنا الله أن نعلمها كشفها لنا لنعلم أن ما هو غيب موجود. . رغم أننا لم نكن ندرك وجوده.

فإذا نظرنا إلى ما في السموات . . نجد أننا كلما استطعنا أن نصنع ميكرسكوبًا أضخم وأقوى. . استطعنا أن نكشف أجرامًا سماوية جديدة ونراها لأول مرة . . هل كانت هذه الأجرام التي لم تكن نعرف عنها شيئًا غير موجودة؟ . . أو لم تكن تؤدي مهمتها في الكون؟ . . كانت موجودة وكانت تؤدي مهمتها في الكون. . ولكن الله سبحانه وتعالى أخفى وجودها عنا إلى أجل حدده. . فلما جاء الأجل كشف لنا هذا الوجود فعرفناه حتى نعلم أن ما هو غَيْب عنا موجود يؤدي مهمته في الكون ولو لم ندرك وجوده.

بل إن الله سبحانه وتعالى . . أراد أن تكون الحياة الإنسانية كلها شاهدة على أن الغيب موجود. . أرادنا أن نكون شهداء على أنفسنا حتى لا نأتي يوم القيامة . . ونقول: يا رب لم تعطنا الدليل العقلي على أن ما هو غيب عنا موجود. . فضلت عقولنا. . يا رب لو أعطيتنا الدليل لكنا آمنا. . ولذلك جاءت حياة البشر كلها شاهدة على ذلك. .

فالله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان وحده القدرة على أن يرث الحضارة ويضيف عليها. . في حين سلب ذلك من كل مخلوقاته. . ولذلك ترى أن حياة الحيوان مثلاً كما هى منذ بدء الخليقة لم تتقدم. . فلم نسمع عن أن مجموعة من القرود مثلاً قد عقدت اجتماعًا لترتقى بوسائل حياتها. . وتبنى لنفسها أماكن مكيفة الهواء تقيها حرارة الجو في المناطق الاستوائية. . ولم نسمع أن مجموعة

من الحيوانات القطبية قـد جلست معًا.. لتخترع وسائل تدفئة تقـيها برد الشتاء القارس الذي يبيدها ويفنيها ويجعلها تتـضور جوعًا.. ولم نسمع عن مجموعة من الحيوانات جلست تتداول للوصـول إلى دواء لمرض يفتك بها.. أو للوصول إلى مبيد لحشرة تنقل لها الأمراض.. بل الرقى في حياة الحيوان أو النبات الذي يصنعه هو العقل البشري..

ولكن الإنسـان مختلف عن ذلك تمامًـا.. فالعـقل البشـري قد أعطاه الله سبحانه وتعـالى ميزة وراثة الحضارة البشرية.. فكل جيل يبـدأ حياته من حيث انتهى الجيل الذي قبله.. ثم يضيف إليها.. وقدرة العقل البشري على استيعاب التقدم العلمي لا حدود لـها.. ولذلك فإن كل جيل من البشر يعرف شـيئًا كان غيبًا عن الجيل الذي قبله.. وكل جيل من البشر يتيح الله سبحانه وتعالى له من أسرار ما وضعه في كونه ومن قـوانين هذا الكون ما لم يتح للجيل الذي قبله.. وإذا كان هذا الجيل هو جيل الكمبيوتر مثلاً .. فإن الجيل القادم سيكشف الله له من أسرار هذا الكون مـا يعطيه علمًا يجعل أجـهزة الكمبيـوتر الحالية شيـئًا من مخلفات الماضي.. وهكذا ترتقى الحضارات.

وكلما تقدم الزمن كانت سرعة ارتقاء الحضارات البشرية أكبر.. لأن إضافات مستمرة تحدث لهذه الحضارات.. وكل إضافة تفتح الطريق أمام إضافة أكبر.

لماذا أعطى الله سبـحانه وتعالى البـشرية وحدها.. هـذه القدرة على الرقي الإنساني.. لنعرف جميعًا ونحن الذين أعطينا الاختيار في أن نؤمن أو لا نؤمن .. لنعرف جـميعًـا أن الجمود الفـعلي في أن ما هوغـيب عنا غير مـوجود هو خـرافة .. ونحـس في حيـاتنا كل يوم.. بأن هنـاك غيـبًـا عنا يصبـح واقعًـا معـلومًا.. ونرى المعـجزة تحـدث أمام أعـيننا مرات ومـرات، ونشهـدها برؤية اليـقين.. علّنا نتـدبَّر ونفكّر قليـلاً، فنعلم أن الله سبـحـانه وتعالـى بحكمتـه ورحمته.. قد أعطانا الدليل المادي على أن ما هو غَيْب عنا موجود.

فإذا أخبرنا بغَيْب لا ننكره . . ولكننا نؤمن بوجوده . . وبأن قدراتنا الحالية لا تصل إليه . . ولكنها قد تصل إليه في المستقبل . وفي ذلك يلفتنا القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[1] .

ونعرف معنى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] .

وهكذا ونحن نراقب مسيرة الحضارة البشرية نعلم أن الله قد أخبرنا أن هذه الحضارة سترتقى وترتقى بما يكشفه الله لنا من قوانين هذا الكون . . حتى نظن أننا قادرون على أن نفعل ما نشاء في الأرض . . وهذا الظن ليس حقيقة ولكنه مجرد ظن . . لأن الله الذي كشف لنا هذه القوانين لم يخضعها لإرادتنا . . ولكنه سبحانه سخّرها لنا فقط لنفعل بها ما نشاء .

فإذا اغترّ الإنسان واعتقد أن هذه القوانين من صنعه . . أو أنه أخضعها بذاتية علمه وبدون أمر الله تبارك وتعالى . . يأمر الله سبحانه وتعالى هذه القوانين أن تخرج عن أمر الإنسان فتدمّره وتقوم الساعة .

* * *

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

(٢) سورة يونس : ٢٤ .

الإعجاز العلمي فيما تحت الثرى

وإذا كنا نريد أن نتحدث عن دليل غيبي آخر يزيد من الأدلة العقلية التي تثبت وجود الله . . فلابد أن نقرأ قوله تعالى:

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾(١).

فلو قرأنا هذه الآية التي نزلت منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، لعلمنا أن أحدًا لم يكن يدري شيئًا ولفترة طويلة عن معنى:

﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾.

وكأن كل ما تحت الثرى أو ما تحت التراب أو في باطن الأرض هو غيب عنا.

ثم أراد الله سبحانه وتعالى . . أن يكشف لنا أن ما هو غيب عنا موجود . . وإن لم نكن ندري بوجوده . . فكشف لنا ما تحت الثرى . . فوجدنا أن ما تحت الأرض يحتوى على كنوز رهيبة . . وجدنا البترول والذهب والمعادن والحديد وأشياء نفيسة . . ووجدنا المياه الجوفية . . وجدنا عالمًا هائلاً يحتوى على مواد لم نكن نعلم بوجودها ولا نعرف شيئًا عنها.

وهكذا أعطانا الحق سبحانه وتعالى دليلاً آخر على أن ما هو غيب عنا موجود . . وإن كنا لا ندرك وجوده . . فلا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يدعى أنه هو الذي أوجد ما في باطن الأرض من كنوز . . ولا أحد مهما بلغ علمه ولا علماء الأرض مجتمعين يستطيعون أن يدّعوا أنهم هم الذين أوجدوا هذه البحيرات الهائلة من البترول . . أو هذه المعادن النفيسة كالذهب.

بل إن هناك كنوزاً تحت الثرى مختفية عن أعيننا تفوق الكنوز التي هى

(١) سورة طه: ٦.

ظاهرة لأعيننا فوق سطح الأرض.. وهذه الكنوز لم تأت من عدم ولم توجد في السنوات الأخيرة.. بل كانت موجودة في باطن الأرض منذ أن خلقها الله سبحانه وتعالى .. ولكنها كانت غيبًا عنا لم نكن نعرف بوجودها.

حينئذ نكون قد وصلنا إلى أن الله سبحانه وتعالى .. قد أعطانا من الأدلة المادية والعقلية ما يؤكد لنا أن ما هو غيب عنا موجود وإن لم نكن ندرك وجوده.

فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عما هو غيب عنا كالآخرة والحساب والجنة والنار.. لا نقول إن الله يخاطبنا بما لا تستطيع أن تدركه عقولنا.. وأننا لا نستطيع تصديق ذلك.. بل نعود إلى واقع الكون.. ونتأمل ما فيه من آيات .. وما وضعه الله لنا فيه من دلائل.. ولو أننا تدبرنا.. لقلنا يا رب لقد أعطيتنا مع الدليل الإيماني الدليل الفعلي الذي يقرب الصورة إلى أذهاننا حتى ندركها .. وليس لنا عذر يا رب يوم الحساب.. في أن نقول إن عقولنا لم تدرك، لأنك وضعت في كونك الأدلة المادية التي تثبت أن الغيب واقع وموجود.. وكان يجب أن تكون هذه الأدلة هى طريقنا إلى الإيمان.. لا طريقنا إلى الكفر والإلحاد.

على أننا سننتقل بعد ذلك إلى الآيات الأرضية .. التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا بها .. إلى أنه لا إله إلا هو الخالق والموجد والقادر.

* * *

الإعجاز العلمي وخشية العلماء

الله سبحانه وتعالى له آيات تملأ الأرض والسماء ولكننا غافلون عنها.. ومن الإعجاز الإلهي أن آيات الله لا تنتهي.. فإذا مشيت في الطريق فهناك آيات.. وإذا صعدت إلى الجبل فهناك آيات.. وإذا نزلت إلى قاع البحر وجدت آيات.. وإذا صعدت إلى السماء كانت هناك أكثر من آية .. وإذا نزلت إلى باطن الأرض فهناك آيات وآيات.. هناك آية في تلك الشجيرة الصغيرة التي تراها تنبت في سطح الجبل.. ساقها هشة لينة ربما لا تحتمل قبضة يدك ومع هذا فقد فتتت الصخر ونبتت فيه.. واستطاعت الرقيقة الرفيعة أن تمتد وتضرب في باطن الجبل وتحصل على الغذاء.

وتتعجب أنت كيف يمكن أن يحدث ذلك.. مع أنك لو أردت أن تصنع ثقبًا في سطح الجبل لاحتجت إلى آلات حادة وقوى كثيرة .. فتعرف أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقها قد ألان لها الصخر فنبتت فيه.. وألان لجذورها صخور الجبل فامتدت حتى وصلت إلى المصدر الذي يعطيها الغذاء..

هذه الآيات لا تحتاج إلى بحث ولا إلى ميكروسكوب .. ولكنها تحتاج لمجرد التأمل.. وفي الأرض آيات كثيرة لا تحتاج منا أكثر من أن نتأملها لنعرف قدرة الله وعظمته ونؤمن به.. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[١].

لماذا خص الله العلماء بالخشية؟ لأنهم وهم يبحثون في مخلوقات الله في الأرض.. يرون أسرارًا ودقة خلق وإبداع تكوين. كان يجب أن يجعلهم أول الساجدين لله.. أول العابدين لله.

(١) سورة فاطر: ٢٨.

ولكن هؤلاء العلمـاء الماديين بدلاً من أن يفـعلوا ذلك. . أخذوا يحـاولون النَّيْلَ من الدين ومن الإيمان. . والإنسـان يعتقـد أنه وصل إلى أسرار الكون. . ولكنه في الحقيقة لم يصل حتى إلى أسـرار نفسه. . بل إنه ينتقل من قانون إلى قانون ولا يعرف كيف ينتقل. . ولا ما هو سر هذا الانتقال.

* * *

الإعجاز العلمي في قوانين اليقظة والنوم

الإنسان وهو مستيقظ له قوانين ربما عرفنا بعضها.. ولكنه إذا نام انتقل إلى قانون مختلف تمامًا مجهول له.. فهو يخرج من الزمن.. فالإنسان وهو نائم لا يحسّ بالزمن.. فإذا استيقظ فهو لا يعرف كم ساعة نامها ولابد أن ينظر إلى ساعته ليعرف كم ساعة قضاها وهو غائب عن الدنيا.

إذن قانون الزمن لا يسرى على النائم فلا يحس بالوقت.. لماذا؟ .. لأن الزمن هو قياس للأحداث.. فنحن نقيس الأحداث بالزمن.. والنائم هو خارج عن هذه الأحداث.

والإنسان إذا نام رأى وعيناه مغمضتان . ومشى وجرى وقدماه لا تتحركان من فوق السرير.. وتحدَّث ولسانه لم يتحرك .. ورأى وتكلم مع أناس انتقلوا إلى العالم الآخر منذ سنوات.. ومع ذلك فهو يحدثهم ويسمعهم وهم يكلمونه ويفهم ما يقولون.. والعلم خارج هذه المنطقة تمامًا.. فلا يستطيع عالم أن يخبرنا كيف يرى الإنسان وهو نائم.. أو يتحرك أو يلتقى مع أناس انتقلوا للعالم الآخر.. وكل ما جاء عن هذا في محاولات أطلق عليها اسم العلم.. إنما هى تخمينات بلا دليل ومعظمها من الخيال أكثر من الواقع.. ومع أن كل هذا يحدث لكل منا ويحدث كل يوم.. تجد هناك من يعلن بوقاحة.. ويقول انتهى عصر الدين وجاء عصر العلم.. وهؤلاء إنما يقولون بهتانًا.. فالله هو الكاشف لعباده عن العلم .. هو القائل في كتابه الكريم:

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١).

---

(١) سورة العلق: ٣-٥.

ولكن الناس لا يؤمنون . . رغم أن هناك من الأدلة المادية في الكون ما لا يعدّ ولا يحصى. . يهدى الناس إلى طريق الإيمان وإلى وجود الله . . وهؤلاء الذين لا يؤمنون بعضهم منكر للدين لأنه يريد أن يكون هو مصدر التشريع.

منهج الله سبحانه وتعالى قائم على العَدْل بين الناس. . وأعطى كلّ ذي حق حقّه . . وهم يريدون أن يتميزوا وأن يأخذوا حقوق غيرهم. . ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يضعوا منهجًا من صنعهم . . يعطيهم كل شيء ويسلب غيرهم كل شيء. . والطريقة الوحيدة لذلك هى أن ينكروا منهج السماء.

والقسم الثاني فضّل أن يعيش مع النعمة بدلاً من أن يعيش مع المنعم. . وهؤلاء الناس الذي متعهم الله سبحانه وتعالى بنعمه في الدنيا لم يفكروا كيف جاءت هذه النعم. . ولكنهم أرادوا أن يأخذوا من النعم كل ما يستطيعون . .وأعماهم الطمع الإنساني. فلم يفكروا إلا في الحصول على نعمة المال أو نعمة السلطة أو غيرها من نعم الكَوْن . .وهؤلاء شغلوا أنفسهم بالمادة بدلاً من أن يفكّروا فيمن خلق المادة. . وأخذوا النعم في أنها حق لهم دون أن يبحثوا عمن أوجدها.

فرغم أن قوانينهم المادية التي يؤمنون بها. . تقول إنه لا شيء يحدث في الدنيا بدون فاعل. . فلم نجد مثلاً عمارة نشأت هكذا دون أن يكون لها مهندس وعمال وغير ذلك ممن أقاموها. . ولم يجلسوا في بيوتهم مثلاً ليجدوا كمية من المال ظهرت أمامهم فجأة . . وكل مصالحهم لابد أن يتحركوا لقضائها.

ومع أن قانون المادة يقول إنه لا يوجد فعل بدون فاعل. . فإنهم لم يطبقوا والعلماء في أبحاثهم يحاولون إنكار دور الدين إيمانًا بذاتيتهم فهم يريدون أن يقولوا نحن فعلنا ونحن اكتشفنا. . كما قال قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾[١].

ولذلك فليس في بالهم الله وسيفاجئون بالله سبحانه وتعالى في الآخرة مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[٢].

ولا يحسب أحد أن هؤلاء الذين كفروا.. فعلوا ذلك لأن آيات الله لم تصل إليهم.. بل الآيات أمامهم ولكنهم هم الذين يتكبرون على الإيمان.. ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[٣].

ولذلك فإن إعراضهم ليس على أن الدليل المادي على وجود الله غائب عنهم ولكن لأنهم يرفضون الإيمان.. إما ليحققوا مصالح ذاتية.. وإما لأنهم لا يؤمنون بالآخرة.. فيحاولون أن يأخذوا كل ما تعطيهم الدنيا على أن هذا هو كل شيء.. وتكون النتيجة أنهم يستخدمون كل الوسائل.. حلالاً أو حرامًا في الوصول إلى أهدافهم .. عملاً بمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة..

ولو أنهم فكروا قليلاً لوجدوا الآيات في القرآن الكريم معجزة .. ولو أنهم كانوا علماء وباحثين فعلاً.. لقرأوا القرآن الذي سمعوا عنه.. ودرسوا الإسلام دراسة غير مغرضة.. ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وإنهم مثلاً لو التفتوا إلى الآية الكريمة:

---

(١) سورة القصص: ٧٨.

(٢) سورة النور: ٣٩.

(٣) سورة يس: ٤٦.

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[(١)].

لعرفوا الإعجاز في هذه الآية وحدها.. ولكان الإعجاز فيها كافيًا لأن يؤمنوا.. الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وجعلنا آيةَ النَّهارِ مُبْصِرةً ﴾[(٢)].

وهكذا وصف الله النهار بأنه هو المبصر.. ولكن هل النهار هو الذي يبصر.. أم العين هى التي تبصر؟.. الذي نفهمه من تلقائية الإبصار أن العين هى التي تبصر.. ولكن الحقيقة العلمية تختلف.. فلقد ثبت علميًّا أن ضوء الشمس ينعكس على الأشياء ثم تدخل أشعة النور إلى العين فتبصر.

إذن فالعين لا تبصر بذاتها ولا بذاتيتها.. ولكنها تبصر بالضوء الذي ينعكس على الأشياء الموجودة أمامها ويدخل إلى العين.. فإذا ذهب هذا الضوء وجاء الظلام فإن العين لا تبصر ولا ترى شيئًا في الظلام الدامس.. إلا أن تأتي بمصباح أو مصدر من نور يلقى الضوء على الأشياء فينعكس على العين فتبصر.

وهكذا نرى دقة تعبير القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾.

فالإبصار نسبه الله سبحانه وتعالى لضوء النهار ولم ينسبه إلى العين.. ولقد نزلت هذه الآية والبشر كلهم لا يعلمون كيف يتم الإبصار؟.. ماذا كان يحدث لو تقدم العلم وكشف أن العين تبصر بذاتها وليس بانعكاس الضوء على الأشياء.. أكنا في هذه الحالة نستطيع أن نقرأ في الصلاة:

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾.

---

(١) سورة الإسراء: ١٢.

(٢) سورة الإسراء: ١٢.

ألم يكن هذا كافيًا لهدم قضية الدين من أساسه.

ولو أن هذا القرآن ليس من عند الله.. ولكنه من عند محمد عليه الصلاة والسلام.. فما الذي كان يجعله يغامر بذكر قضية علمية كهذه القضية قد يثبت عدم صحتها فيضيع الدين كله.. ومن أين له هذه المعلومات حتى يعرف أن الإبصار يحدث بضوء النهار؟.. أليس هذا دليلاً ماديًّا كافيًا للإيمان بالله.. وللإيمان بأن القرآن منزّل من عند الله الخالق لهذا الكون والعالم بأسراره.

* * *

عدم التصادم بين الحقائق العلمية

إن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة.. ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون.. لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل.. ولو حدث مثل هذا التصادم لضاعت قضية الدين كله.. ولكن التصادم يحدث من شيئين.. عدم فهم حقيقة قرآنية أو عدم صحة حقيقة علمية.. فإذا لم نفهم القرآن جيدًا وفسرناه بغير ما فيه حدث التصادم.. وإذا كانت الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم.. ولكن كيف لا نفهم الحقيقة القرآنية؟.. سنضرب مثلاً لذلك.. ليعلم الناس أن عدم فهم الحقيقة القرآنية قد يؤدي إلى تصادم مع حقائق الكون.. الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾[1].

والمد معناه البسط.. ومعنى ذلك أن الأرض مبسوطة.. ولو فهمنا الآية على هذا المعنى.. لاتهمنا كل من تحدث عن كروية الأرض بالكفر.. خصوصًا وإننا الآن بواسطة سفن الفضاء والأقمار الصناعية قد استطعنا أن نرى الأرض، على هيئة كرة تدور حول نفسها.. نقول إن كل من فهم الآية الكريمة:

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾.

بمعنى أن الأرض مبسوطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة.. ولكن المعنى يجمع الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي معًا.. ويعطي الحقيقة الظاهرة للعين.. والحقيقة العلمية المختفية عن العقول في وقت نزول القرآن.

---

(١) سورة الحجر: ١٩.

عندما قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾.

أي بسطناها.. أقال أي أرض؟ .. لا .. لم يحدد أرضًا بعينها.. بل قال الأرض على إطلاقها.. ومعنى ذلك أنك إذا وصلت إلى أي مكان يسمى أرضًا تراها أمامك ممدودة أي منبسطة.. فإذا كنت في خط الاستواء فالأرض أمامك منبسطة.. وإذا كنت في القطب الجنوبي أو في القطب الشمالي.. أو في أمريكا وأوربا أو في إفريقيا أو آسيا. أو في أي بقعة من الأرض.. فإنك تراها أمامك منبسطة.. ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية.. فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة أو على أي شكل هندسي آخر.. فإنك تصل فيها إلى حافة .. لا ترى أمامك الأرض منبسطة.. ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء.. ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة.. في كل بقعة تصل إليها هى أن تكون الأرض كروية.. حتى إذا بدأت من أي نقطة محددة على سطح الكرة الأرضية ثم ظللت تسير حتى عدت إلى نقطة البداية.. فإنك طوال مشوارك حول الأرض ستراها أمامك دائمًا منبسطة.. وما دام الأمر كذلك فإنك لا تسير في أي بقعة على الأرض إلا وأنت تراها أمامك منبسطة.

وهكذا كانت الآية الكريمة:

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾.

التي فهمها بعض الناس على أن الأرض مبسوطة دليل على كروية الأرض..

وهذا هو الإعجاز في القرآن الكريم.. يأتي باللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية.

ولذلك فإن الذين أساءوا فهم هذه الآية الكريمة وأخذوها على أن معناها أن

الأرض منبسطة.. قالوا هناك تصادم بين الدين والعلم.. والذين فهموا معنى الآية الكريمة فهمًا صحيحًا قالوا إن القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية.. وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بأن يؤمنوا.. ولكنهم لا يؤمنون.

القرآن الكريم لم يأت بالدلائل التي تؤكد لنا أن الأرض كروية في آية واحدة.. بل جاء بها في آيات متعددة.. لماذا؟.. لأن هذه قضية كونية كبرى.. ولأن الكتب القديمة التي أنزلها الله قبل القرآن الكريم قد حُرفت بشريًّا.. فأوجدت تصادمًا بين الدين والعلم.. ولذلك يأتي القرآن الكريم ليعطينا الدليل تلو الدليل على كروية الأرض.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة يس:

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١).

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يرد على اعتقاد غير صحيح كان موجودًا عند العرب وقت نزول القرآن.. وهو أن الليل يأتي أولاً ثم بعد ذلك يأتي النهار.. أي أن النهار لا يسبق الليل.. ويجيء الحق ليصحح هذا الاعتقاد الخاطيء فيقول:

﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾(٢).

أي إنكم تعتقدون أن النهار لا يسبق الليل.. ولكن الله يقول لكم إن الليل أيضًا لا يسبق النهار.. ومعنى أن النهار لا يسبق الليل وأن الليل لا يسبق النهار .. أنهما موجودان معًا على سطح الكرة الأرضية.. وحيث إنه لم يحدث تغيير

(١) سورة يس: ٤٠.

(٢) سورة يس: ٤٠.

في خلق الكون أو في القوانين الكونية العليا بعد أن تم الخلق.. بل بقيت ثابتة تسير على نظام دقيق حتى قيام الساعة.. فلو كانت الأرض على شكل هندسي آخر مربع أو مثلث أو غير ذلك.. لكان في ساعة الخلق وجد النهار أولاً.. ولكن لا يمكن أن يوجد الليل والنهار معًا في وقت واحد على سطح الكرة الأرضية.. إلا إذا كانت الأرض كروية.. فيكون نصف الكرة مضيئًا والنصف الآخر مظلمًا..

الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يتذكر

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد هذا المعنى.. فذكر آية أخرى تحدد معنى كروية الأرض ودورانها فقال جل جلاله:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (١).

ما معنى خلفة؟ .. معناها أن الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر.. فمثلاً في الحراسات المستمرة.. تأتي نوبة حراسة لتخلف نوبة سبقتها ثم تأتي النوبة الثالثة لتخلف الثانية وهكذا.

وإذا فرضنا أن مصنعًا يعمل أربعًا وعشرين ساعة متوالية.. فإنه يكون هناك أربع ورديات تخلف كل منها الأخرى.. ولكننا لابد أن نتنبه إلى أنه في كل هذه النظم.. لابد أن تكون هناك وردية هى التي بدأت ولم تخلف أحدًا.. فإذا قررنا وضع الحراسة على مكان وإذا بدأنا العلم في المصنع فإن الوردية الأولى التي افتتحت العمل لم تخلف أحدًا.. لأنه لم يكن هناك في المصنع عمل قبلها.

(١) سورة الفرقان: ٦٢.

وهكذا في كل شيء في الدنيا.. يخلف بعضه بعضًا.. تكون البداية دائمًا وليس هناك شيء قبلها تخلفه.. ولكن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾[1].

وما دام الله هو الذي جعل فلابد أن يكون ذلك قد حدث ساعة الخلق.. فأوجد الليل والنهار خلفة على الأرض.. ولكننا كما أوضحنا.. فإن ساعة البداية في كل شيء لا يكون فيه خلفة.. أي لا يخلف شيء شيئًا قبله. فهذه هى البدايات.. ولكن الله يقول لنا إنه في ساعة البداية كان الليل والنهار خلفة.. إذن فلابد أن يكون الليل والنهار قد وجدا معًا ساعة الخلق على الأرض.. بحيث أصبح كل منهما خلفة للآخر.. فلم يأت النهار أولاً ثم خلفه الليل. لأنه في هذه الحالة لا يكون النهار خلفة بل يكون بداية.. ولم يأت الليل أولاً ثم يخلفه النهار لأنه في هذه الحالة لن يكون الليل خلفة بل يكون بداية.. ولا يمكن أن يكون الليل والنهار كل منهما خلفة للآخر إلا إذا وجدا معًا.

ونحن نعلم أن الليل والنهار يتعاقبان علينا في أي بقعة من بقاع الأرض.. فلا توجد بقعة هى نهار دائم بلا ليل.. ولا توجد بقعة هى ليل دائم بلا نهار.. بل كل بقاع الأرض فيها ليل وفيها نهار.. ولو أن الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها.. ووجد الليل والنهار معًا ساعة الخلق فلن يكونا خلفة ولن يخلف أحدهما الآخر.. بل يظل الوضع ثابتًا كما حدث ساعة الخلق.. وبذلك لا يكون النهار خلفة لليل ولا الليل خلفة للنهار.

ولكن لكي يأتي الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر.. فلابد أن يكون هناك دوران للأرض لتحدث حركة تعاقب الليل والنهار.. فثبوت الأرض منذ

---

(١) سورة الفرقان: ٦٢.

بداية الخلق لا يجعل الليل والنهار يتعاقبان.. ولكن حركة دورن الأرض حول نفسها هى التي ينتج عنها هذا التعاقب أو هذه الخلفة التي أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ جَعلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾.

يحمل معنيين.. المعنى الأول أنهما خلقا معًا.. فلم يسبق أحدهما الآخر.. وهذا إخبار لنا من الله سبحانه وتعالى بأن الأرض كروية.

والمعنى الثاني أن الأرض تدور حول نفسها.. وبذلك يتعاقب الليل والنهار.

* * *

الإعجاز العلمي في تكوير الليل والنهار

وهكذا نرى الإعجاز القرآني .. فالقائل هو الله .. والخالق هو الله .. والمتكلم هو الله .. فجاء في جزء من آية قرآنية ليخبرنا أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها .. ولا ينسجم معنى هذه الآية الكريمة إلا بهاتين الحقيقتين معًا .. هل يوجد أكثر من ذلك دليل مادي على أن الله هو خالق هذا الكون؟

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى ليؤكد المعنى في هذه الحقيقة الكونية لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يُرى خلقه آياته فيقول:

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾[1].

وهكذا يصف الحق سبحانه وتعالى بأن الليل والنهار خلقا على هيئة التكوير. وبما أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض معًا فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير .. إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية .. بحيث يكون نصف الكرة مظلمًا والنصف الآخر مضيئًا .. وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيئًا والنصف الآخر مظلمًا.

فلو أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض غير متساويين في المساحة .. بحيث كان أحدهما يبدو شريطًا رفيعًا .. في حين يغطى الآخر معظم المساحة ما كان الاثنان معًا على هيئة كرة .. لأن الشريط الرفيع في هذه الحالة سيكون في شكل مستطيل أو مثلث أو مربع .. أو أي شكل هندسي آخر حسب المساحة

---

(١) سورة الزمر: ٥.

التي يحتلها فوق سطح الأرض.. وكان من الممكن أن يكون الوضع كذلك باختلاف مساحة الليل والنهار.. ولكن قوله تعالى:

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾[1].

دليل على أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلاً والنصف الآخر نهاراً.. وعندما تقدم العلم وصعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض وصورها..

وجدنا فعلاً أن نصفها مضيء ونصفها مظلم كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى.

دوران الأرض

إذا أردنا دليلاً آخر على دوران الأرض حول نفسها لابد أن نلتفت إلى الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[2].

عندما نقرأ هذه الآية ونحن نرى أمامنا الجبال ثابتة جامدة لا تتحرك.. نتعجب.. لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾.

ومعنى ذلك أن رؤيتنا للجبال ليست رؤية يقينية.. ولكن هناك شيئًا خلقه الله سبحانه وتعالى وخفى عن أبصارنا.. فما دمنا، نحسب فليست هذه هى الحقيقة.. أي أن ما نراه من ثبات الجبال وعدم حركتها.. ليس حقيقة كونية.. وإنما إتقان من الله سبحانه وتعالى وطلاقة قدرة منه.. بأنه خلق شيئًا جعلنا

(١) سورة الزمر: ٥.

(٢) سورة النمل: ٨٨.

نراه على غير حقيقته وتلك طلاقـة قدرة الخالق.. لأن الجبل ضخم كبير بحيث لا يخفى عن أي عين.. فلو أنه كان حجم الجبل دقـيقًا لقلنا لم تدركه أبصارنا كمـا يجب.. أو إننا لدقة حجـمه لم نلتـفت إليه هل هو متـحرك أم ثابت؟ . ولكن الله خلق الجبل ضخمًا يراه أقل الـناس إبصاراً.. حتى لا يحتج أحد بأن بصـره ضعـيف لا يدرك الأشيـاء الدقيـقة.. وفي نفس الوقت قـال لنا أن هذه الجبال الـثابتة تمر أمامكم مـر السحاب.. ولماذا استـخدم الحق سبحـانه وتعالى حركـة السحب وهو يصف لنا تحرك الجـبال؟ .. لأن السحب ليست لهـا ذاتية الحركـة .. فهى لا تتـحرك من مكان إلى آخـر بقدرتها الذاتـية.. بل لابد أن تتحـرك بقوة تحرك الرياح.. ولو سكنت الريـح لبقيت الســحب في مكانها بلا حركة .. وكذلك الجبال.

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن الجـبال ليست لها حركة ذاتية.. أي إنها لا تنتقل بذاتيتهـا من مكان إلى آخر.. فلا يكون هناك جبل في أوروبا، ثم نجده بعد ذلك فـي أمريكا أو آسيا.. ولكن تحـركها يتم بقوة خارجـة عنها هى التي تحركها.. وبما أن الجبال موجودة فوق الأرض.. فلا توجد قوة تحرك الجبال إلا إذا كانت الأرض نفسها تتحرك ومعها الجبال التي فوق سطحها.

وهكذا تبدو الجـبال أمامنـا ثابتة لأنها لا تغـير مكانها.. ولكـنها في نفس الوقت تتحـرك لأن الأرض تدور حول نفســها والجبال جـزء من الأرض، فهى تدور معـها تمامًا كـما تحرك الريح الســحاب.. ونحن لا نحس بدوران الأرض حول نفسها.. ولذلك لا نحس أيضًا بحركة الجبال.

وقوله تعالى:

﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ .

معناها أن هناك فـترة زمنية بين كل فتـرة تمر فيها.. ذلك لأن الـسحاب لا

يبقى دائمًا.. بل تأتي فترات ممطرة وفترات جافة وفترات تسطع فيها الشمس.. وكذلك حركة الجبال تدور وتعود إلى نفس المكان كل فترة.

إذا أردنا أن نمضى فالأرض مليئة بالآيات.. ولكننا نحن الذين لا نتنبه.. وإذا نبهنا أحد فإن الكفار يعرضون عن آيات الله.. تمامًا كما حدث مع رسول الله ﷺ.. حين قال له الكفار في قوله تعالى:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾[1].

وكان كل هذا معاندة منهم.. لأن الآيات التي نزلت في القرآن الكريم فيها من المعجزات الكثير الذي يجعلهم يؤمنون.

والحقائق الكونية في القرآن الكريم تتوالى.. والآيات تلو الآيات.. ترينا إعجاز الخَلْق.. ودقة إخبار الخالق لنا عن أسرار السموات والأرض.. الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾[2].

ولماذا لم يقل سيروا على الأرض.. ثم تأتي الحقيقة العلمية وهى إننا فعلاً نسير في الأرض.. وليس على الأرض.. لأن هناك غلافًا جويًّا يحيط بالأرض وهو جزء منها.. ونحن لا نخرج من الأرض إلا إذا خرجنا من هذا الغلاف الجوي.

فالطائرات التي تطير على ارتفاعات مختلفة تطير في الأرض وليس خارج الأرض.. ولكن الذي يخرج من الأرض هى سفن الفضاء التي تتجاوز الغلاف

(١) سورة الإسراء: ٩٠-٩٢.

(٢) سورة النمل: ٦٩.

الجوي للأرض . . وبدون تجاوز هذا الغلاف لا تستطيع أن ترى صورة الأرض كاملة . . لأنك ما دمت قد أصبحت خارج الشيء تتضح أمامك الصورة . . فأنت خارج عمارة مثلاً تستطيع أن تعرف شكل العمارة. . ولكنك من داخلها ومن أي مكان فيها. . لا تستطيع أن ترى الصورة كاملة.

وعلى أية حال. . فإنه علميًّا أنت لا تكون خارج الأرض إلا إذا خرجت من الغلاف الجوي المحيط بها. . لأن الأرض والغلاف الجوي شيء واحد.

قوله تعالى:

﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾.

يجعلنا نتساءل أين نسير؟. نحن نسير حقيقة على سطح الأرض ولكننا نسير في الأَرْضِ. أي بين سطح الأرض والغلاف الجوي. . فما تحتنا هو أرض وما فوقنا هو جزء مكمل للأرض، وهو الغلاف الجوي. . وهكذا نرى دقة تعبير القرآن الكريم في وصفه لحركة الإنسان في الأرض.

وإذا كان هذا الوصف يعطينا معجزة . . فإن الأرض نفسها تعطينا معجزة أخرى.

نحن نرى ونمشي في مزارع الأرض وحدائقها. . ونرى أمامنا الأشجار المختلفة والنباتات المختلفة. . ولكن هل يفكر أحد منا في معجزة الخلق في هذه النباتات التي نراها كل يوم . . نحن نعرف أن النباتات تحصل على غذائها بواسطة جذورها الشعرية الدقيقة. . التي تضرب في الأرض . . فتأخذ منها عناصر الغذاء التي تعطيها النمو والثمر. . هذه الأشجار كيف تتغذى.

يقول العلماء إن الغذاء يصعد من جذور النباتات إلى الساق والأوراق والثمار ليغذيها . . بواسطة ما يسمى بالضغط الأسموزي. أو نظرية الأنابيب الشعرية. . ويدللون على صحة نظريتهم بأنهم يأتون بإناء واسع ويضعون فيه

أنابيب شعرية.. فنرى الماء يصعد فيها.. وهكذا أراد العلم أن يفهمنا أن العملية فيها ميكانيكية الغذاء.. دون أن يكون فيها آيات الخلق وإعجاز الخالق.

نقول: إن هذا التفسير العلمي قد أوضح شيئًا وغابت عنه أشياء.. فالماء يصعد فعلاً في هذه الأنابيب الشعرية.. ولكنه يصعد بكل محتوياته .. فالأنابيب الشعرية لا تميز بين عناصر الماء.. فتأخذ عنصرًا وتترك عنصرا.. ولكن في النبات .. الأمر يختلف تمامًا.. فالغذاء في الأرض بعناصره كلها واحد متجانس.. ولكننا نرى كل شجرة تأخذ من هذا الغذاء ما يناسب ثمارها.. أي إنها تختار العناصر اللازمة لها.. وتترك الباقي ولا تأخذه .. ولذلك نرى الزرع ينبت في مكان واحد ويسقى بماء واحد.. ولكن كل ثمرة لها طعم وشكل ولون ورائحة وحجم يختلف عن الأخرى.. فهذه حلوة .. وهذه مُرّة.. وهذه صغيرة وهذه كبيرة.. وهذه لونها أحمر وتلك لونها أصفر.. والثالثة لونها أبيض.. وهذه لها رائحة نفاذة وتلك ليس لها رائحة .. أشكال وألوان مختلفة .. وكل شجرة من هذه الأشجار تأخذ من الأرض ما يناسبها من عناصر للتكوين الدقيق لها بكل تفاصيله وتترك الباقي.. ونرى شجرة التفاح ثمرها حلو ورائحتها نفاذة .. وبجانبها الليمون طعمه حامض وبجانبها الحنظل طعمه مر .. وثمرة نأكلها ونترك ما بداخلها مثل المشمش والخوخ والبلح.. وثمرة ننزع غلافها ولا نأكله ولكننا نرميه كالبرتقال والبطيخ.. وثمرة لها غلاف هشّ كالبرقوق مثلاً .. وثمرة غلافها جامد قوى لا تستطيع أن تنزعه بيدك كالجوز واللوز والبندق وجوز الهند.. وثمرة صالحة للتخزين أيامًا أو أسابيع كأنواع من البطيخ.. وثمرة صالحة للتخزين شهورًا طويلة كالجوز واللّوز.

وأستطيع أن أمضى بلا نهاية في وصف أنواع الثمر المختلفة التي تنبتها الأشجار.. ولكنني أفضل أن أذكر الآية الكريمة التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

ونحن نمرّ على الجنات الموجودة في كل أنحاء الأرض ونرى هذه الآيات.. ثم بعد ذلك نتساءل أين الدليل المادي على أن الله هو الخالق.. سبحانك يا ربي القائل:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[2].

وصدق الله العظيم في قوله تعالى:

﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[3].

* * *

---

(١) سورة الرعد: ٤.

(٢) سورة الأنعام: ٤.

(٣) سورة عبس: ١٧.

◘ معجزة الجنين في بطن أمه ◘

إذا أردنا أن نبدأ بمعجزة الجنين وما ذكر عنها في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا.. وما كشفه العلم يقينًا وصوّره وعرض علينا صوره.. إن علم الأجنة لم يعرفه العالم بشكل واضح إلا في القرن العشرين.. ففي القرن السابع عشر كان العلم يقول الإنسان يخلق خلقًا كاملاً في الحيوان المنوي للرجل على صورته الإنسانية.. أي إنك إذا أخذت الحيوان المنوي واستطعت أن تكبره وجدت فيه الإنسان بكل تفاصيله مخلقًا خلقًا كاملاً.. أي إن الإنسان لا يخلق على أطوار في بطن أمه بل يخلق مرة واحدة.. وفي القرن الثامن عشر تغيرت الصورة عندما اكتشفوا بويضة المرأة .. وركز العلم على دور المرأة في الحمل وأهملوا دور الرجل.. وقالوا إن بويضة المرأة هى التي فيها الإنسان الكامل لأنها الأكبر.. وأن نطفة الرجل هى مجرد عملية تلقيح فقط لا غير.

وظل هذا الرأى سائدًا حتى القرن العشرين.. وجاء العلم الحديث ليغير الصورة تمامًا.. ويعطينا صورة جديدة للجنين في بطن أمه.. ويأتي بصور تثبت ذلك.. حتى إن العملية أصبحت أمرًا يقينًا لأنه يمكن تصوير الجنين وهو يتطور وينمو في بطن أمه.

وكان للقرآن الكريم في هذا كلمة.. ذلك أن القرآن جاء بوصف دقيق لأطوار الجنين منذ أربعة عشر قرنًا.. يوم أن كانت الدنيا كلها بكل من فيها وما فيها لا تعرف شيئًا عما في بطن الأم.. وذكر القرآن لهذه الآيات لا يمكن أن يأتي إلا إذا كان هذا القرآن منزلاً من عند الله.

ومحمد النبي الأمي ﷺ لم يكن يملك من العلم البشري شيئًا.. وحتى لو كان يملك فلم يكن علم البشر يعرف شيئًا.. وكما قلت فإن المخاطرة بذكر شيء

علمي في القرآن لا يمكن أن يقـدم عليها بشر. . لماذا؟ . . لأن القـرآن هو كلام الله الذي لا يتغيـر ولا يتبدل والمتعـبد بتلاوته إلى يوم القيـامة . . فكيف يكون موقف الديـن. . وموقف المسلمين إذا ذكر فـي القرآن شيء يمس العلم البـشري . . ثم جاءت الأبحاث وتقدمت العلوم واكتشـفت أن هذا غير صحيح. . كانت ستـضيع قـضيـة الدين كله. . وما الذي يجـعل محـمداً ﷺ يخوض في هذه الأشياء لأن البـشرية كلها كانت تجـهلها . . فيتطوع هو ويعطـى أعداء الدين ما يهدمونه به.

* * *

◘ أطوار الجنين في القرآن الكريم ◘

ماذا قال القرآن الكريم عن أطوار الجنين؟ .. قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(١).

فإذا بدأنا بهذه الآية تفصيلاً .. فهي تذكر أولاً أن خلق الإنسان من طين .. ومعنى ذلك أنها حددت المادة التي خلق منها الإنسان وهي الطين .. والطين موجود في كل مكان في الأرض .. والعلماء أخذوا الطين وحللوه .. فوجدوه يتكون من ثمانية عشر عنصراً .. منها الحديد والبوتاسيوم والمغنسيوم وغير ذلك من المواد .. ثم درسوا جسم الإنسان فوجدوه يتكون من نفس هذه المواد .. وهي الثمانية عشر عنصراً التي يتكون منها الطين ..

وهكذا جاءت الحقيقة الأولى .. حقيقة مشاهدة معملية لا تخضع للجدل ثم بدأ القرآن في وصف خلق الإنسان في بطن أمه .. فتقول الآية الكريمة :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾.

والقرار المكين هو رحم الأم .. ثم تأتي مسألة العلقة .. ونترك الحديث للبروفيسور الكندي كيث ل. مور .. وهو من أشهر علماء العالم في علم الأجنة .. ورئيس قسم التشريح والأجنة بجامعة تورنتو بكندا .. ورئيس الاتحاد الكندي الأمريكي لعلماء الأجنة .. وله عدة كتب مترجمة إلى ثماني لغات ..

---

(١) سورة المؤمنون: ١٢-١٤.

وهو الحائز على الجائزة الأولى في العالم عن كتابه عن علم الأجنة.. هذه الجائزة التي تعطي لأحسن كتاب ألفه مؤلف واحد.

قال الدكتور كيث ل . مور إن الجنين عندما يبدأ في النمو في بطن أمه يكون شكله يشبه العلقة أو الدودة.. وعرض صورة بالأشعة لبداية خلق الجنين ومعها صورة للعلقة .. فظهر التشابه واضحًا بين الاثنين.. ولما قيل له: إن العلقة عند العرب معناها الدم المتجمد.. ذهل. وقال إن ما ذكر في القرآن ليس وصفًا دقيقًا فقط لشكل الجنين الخارجي.. ولكنه وصف دقيق لتكوينه .. ذلك إنه في مرحلة العلقة تكون الدماء محبوسة في العروق الدقيقة في شكل الدم المتجمد.

فإذا جئنا إلى المرحلة الثانية في قوله تعالى:

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾

فإن القرآن الكريم جاء بالوصف الدقيق.. فعندما عرضت صورة الأشعة المأخوذة للجنين وهو في مرحلة المضغة .. وصورة قطعة من الصلصال أو اللبان الممضوغ.. وجد الشكل واحداً.. ثم أظهرت صورة الأشعة التي التقطت للجنين في مرحلة المضغة وجدت فيها تجويفات تشبه علامات الأسنان .. بل إن الله سبحانه وتعالى قد تجاوز مرحلة الشكل الخارجي إلى التكوين الداخلي.. فقال جل جلاله:

﴿ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾[(١)].

وعندما جيء بالمضغة الآدمية من بطن الأم وطولها سنتيمتر واحد.. وتم تشريحها تحت الميكروسكوب الإلكتروني .. وجد أن بعض أجهزة الجنين بدأت تتخلق وبعضها لم يتخلق . ولو أن القرآن الكريم قال مضغة مخلقة... لكان ذلك لا ينطبق على حقيقة التكوين.. لأن فيها أجزاء غير مخلقة.

---

(١) سورة الحج: ٥.

ولو قال القـرآن الكريم مضغـة غير مخلقـة . . لكان ذلك لا يطابق حقيـقة التكوين لأن فيـها أجزاء مخـلقة . . ولكن الوصف الدقيق الوحـيد الذي ينطبق على المضغة هو قوله تعالى: ﴿مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ (١).

ولقد عـرض العالم الكندي كل أطوار الجنين في بطن أمـه . . والتي التقطت بأحـدث الأجهـزة العلميـة، فإذا هي تنطـبق تمامًا على كل مـا ذكر في القـرآن الكريم . . من مراحل تكوين العظام واللحم إلى غير ذلك . .

ولما قيل للدكـتور كيث ل . مـور هل كان من الممكن أن يعـرف رسول الله ﷺ هذه التفصيلات عن أطوار الجنين؟ . . قال مـستحيل . . إن العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجنين يخلق أطوارًا . . فما بالكم بتحديد مراحل هذه الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الآن أن يحددها بهذه السهولة والدقة . . بل إن العلم لم يستطع حتى الآن تسمـية أطوار الجنين، بل أعطاها أرقامًا بشكل معقد غير مفهوم . . في حين جاءت في القرآن بأسماء محددة وبسيطة وغاية في الدقة.

يتضح لي أن هذه الأدلة حتمًا جـاءت لمحمد من عند الله . . وهذا يثبت لي أن محـمدًا رسول الله . . فقـيل له : بعد أن قلت مـا قلت . . أفلا تسلم؟ . . فقال إنه مستبعد أن يضع في الطبعات القادمة من كتبه إشارة إلى ما علمت .

ولقد قـرىء معنى الآيات التـي جاءت في القرآن الـكريم على أكبر عـلماء الأجنة في العـالم . . فلم يجرؤ واحد مـنهم أن يدعى أن هناك تصادمًـا بين ما جاء في القرآن الكريم وأحدث ما وصل إليه العلم.

ولكن أحـدهم أثار أن الوراثة أو البرنامج الوراثي للإنســان يوجد في نـطفة الرجل . . ويتحدد فيـها تفاصيل الإنسان الذي سيـولد أذكر أم أنثى؟ ما هو لون

(١) سورة الحج: ٥.

العينين ولون الجلد ولون الشعر إلى آخـره.. أي إن الإنسان تكون صفات خلقه موجودة في شفرة خاصة في نطفة الرجل.. فلما قرئت عليه الآية الكريمة:

﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾(١).

قال لا يمكن أن يكون هذا إلا من عند الله.

هذه الأبحاث كلها التي ذكرتها وشهـادات العلماء مدونة ومسجلة بالصوت والصورة في المؤتمرات المتعاقبـة عن الإعجاز في القرآن الكريم.. وهي مؤتمرات عقدت في الدول الإسلامية المختلفة.. ويستطيع كل من يريد أن يرجع إلى هذه الأشرطة ويشاهـد هؤلاء العلماء وهم يتحدثون ويتكلمـون.. بل إن عالمًا منهم شهر إسلامه، وشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أمام الحاضرين في أحد هذه المؤتمرات.. وهو البروفيسـور التايلاندي تاجاثات تاجاسن.. وهو من أكبر علماء العالم في علم التشـريح.. وذلك عندما كان يتحدث عن الأعصاب .. وكيف أنهـا موجودة تحت الجلد مبـاشرة .. بحيث إذا احتـرق الجلد انتهى الإحساس بالألم تمامًا.. والله سبحانه وتعالى يقول عن أهل النار:

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ﴾(٢).

ذلك أن الحق سبـحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن عـذاب النار.. عذاب دائم ومستمـر لا يخفف ولا يتوقف.. ولما كان في علمه سبـحانه وتعالى وهو الخالق.. أن الجلود إذا احترقت انتهى إحـساس الإنسان بالألم.. نبهنا أن جلود أهل النار كلما احترقت بدلهم الله جلودًا غيرها ليستمر شعورهم بالعذاب..

* * *

---

(١) سورة عبس: ١٧-١٩.

(٢) سورة النساء: ٥٦.

إسلام البروفيسور تاجاثات

وعندما عرض معنى هذه الآيات على البروفيسور تاجاثات جاسن.. قال: أهذا الكلام قيل منذ أربعة عشر قرنًا؟.. قالوا نعم.. قال إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثًا.. ولا يمكن أن يكون قائلها بشرًا.. بل هى من الله سبحانه وتعالى.. حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ولنا أن نتأمل في هذه الآية الكريمة:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ ﴾[1].

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الله سبحانه وتعالى لم يلفتنا إلى أنه كلما احترقت جلود أهل النار بدلهم غيرها.. أكان من الممكن أن نعرف كيف سيستمر عذاب أهل النار.. بلا توقف ولا يخفف عنهم.

لو أن الحقيقة العلمية بأن الأعصاب موجودة تحت الجلد.. وإذا احترق الجلد لا يحس الإنسان بالألم.. ذكرت دون أن يبين لنا القرآن الكريم كيفية استمرار العذاب .. كان الكفار العاصون سيقولون سنعذب فترة قصيرة حتى تحترق جلودنا.. ثم بعد ذلك لا نحس بأي عذاب أو ألم.. ولكان هذا تشجيعًا للإنسان على الاستهانة بعذاب الله في الآخرة.. لأنه لن يستمر العذاب إلا لفترة قصيرة يحترق فيها الجلد وينتهي العذاب.. ولوجد هناك تصادمًا بين القرآن الكريم والحقائق العلمية .. في أن الكفار سيخلدون في عذاب جهنم.. وذلك في قوله سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة النساء: ٥٦.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾(1)

ولا يفتر معناه لا يخفف.. فكيف يقول الله سبحانه وتعالى أن أهل جهنم سيخلدون في العذاب.. وأنه لن يخفف عنهم.. مع أنهم إذا احترقت جلودهم فقدوا الإحساس بالعذاب والألم.. ومن الذي أبلغ رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة العلمية حول الإحساس بالألم.. وهذا ما لم يعرفه البشر إلا حديثًا .. ألا يكفى هذا كدليل مادي على أن القرآن الكريم من عند الله؟ .. ألا يكفى هذا أيضًا كدليل مادي.. على أن الذي خلق هو الذي قال؟ .. وإذا كان هذا قد دفع عالمًا من أكبر علماء علم التشريح وهو العارف بأسرار هذا العلم.. أن يعلن إسلامه أمام الناس في مؤتمر عام.. وقد بهره الإعجاز الإلهي ووجد بين يديه الدليل المادي على وجود الله فنطق بالشهادتين .. ألا يكفى هذا ليؤمن العالم كله ويؤمن أهل الأرض جميعًا؟.

* * *

(1) سورة الزخرف: ٧٤، ٧٥.

العالم يتعلم من القرآن الكريم

ونحن نكتفي بهذا الجزء بالنسبة للإنسان.. ذلك أننا نريد أن نتحدث عن آيات أخرى في الكون بالنسبة لغير الإنسان.. بالنسبة للكون نفسه.. والأصل الواحد للكون..

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

لقد عرض معنى هذه الآية في مؤتمر الإعجاز القرآني في السعودية على الدكتور الفريد كرونر من أشهر علماء العالم في الجيولوجيا.. وعندما قرأ المعنى أخذ يصيح: مستحيل.. مستحيل أن تكون هذه الحقائق قد ذكرت في أي كتاب منذ أربعة عشر قرنًا.. إننا لم نصل إلى هذه الحقيقة العلمية إلا منذ سنوات.. وباستخدام وسائل علمية متقدمة جدًا وبعد دراسات معقدة طويلة خاصة بعلم الطبيعة النووية.. والأصل الواحد للكون لا يمكن أن يكون قد توصل إليه بشر منذ ألف وأربعمائة سنة.. ولكن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد ﷺ منذ ألف وأربعمائة سنة..

ولعلنا جميعًا ما زلنا نذكر تجربة صعود الإنسان إلى القمر.. وكيف كان العلماء يحلمون قبل إتمام هذه التجربة.. بالعناصر النادرة التي سيجدونها على سطح القمر.. وبالمواد التي سيحضرونها.. وكيف أنه سيكون فيها مواد تشفي أمراضًا لا يوجد لها دواء على الأرض.. ومواد إذا أضيفت لعناصر الأرض

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.

نتجت عنها عنـاصر جديدة لم تعرفهـا البشرية.. وأخذت أحلامـهم تزداد عما سيضيفونه إلى الكرة الأرضية من عناصر غير موجودة.

واشتد الخيال وامتلأت الرءوس بالأحلام..

* * *

صعود الإنسان على القمر

ثم ماذا حدث؟ . . صعد الإنسان إلى القمر ومشى فوق سطحه. . وجاء بعينات من الصخور التي على السطح. . ومن الصخور الموجودة تحت السطح وعادوا بها إلى الأرض. . وإذا بهم يكتشفون أن سطح القمر مكون من نفس عناصر سطح الأرض. . وأن صخور القمر في تركيباتها هي نفس صخور الأرض وأنهما من أصل واحد.

ألم يكن هذا كافيًا كدليل مادي قوي على أن يؤمنوا؟ . . ألم يكن إثبات نظرية الأصل الواحد للسموات والأرض . . الذي أخبرنا الله به سبحانه وتعالى في القرآن الكريم. . منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة دليلاً كافيًا على وجود الله. . وعلى أنه الخالق؟ . . إن العالم الذي قال إن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد منذ ألف وأربعمائة سنة، وهو البروفيسور ألفريد كرونر . . عالم مراوغ جداً. . حتى أنه كان يحاول أن يتهرب من الإجابة. . حتى لا يشهد بأن هذا العلم قد أنزل من الله سبحانه وتعالى. . حتى أنه في كلّ ما قاله كان يقول إن ما قاله محمد فقالوا له: ستثبت لك أن محمداً لم يكن ينطق إلا بوحي من الله. . وأنه في عدد من الأحاديث النبوية إعجاز نرجو أن تفسره لنا. .

قال رسول الله ﷺ في حديث رواه أبو هريرة وجاء في البخاري ومسلم . . روى حديثًا يقول في جزء منه: «**لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهاراً**»[1] أي مزارع وبساتين وأنهاراً. . ولما سئل الدكتور كرونر هل

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٠)، والطبراني كما في المجمع (٧/ ٣٣١)، وأبو نعيم (٧/ ١٤١)، في الحلية، والحاكم (٤/ ٤٧٧)، وانظر: السلسلة الصحيحة (٦) للألباني رحمه الله.

كانت أرض العرب بساتين وأنهاراً كما روى رسول الله ﷺ قال نعم.. فقيل له متى كان ذلك؟ .. قال في العصر الجليدي الأول الذي مر به العالم في عصوره الأولى..

وسئل كرونر من الذي أخبر رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة.. قال ربما علم ذلك من الرومان الذين كانوا متقدمين في هذه العلوم. فسألوه هل تعود بلاد العرب بساتين وأنهاراً مرة أخرى؟ .. قال نعم هذه حقيقة علمية .. قالوا كيف تقول على شيء سيقع في المستقبل إنه حقيقة علمية.. قال لأن العصر الجليدي الثاني بدأ.. ومن مقدماته ذلك الشتاء القارس والعواصف الثلجية التي بدأت تزحف على أوربا في السنوات الأخيرة.. وكل شتاء سيأتي سيكون أقسى من الذي قبله.. فكتلة الجليد في القطب الشمالي بدأت تزحف ببطء نحو الجنوب.. وهي في كل عام تقترب.. ولكن ببطء جداً من المنطقة التي فيها بلاد العرب.. وعندما يزداد هذا الاقتراب بعد فترة طويلة من منطقة بلاد العرب ستعود بساتين وأنهاراً..

والعجيب أنه في الشتاء الماضي غمرت الثلوج أرض السعودية لأول مرة منذ قرون طويلة.. وصلت درجة الحرارة هناك إلى عدة درجات تحت الصفر..

وعندما سئل الدكتور كرونر هل الرومان هم الذين أخبروا رسول الله ﷺ .. بأن بلاد العرب ستعود بساتين وأنهاراً؟ .. قال لا يمكن أن يحدث ذلك إلا بوحي من السماء.

* * *

الإعجاز العلمي وسرّ الحياة

نعود إلى الآية الكريمة ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾(١).. في هذه الآية أعطانا الله سرًّا من أسرار الحياة وهو الماء..

ولقد أصبح هذا حقيقة علمية يعترف بها العالم أجمع.. فالصور الحديثة التي تلتقط بالأقمار الصناعية وسفن الفضاء والكواكب القريبة من الأرض.. يستطيع العلماء أن يتنبأوا إذا كان في هذه الكواكب حياة أم لا.. رغم أن هذه الصور لا تأتي بالتفاصيل الدقيقة التي تبين إذا كانت هناك مخلوقات موجودة على سطح هذه الكواكب أم لا.. ولكن مجرد علمهم بأن الصور لا تدل على وجود الماء على سطح الكوكب فإنهم يؤكدون أنه لا حياة فيه.. فإذا كان هناك ما يشير إلى أن الماء موجود تحدثوا عن احتمالات الحياة.. وعملية وجود الماء هى من قدرة الله سبحانه وتعالى التي احتفظ بها لنفسه..وهى عندنا في الأرض تتم دون عمل من الإنسان .. بل هى عطاء من الله.. بخار الماء يصعد من المحيطات والبحار.. ويتكثف في طبقات الجو العليا وينزل مطراً.. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الواقعة:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾(٢).

إذن الماء هو رزق من السماء بقدرة الله.. وكل من يدعى غير ذلك نطالبه أن ينشىء لنا نهراً صغيراً وسط الصحراء.. ويملأه بالماء إن كان يستطيع.. ولن

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٢) سورة الواقعة: ٦٨-٧٠.

يستطيع . . ولكن اعتراف العلم ويقينه من أن وجـود الماء معناه وجود الحياة . . لم يلفتـهم إلى ما ذكـره القرآن الكريم منذ أربعة عـشر قـرنًا . . وكان يجب أن يلتفتوا إلى هذا الإعجاز . . فيؤمنوا بالله خالقًا وموجودًا وإلهاً واحدًا . . ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1] . . وقد قدم لهم الدليل المادي في الأصل الواحد للسموات والأرض . . ومن أن الماء هو سر الحيـاة . . فإنهم لم يؤمنوا وحـينئذ يكون عـدم إيمانهم مكابرة وعنادًا . . ويـكون عذابهم في جـهنم عدلاً من الله . . الذي أعطاهم الدليل تلو الدليل . . ومع ذلك لا يؤمنون.

* * *

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.

الإعجاز في خلق السموات والأرض

وقبل أن نترك السماء وآياتها.. لابد أن نتحدث عن الإعجاز في خلق السموات والأرض.. نحن ننظر إلى السماء ونرى أشياء وتغيب عنا أشياء مثلاً عندما عرض معنى الآية الكريمة:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1].

قرأ البروفيسور يوشيدي كوزاى مدير مرصد طوكيو هذا الكلام وأراد أن ينهى المناقشة .. وقال العلم لم يصل إلا منذ فترة بسيطة جداً إلى أن السماء كانت دخانًا.. وقد أصبح هذا شيئًا مشهوداً ومرئيًا الآن .. بعد إطلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية وعرض صوراً التقطت لنجم في السماء وهو يتكون .. وقد بدا كتلة من الدخان في وسطها تكون الجزء المضيء من النجم وحوله الدخان وتحيط بالدخان حافة حمراء دليل على ارتفاع درجة الحرارة..

وقال لقد كنا نعتقد منذ سنوات فقط أن السماء كانت ضبابًا.. ولكننا عرفنا الآن بعد التقدم العلمي بأنها ليست ضبابًا ولكنها دخان.. لأن الضباب خامد وبارد.. والدخان حار وفيه حركة .. وهذا يدل على أن السماء كانت دخانًا.. وقال إنني متأثر جداً باكتشاف هذه الحقيقة في القرآن..

وإذا كنا نريد أن نمضي في التفاصيل.. ليقتنع من لم يقتنع .. فإننا نستعرض بسرعة.. بعض ما قاله أشهر علماء العالم في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.. الدكتور استروخ من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية

---

(١) سورة فصلت: ١١.

للفضاء قـال: لقد أجرينا أبحاثًا كثـيرة على معادن الأرض وأبحاثًا مـعملية . . ولكن المعدن الوحيد الذي يحير العلـماء هو الحديد . . قدرات الحديد لها تكوين مميز . . إن الالكترونات والنيـترونات في ذرة الحديد لكي تتحد . . محـتاجة إلى طاقـة هائلـة تبلـغ أربـع مـرات مجـمـوع الطاقـة الموجـودة في مـجمـوعـتنا الشمـسية . . ولذلك فلا يمكن أن يكون الحـديد قد تكوّن على الأرض . . ولابد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكوّن فيها . . فلما ترجموا له معنى الآية الكريمـة:

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾[1].

قال: إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من كلام بشر.

فـإذا تركنا السـماء وأسـرارها ونزلـنا إلى أعمـاق البـحار وجـدنا شـيئًـا عجـيبًا . . إن الصـور الحديثـة التي التقطت للبحـار قد أثبتت أن بحـار الدنيا ليـست مـوحـدة الـتكويـن . . بـل تختـلـف في الحـرارة والملوحـة والكـثـافة ونسـبة الأكـسوجين. وفي صورة التقطت بالأقـمار الصناعية . . ظهـر كل بحر بلون مختلـف عن البحر الآخر . . فبـعضها أزرق قاتم وبعـضها أسود وبعـضها أصفر . . وذلك بسـبب اختلاف درجات الحرارة في كل بحـر عن الآخر . . وقد التـقطت هذه الصورة بالخـاصـية الحـرارية . . وبالأقمـار الصناعـية ومن سـفن الفضاء . . وظهر خط أبيض رفيع يفـصل بين كل بحر وآخر . . فإذا قرأت الآية الكريمـة . .

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾[2].

نجد أن وسائل العلم الحديثة قـد وصلت إلى تصوير البرزخ بين البحرين . .

---

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) سورة الرحمن: ١٩، ٢٠.

وبينت معنى ﴿لاَ يَبْغِيَانِ﴾ . . بأن مياه أي بحر حين تـدخل إلى البحر الآخر عن طريق البرزخ . . فإنها تأخذ وقت دخولها خصائص البحر الذي تدخل له . . فلا تبغى مياه بحر على مياه بحر آخر فتغيرها.

ولقد تم الوصول إلى هذه الحقائق بعد إقامة مئات من المحطات البحرية . . والتقـاط الصور بالأقـمار الصناعيـة . . والذي قال هذا الكلام هو البـروفيـسور شرايدر من أكبر علماء البحار بألمانيـا الغربية . . الذي كان يقول في أول كلامه: إذا تقدم العلم فلابد أن يتـراجع الدين . . فعندما سمع مـعاني آيات القرآن بهت وقال: إن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر.

ويأتي البروفيسـور دورجاروا أستاذ علم جيولوجيا البـحار ليعطينا ما وصل إليه العلم في قوله تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (١).

فيـقول لقد كـان الإنسان في الماضي لا يسـتطيع أن يغوص بدون استـخدام الآلات أكثر من عـشرين متراً . . ولكننا نغوص الآن في أعمـاق البحار بواسطة المعدات الحديثة . . فنجد ظلامًا شديداً على عمق مائتي متر.

الآية الكريمة تقول: ﴿بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ . . وأعطتنا اكتـشافات أعمـاق البحار صورة لمعنى قوله تعالى: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ .

فـالمعروف أن ألوان الـطيف سبـعـة . . منها الأحـمـر والأصفـر والأزرق والأخضـر والبرتقالـي إلى آخره . . فإذا غـصنا في أعماق البـحر تخـتفى هذه الألوان واحداً بعد الآخر . . واختفاء كل لون يعطى ظلمة . .

---

(١) سورة النور: ٤٠.

فالأحمر يختفي أولاً ثم البرتقالي ثم الأصفر.. وآخر الألوان اختفاء هو اللون الأزرق على عمق مائتي متر.. كل لون يختفي يعطي جزءاً من الظلمة حتى تصل إلى الظلمة الكاملة.. أما قوله تعالى: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾.. فقد ثبت علميًّا أن هناك فاصلاً بين الجزء العميق من البحر والجزء العلوي.. وأن هذا الفاصل مليء بالأمواج.. فكأن هناك أمواجًا على حافة الجزء العميق المظلم من البحر وهذه لا نراها.. وهناك أمواج على سطح البحر وهذه نراها.. فكأنها موج من فوقه موج.. وهذه حقيقة علمية مؤكدة..

ولذلك قال البروفيسور دورجاروا عن هذه الآيات القرآنية إن هذا لا يمكن أن يكون علمًا بشريًّا.

وإذا كانت العلوم الحديثة أكدت أن للجبال جذوراً عميقة في الأرض.. وهو ما لم يكن معروفًا.. ففي كل الخرائط الجغرافية تظهر الجبال بلا جذور ممتدة داخل الأرض.. ولكن الصور الأخيرة التي التقطت للجبال.. ظهر فيها أن لكل جبل وتداً يقويه يسميه العلماء جذراً.. وأن هذا الجذر يمتد إلى أعماق بعيدة.. وهكذا ظهر إعجاز الآية الكريمة:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[1].

ثم جاءت حقيقة أخرى في قوله تعالى:

﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾[2].

وقد فسرت أدنى على أساس أنها قريبة من أرض العرب .. فقد حدثت المعركة قرب بيت المقدس.. وجاءت الخرائط الجيولوجية التي صورت أخيراً بالأقمار الصناعية.. لتثبت أن المنطقة التي دارت فيها المعركة

---

(١) سورة النبأ: ٦، ٧.

(٢) سورة الروم: ١، ٢.

هى أكـــثـر الأمـاكـن انخـفــاضًـا عـلى سطح الأرض. . وأدنى تعـني المكان المنخفـض.

إلى هنا وقـد أوردنا عـددًا من الأبحـاث التي تمت في مـؤتمرات الإعجـاز العلمي للقـرآن الكريم. . والتي شـارك فيـها عـدد من أكبـر علماء العـالم في مختلف فروع العلم من غير المؤمنين. . والذين شهدوا جميعًا أن الآيات القرآنية التي قرئ عليهم معـانيها. . لا يمكن أن تكون إلا من وحي إلهي. . ومن خالق لهذا الكون . . نقـول للناس جمـيعًا: إنه يكفي كل مـا قلنا كأدلة علمـية على وجود الله. . كلها جاءت من أفواه الذين لا يؤمنون. . ورفضوا الإيمان حتى بعد أن سمعوا هذا الإعجاز القرآني. .

إن كل ما أوردنـاه ليس مجـال بحث ولكنه قائم على المشـاهدة والرؤية. . وعلى صور عرضت وقدمت. . ولـم يكن الذين قدموا هذه الصور يهمهم إثبات معـجزات وآيات القـرآن الكريم. . بل إن معظمـهم كان يقول: إذا جـاء العلم فليتراجع الدين. . وبعضهم عـارض في أول الأمر في الاشتراك في حوار يدخل فيه الدين.

وإذا كان الله سـبحانـه وتعـالى قد استـخدم غيـر المؤمنين في إثبات قضـية الإيمان . . فلابد أن نعلم أن المؤمن والـكافر. .كليهمـا يخدم قضـية الإيمان في الكون.

وهكذا كل مـقاييس الخيـر والشر. . مـقاييس الخير تنسـجم معهـا النفس البشـريـة، وتحس بطبيعـتها وراحتـها. . ومقـاييس الشر تضطرب معـها النفس البشـريـة وتحس بالفزع والذعر وهى ترتكبـها. . من الذي وضع في النفس هذا إلا أنها تعرف يقـينًا هذه المقاييس التي وضعها الله لمنهـجه في كونه. . ومن الذي أعلم هذه الـنفس أن هناك مـقـــاييس. . وأن هناك إلهًـــا. . إلا أن تكون الآية الكريمـة:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾[١].

هى التفسير الوحيد لمقاييس الخير ومقاييس الشر التي وضعت فينا بالفطرة .. وبما أن هذا عطاء ربوبية فإن الله سبحانه وتعالى رب الناس كل الناس.. مَن آمن به ومن لم يؤمن.. ولذلك وجدت في البشر كلهم.

نأتي بعد ذلك إلى نقطة ثانية.. الله سبحانه وتعالى غيب .. وغير المؤمن يقول أنا لا أؤمن إلا بما أرى.. أما ما هو غيب عني فلا أؤمن به لأنني لم أشهده .. والإيمان غير الرؤية.. فأنت إذا رأيتني أمامك لا تقول أنا أؤمن أني أراك.. لأن الرؤية عين يقين ليس بعدها دلالة .. ولا تقول أنا أؤمن أنني أجلس مع أصدقائي .. ولا تقول إني أؤمن أني أرى الشمس مثلاً.. ذلك هو عين اليقين .. وهناك علم يقين، وعين يقين، وحق يقين.. فعلم اليقين هو الذي يأتيك من إنسان تثق فيه وفي أنه صادق في كلامه.. فإذا قال لك إنسان مشهود له بالصدق أنا رأيت فلانًا يفعل كذا.. فأنت تصدق بوثوقك بمن قال.. فإذا رأيت الشيء أمامك يكون ذلك عين اليقين.. فالذي يقول لك مثلاً إن هناك مخلوقًا نادراً في بلدة كذا فأنت تصدقه، لأنك تثق فيه.. فإذا جاء معه بهذا المخلوق وأظهره أمامك أصبح علم اليقين عين يقين.. فإذا لمسته بيدك وتحسسته وتأكدت من أوصافه يكون هذا حق اليقين.

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب غير المؤمنين عن جهنم يقول:

﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾[٢].

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢.

(٢) سورة التكاثر: ٥-٧.

أي أن كلاً منا سيرى جهنم بعينيه في الآخرة.. ثم يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾[(١)].

أي إن الكفار حين يدخلون النار ويعذبون فيها سيكون ذلك حق يقين. أي واقعًا يعيشونه وليست مجرد رؤية.

هذه هي الرؤية.. أما الإيمان فهو تصديق بغيب.. فأنت تقول.. أنا أؤمن أن ذلك حدث كما أراك أمامي .. أي إنك لم تشهد ما حدث.. لكنك وصلت بالدليل والاقتناع إلى أنه قد حدث.. وأصبح في نفسك كيقين الرؤية تمامًا.

* * *

(١) سورة الواقعة: ٩٢-٩٥.

معجزات القرآن لا تنتهي وفيها الدليل

الله سبحانه وتعالى جعل القرآن معجزة باقية إلى يوم القيامة.. ولذلك وضع فيه الدليل تلو الدليل.. على ما يتحدى به غير المؤمنين ليرد على ادعاءاتهم ولقد قيل إن عصر المعجزات انتهى.. ولكن معجزات القرآن لا تنتهي حتى تقوم الساعة.. ومعاني الآيات لا تتضح في عصر واحد.. بل كل عصر نصل إلى معنى لم نكن قد وصلنا إليه.

والقرآن معجزة ومنهج.. المنهج وهو ما رسمه الله لنا كطريق للعبادة والحياة ثم تفسيره وبيانه كاملاً في حياة رسول الله ﷺ .. فالعبادات والمعاملات وغيرها فيما يتصل بافعل ولا تفعل .. بيّنه رسول الله ﷺ .

فالصلوات المفروضة فيه مثلاً خمس لا تزيد ولا تنقص إلى يوم القيامة.. وكذلك الأحكام وكل ما يتعلق بمنهج السماء.. كلها أشياء حسمت وبينت تمامًا.. ولكن المعجزة في القرآن الكريم هى التي بقيت لتعطي كل جيل معنى إعجازيًّا لم يصل إليه الجيل الذي قبله.

ولو أن معجزة القرآن توقفت عند النزول لجمد القرآن فلم يعد يعطى شيئًا جديداً.. ولكن لأن هذا الكتاب معجزة باقية متجددة.. فهو يعطى لكل جيل عطاء جديداً.. وهكذا نجد في كل عصر عطاء للقرآن لم يكن موجوداً في العصر الذي قبله.

فإذا قرأنا مثلاً الآية الكريمة :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾[1].

وجدنا أن عطاء أدنى حين نزل القرآن كانت بمعنى المكان القريب لأرض

(١) سورة الروم: ٢، ٣.

العرب . . ولما تقدم العلم واستطاع الإنسان أن يصورّ سطح الأرض بالأقمار الصناعية . . وجد أن مكان المعركة بين الروم والفرس هو أكثر الأماكن انخفاضًا على سطح الأرض . . وإذا قرأنا الآية الكريمة:

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾(١).

نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدد ثلاثة مواقع . . موقع المؤمنين وهم قريبون إلى المدينة المنورة . . وموقع الكفار وهم بعيدون عن مكة المكرمة . . أي أن المؤمنين أقرب إلى مدينتهم وأهلهم . . والكفار بعيدون عن مدينتهم وأهلهم . . ثم قال تعالى:

﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾(٢).

والركب هو قافلة أبو سفيان التي أفلتت من المؤمنين.

والمعروف أن أبا سفيان لكي يفلت بقافلته من المؤمنين غيرّ مساره واتخذ طريق الساحل . . وهنا يجب أن نلتفت إلى قوله تعالى:

﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾.

أي موقع منخفض عنكم.

والمعروف أن ساحل البحر هو أكثر الأماكن انخفاضًا في الأرض . . ولذلك تقاس كل الارتفاعات بسطح البحر . . فيقال هذا المكان يعلو ألف متر مثلاً عن سطح البحر أو مائة متر أو غير ذلك.

إذن فسطح البحر المقياس الذي اتخذه العالم كله ليساوى صفرًا في الارتفاع

---

(١) سورة الأنفال: ٤٢

(٢) سورة الأنفال: ٤٢ .

.. تقاس عليه كل الارتفاعات في الدنيا.. ولذلك قوله تعالى: ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.. يلفتنا إلى هذه الحقيقة.. ولكن القرآن الكريم لم يكتف بأن يبين هذا.. بل بين لنا أن هناك بقعة على سطح الأرض هى أكثر البقع انخفاضًا على سطحها.. وهى التي دارت فيها المعركة بين الروم والفرس.

* * *

الإعجاز العلمي في البداية والنهاية

قال تعالى:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[١].

كيف في اللغة للسؤال عن الحال. والحق سبحانه وتعالى أوزدها في هذه الآية الكريمة ليس بغرض الاستفهام، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث . وبعد كل ما رواه الحق سبحانه وتعالى في آيات سابقة من أدلة دامغة عن خلق السموات والأرض وخلق الناس. . أدلة لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يخطئها. . فكيف بعد هذه الأدلة الواضحة تكفرون بالله؟ . . كفركم لا حجة لكم فيه ولا منطق. . والسؤال يكون مرة للتوبيخ. . كأن تقول لرجل كيف تسب أباك؟ أو للتعجب من شيء قد فعله وما كان يجب أن يفعله . . وكلاهما متلاقيان. سواء كان القصد التوبيخ أو التعجب فالقصد واحد. . فهذا ما كان يجب أن يصح منك. ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بأدلة أخرى لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يكذب بها. . فيقول جل جلاله: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ .

وهكذا ينتقل الكلام إلى أصل الحياة والموت. فبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى. . ماذا يفعل الكافرون والفاسقون والمنافقون من إفساد في الأرض. . وقطع لما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل. . صعد الجدل إلى حديث عن الحياة والموت. وقوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾ قضية لا تحتمل الجدل. . ربما استطاعوا المجادلة في مسألة عدم اتباع المنهج، أو قطع ما أمر الله به إن يوصل. .

---

(١) سورة البقرة: ٢٨.

ولكن قضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها. فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم.. ولم يدع أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه.. وعندما جاء رسول الله ﷺ وقال للناس أن الذي خلقكم هو الله.. لم يستطع أحد أن يكذبه ولن يستطيع.. ذلك أننا كنا فعلاً غير موجودين في الدنيا.. والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجدنا وأعطانا الحياة..

وقوله تعالى: ﴿ثم يميتكم﴾. فإن أحداً لا يشك في أنه سيموت.. الموت مقدر على الناس جميعًا.. والخلق من العدم واقع بالدليل.. والموت واقع بالحس والمشاهدة.

إن قضية الموت هى سبيلنا لمواجهة أي ملحد.. فإن قالوا إن العقل كاف لإدارة الحياة.. وأنه لا يوجد شيء اسمه غيب.. نقول: الذي تحكم في الخلق إيجاداً، هو الذي يتحكم فيه موتًا.. والحياة الدنيا هى مرحلة بين قوسين.. القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويوجدنا.. وتمضى رحلة الحياة إلى القوس الثاني.. الذي تخمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا وهو الموت. أي إننا في رحلة الحياة من الله وإليه..

إذن فحركة الحياة الدنيا هى بداية من الله بالخلق ونهاية بالموت..

وإنهم عندما تحدثوا عن أطفال الأنابيب.. وهى عملية لعلاج العقم أكثر من أي شيء آخر.. ولكنهم صوروها تصويراً جاهليًا.. وكل ما يحدث أنهم يأخذون بويضة من رحم الأم التي يكون المهبل عندها مسدوداً أو لا يسمح بالتلقيح الطبيعي.. يأخذون هذه البويضة من رحم الأم.. ويخصبونها بالحيوانات المنوية للزوج.. ثم يزرعونها في رحم الأم.

إنهم أخذوا من خلق الله وهى بويضة الأم والحيوان المنوي من الرجل.. وكل ما يفعلونه هو عملية التلقيح ومع ذلك يسمونه أطفال الأنابيب.. كأن

الأنبوبة يمكن أن تخلق طفلاً!! والحقيقة غير ذلك.. فبويضة الأم والحيوان المنوي للرجل هما من خلق الله.. وهم لم يخلقوا شيئًا.. إننا نقول لهم: إذا كنتم تملكون الموت والحياة فامنعوا إنسانًا واحدًا أن يموت.. بدلا من إنفاق ألوف الجنيهات في معالجة عقم قد ينجح أو لا ينجح.. ابقوا واحدًا على قيد الحياة.. ولن يستطيعوا.

إن الموت أمر حسي مشاهد.. ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشري بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه وتعالى قربها لنا بشيء مشاهد.. كيف؟.. عندما ينظر الإنسان إلى نفسه وهو حي.. لا يعرف كيف أحياه الله وكيف خلقه.. الله سبحانه وتعالى ذكر لنا غيب الخلق في القرآن الكريم فقال جل جلاله إنه خلق الإنسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه.

واقرأ قول الحق سبحانه:

﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[4].

---

(١) سورة الحج: ٥.

(٢) سورة المؤمنون: ١٢.

(٣) سورة الصافات: ١١.

(٤) سورة الحجر: ٢٦.

وقوله تعالى:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1].

فالحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة في الخلق لم نشهدها.. ولكن الموت شيء مشهود لنا جميعًا.. وما دام مشهودًا لنا، يأتي الحق سبحانه وتعالى به كدليل على مراحل الخلق التي لم نشهدها.. فالموت نقض للحياة.. والحياة أخبرنا الله تبارك وتعالى بأطوارها.. ولكنها غيب لم نشهده..

ولكن الذي خلق قال أنا خلقتك من تراب.. من طين. من حمأ مسنون. من صلصال كالفخار.. فالماء وضع على تراب فأصبح طينًا.. والطين تركناه فتغير لونه وأصبح صلصالا.. الصلصال.. جف فأصبح حمأ مسنونًا، ثم نحته في صورة إنسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشرًا.. ثم يأتي الموت وهو نقض للحياة.. ونقض كل شيء يأتي على عكس بنائه..

بناء العمارة يبدأ من أسفل إلى أعلى.. وهدمها يبدأ من أعلى إلى أسفل.. ولذلك فإن آخر مرحلة من رحلة ما.. هى أول خطوة في طريق العودة .. فإذا كنت مسافرًا إلى الإسكندرية .. فأول مكان في طريق العودة هو آخر مكان وصلت إليه.

أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه.. ثم بعد ذلك يتصلب الجسد ويصبح كالحمأ المسنون.. ثم يتعفن فيصبح كالصلصال.. ثم يتبخر الماء الذي فيه فيعود ترابًا.. وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة.. متفقًا مع المراحل التي بينها لنا الحق سبحانه وتعالى..

وقوله تعالى: ﴿ثم إليه ترجعون﴾ .. أي إن الله تبارك وتعالى يبعثكم ليحاسبكم. لقد حاول الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفة المادية أن ينكروا

---

(١) سورة ص: ٧٢.

قضية البعث.. وهم في هذا لم يأتوا بجديد.. بل جاءوا بالكلام نفسه الذي قاله أصحاب الجاهلية الأولى.. واقرأ قوله تعالى عما يقوله أصحاب الجاهلية الأولى:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ (١).

وأمنية الكافر والمسرف على نفسه.. ألا يكون هناك بعث أو حساب.. والذين يتعجبون من ذلك نقول لهم: إن الله سبحانه وتعالى الذي أوجدكم من عدم يستطيع أن يعيدكم وقد كنتم موجودين.. يقول جل جلاله:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢).

فإيجاد ما كان موجوداً أسهل من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود.. والله سبحانه وتعالى يرد على الكفار فيقول سبحانه:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣).

وهكذا فإن البعث أهون على الله من بداية الخلق.. وكل شيء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى في كتاب مبين.. وما أخذته الأرض من جسد الإنسان ترده يوم القيامة.. ليعود من جديد.

وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان.. واقرأ قوله تعالى:

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤).

---

(١) سورة الجاثية: ٢٤.

(٢) سورة الروم: ٢٧.

(٣) سورة يس: ٧٨، ٧٩.

(٤) سورة غافر: ٥٧.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ثم إليه ترجعون﴾. . هو اطمئنان لمن آمن. . وما دمنا إليه نرجع ومنه بدأنا. . فالحياة بدايتها من الله ونهايتها إلى الله. . فلنجعلها هي نفسها لله. . ولابد أن نلتفت إلى أن الله تبارك وتعالى أخفى عنا الموت زمانًا ومكانًا وسببًا وعمراً. . لم يخفه ليحجبه، وإنما أخفاه حتى نتوقعه في كل لحظة. . وهذا إعلام واسع بالموت حتى يسرع الناس إلى العمل الصالح. . وإلى المثوبة . لأنه لا يوجد عمر متيقن في الدنيا. . فلا الصغير آمن على عمره. . ولا الشاب آمن على عمره. . ولا الكهل آمن على عمره. . ولذلك يجب أن يسارع كل منا في الخيرات. . حتى لا يفاجئه الموت. . فيموت وهو عاص. .

ونلاحظ أن قصة الحياة جاء الله بها في آية واحدة. . والرجوع إلى الله ـ وهو يقين بالنسبة للمؤمنين ـ يلزمهم بالمنهج، فيعيشون من حلال. والتزامهم هذا هو الذي يقودهم إلى طريق الجنة. ويطمئنهم على أولادهم بعد أن يرحل الآباء من الدنيا.

فعمل الرجل الصالح ينعكس على أولاده من بعده. واقرأ قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾[1].

إذن فصاحب الالتزام بالمنهج، يطمئن إلى لقاء ربه ويطمئن إلى جزائه، والذي لا يؤمن بالآخرة أخذ من الله الحياة فأفناها فيما لا ينفع. ثم بعد ذلك لا يجد شيئًا إلا الحساب والنار. . واقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا

---

(١) سورة النساء: ٩.

جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾(١) .

أي إن الكافر سيفاجأ في الآخرة بالله الذي لم يكن في باله أنه سيحاسبه على ما فعل. . وقوله تعالى: ﴿وإليه ترجعون﴾ تقرأ قراءتان. بضمة على التاء. ومرة بفتحة على التاء. الأولى معناها: إننا نُجبَرُ على الرجوع. فلا يكون الرجوع إلى الله تعالى بإرادتنا، وهذا ينطبق على الكفار الذين يتمنون عدم الرجوع إلى الله. أما الثانية ﴿ترجعون﴾ فهذه فيها إرادة. وهى تنطبق على المؤمنين لأنهم يتمنون الرجوع إلى الله.

وقال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٢) .

يذكّر الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بقصة عبادة العجل. وهى قصة مخالفة خطيرة لمنهج الله ومخالفة في القمة. . عبادة الله وحده. والذي حدث أن موسى - عليه السلام - ذهب لميقات الله ومعه نقباء قومه ليتلقى المنهج والتوراة. . وأخبره الله سبحانه وتعالى أن قومه قد ضلوا وعبدوا غير الله. . وعاد موسى وهو في قمة الغضب. وأمسك بأخيه هارون يجره من رأسه ولحيته. . ويقول له لقد أخلفتك عليهم لكي لا يضلوا فقال هارون - عليه السلام -:

﴿ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾(٣) .

---

(١) سورة النور: ٣٩.

(٢) سورة البقرة: ٥٤.

(٣) سورة طه: ٩٤.

فتنة عبادة العجل حدثت بسبب السامري.. والسامري اسمه موسى السامري ولدته أمه في الصحراء وماتت فكفله جبريل ورباه.. وكان جبريل - عليه السلام - يأتيه على حصان.. يحمل له ما يحتاجه من طعام وشراب وكان موسى السامري يرى حصان جبريل.. كلما مشى على أرض يقع منه تراب فتخضر وتنبت الأرض بعد هذا التراب. وأيقن أن في حافر الحصان سراً.. فأخذ قبضة من أثر الحصان ووضعها في العجل المصنوع من الذهب. فأخذ يحدث خواراً كأنه حي..

ولا تتعجب من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها الناس.. لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يمتحن خلقه. والذي يحمل دعوة الحق لابد أن يهيئه الله سبحانه وتعالى تهيئة خاصة. ورسول الله ﷺ قبل أن ينتقل إلى المدينة.. تعرض هو والمسلمون لابتلاءات كثيرة.. ولقد جاء حدث الإسراء والمعراج لرسول الله ﷺ بعد أن تخلت عنه أسباب الدنيا في مكة وذهب إلى الطائف يدعو أهلها فسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم فقذفوه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين.. ورفع يديه إلى السماء بالدعاء المأثور:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس».

وليس هذا على الرسول وحده بل والمؤمنون معه.. حتى أن مصعب بن عمير فتى قريش المدلل.. الذي كان عنده من الملابس والأموال والعبيد ما لا يعد ولا يحصى رئى بعد إسلامه وهو يرتدي جلد حمار وذلك حتى يختبر الحق سبحانه وتعالى في قلب مصعب بن عمير حبه للإيمان.. هل يحب الدنيا أكثر أم يحب الله ورسوله أكثر.. حتى إن رسول الله ﷺ. كان يقول للصحابة انظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم.

والله تبارك وتعالى لابد أن يمحص ويختبر أولئك الذين سيحملون دعوته إلى الدنيا كلها.. لابد أن يكونوا صابرين على البلاء. أقوياء أمام خصوم

الدعوة.. مستعدين لتحمل المتاعب والآلام.. لأن هذا هو دليل الصدق في الإيمان..

ولذلك تجد كل دعوة ضلال تأتي بالفائدة لأصحابها.. دعوة الشيوعية يستفيد منها أعضاء اللجنة المركزية.. أما الشعب فإنه يرتدي ملابس رخيصة.. ويسكن في بيوت ضيقة. أما السادة الذين ينفقون بلا حساب فهم أعضاء اللجنة المركزية.. هذه دعوة الباطل .. وعكس ذلك دعوة الحق.. صاحب الدعوة هو الذي يدفع أولاً ويضحى أولاً. لا ينتفع بما يقول بل على العكس يضحى في سبيل ما يقول .. إذن الباطل يأتي بالخير لصاحب الدعوة. فإذا رأيت دعوة تغدق على أتباعها فاعلم أنها دعوة باطل. لولا أنها أعطت بسخاء ما تبعها أحد.

والآية الكريمة التي نحن بصددها هى تقريع من موسى - عليه السلام - لقومه.. الذين نجاهم الله من آل فرعون وأهلك عدوهم فاتخذوا العجل إلهًا.. ومتى حدث ذلك؟ في الوقت الذي كان موسى فيه قد ذهب لميقات ربه ليأتي بالمنهج.. والذين اتخذوا العجل إلهًا .. هل ظلموا الله سبحانه وتعالى أم ظلموا أنفسهم؟ .. ظلموا أنفسم لأنهم أوردوها مورد التهلكة دون أن يستفيدوا شيئًا.. والظالم على أنواع.. ظالم في شيء أعلى أي في القمة.. وظالم في مطلوب القمة.. الظالم في القمة هو الذي يجعل الله شريكًا ولذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١).

وعلاقة الشرك بالظلم إنك جئت بمن لم يخلق ومن لم يرزق شريكًا لمن خلق ورزق.. وذلك الذي جعلته إلهًا كيف يعبد؟.. العبادة طاعة العابد

(١) سورة لقمان: ١٣.

للمعبـود . . فماذا قال لكم هذا العجل الذي عـبدتموه من دون الله أن تفعلوا . . لذلك فأنتم ظالمون ظلم القمة . . والظلم الآخر هو الظلم فـيما شرعت القمة . . بأن أخذتم حقوق الناس واستبحتموها . . في كلتا الحالتين لا يقع الظلم على الله سبـحانه وتعـالى ولكن على نفـسك . لماذا؟ . . لأنك آمنت بالله أو لم تؤمن . سيظل هو الله القـوي القادر العزيز . لن ينقص إيمـانك أو عدم إيمانك في ملكه شيـئًا . ثم تأتي يوم القـيامة فـيعذبك . فكأن الظلـم وقع عليك . . وإذا أخذت حقوق الناس فقـد تتمتع بها أيامًا أو أسابيع أو سنوات ثم تموت وتتـركها وتأخذ العـذاب . فكأنك ظلمت نفـسك ولم تأخـذ شـيئًـا . . لذلك يقـول الحق جل جلاله :

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١) .

وظلم الناس يعـود على أنفسـهم . . لأنه لا أحد من خلق الله يسـتطيع أن يظلم الله سبـحانه وتعـالى . . وقوله سبـحانه ﴿فتـوبوا إلى بارئكم﴾ . . الحق تبـارك وتعالى قـال في الآية السابقـة ﴿عفـونا عنكم﴾ ثم يقول في هذه الآية ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ . . لأن التوبة هى أصل المغفـرة . أنت تتوب عن فعلك للذنب وتعتزم ألا تعود لمثله أبدًا ويقبل الله توبتك ويعفو عنك .

وقد كان من الممكن أن يأخذهم الله بهذا الذنب ويهلكهم كما حدث بالنسبة للأمم السابقة . . أما وقد شرع الله لهم أن يتـوبوا . فهذا فضل من الله وعفو . . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ . . فانظروا إلى دقة التكليف ودقة الحيثية في قوله تعالى : ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ الله سبحانه وتعالى يقول لهم . . أنا لم أغلب عليكم خـالقًا خلقكم أو آخذكم منه . . ولكن أنا الذي خلقـتكم . ولكن الخـالق شيء والبـارئ شيء آخر . . خلق أي أوجـد

(١) سورة البقرة : ٥٧ .

الشيء من عدم.. والبارئ أي سَوَّاهُ على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم.. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾(١).

ومن هنا نعرف أن الخلق شيء والتسوية شيء آخر.. بارئكم مأخوذة من برىء السهم.. وبرىء السهم يحتاج إلى دقة وبراعة.

وقوله تعالى: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ لأن الذي خلقك وسواك كفرت به وعبدت سواه. فكأنك في هذه الحالة لابد أن تعيد له الحياة التي وهبها لك.. وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى.. جعل موسى بني إسرائيل يقفون صفوفًا. وقال لهم إن الذي لم يعبد العجل يقتل من عبده.. ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ. كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشق عليه التنفيذ.. فرحمهم الله بأن بعث ضبابًا يسترهم حتى لا يجدوا مشقة في تنفيذ القتل.. وقيل إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفًا.

وعندما حدث ذلك استصرخ موسى وهارون ربهما.. وقالا البكية البكية أي: ابكوا عسى أن يعفو الله عنهم. ووقفوا يبكون أمام حائط المبكى فرحمهم الله..

وقوله تعالى: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها.. هى التي جعلتهم يتمردون على المنهج.

* * *

---

(١) سورة الأعلى: ٢، ٣.

الإعجاز العلمي في الضوء

قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١).

فالحق جل جلاله بعد أن بين لنا موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم البعض ومن الإسلام، وكيف أن هذه الطوائف الثلاث تواجه الإسلام بعداء ويواجه بعضها البعض باتهامات.. فكل طائفة منها تتهم الأخرى أنها على باطل.. أراد أن يحذرهم تبارك وتعالى من الحرب ضد الإسلام ومحاربة هذا الدين فقال: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾.. مساجد الله هى الأماكن التي يتم فيها السجود لله.. والسجود علامة الخضوع وعلامة العبودية كما بينا.. لأنك تضع أشرف شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعًا لله وخشوعًا له.

قبل الإسلام كان لا يمكن أن يصل أتباع أي دين إلا في مكان خاص بدينهم.. مكان مخصص لا تجوز الصلاة إلا فيه.. ثم جاء الله بالإسلام فجعل الأرض كلها مسجداً وجعلها طهوراً.. ومعنى أن تكون الأرض كلها مسجداً هو توسيع على عباد الله في مكان التقائهم بربهم وفي أماكن عبادتهم له حتى يمكن أن تلتقى بالله في أي مكان وفي أي زمان.. لأنه لا يحدد لك مكانًا معينًا لا تصح الصلاة إلا فيه.. وأنت إذا أردت أن تصلى ركعتين لله بخلاف الفرض.. مثل صلاة الشكر أو صلاة الاستخارة أو صلاة الخوف.. أو أي صلاة من السنن

(١) سورة البقرة: ١١٤.

التي علمها لنا رسول الله ﷺ .. فإنك تستطيع أن تؤديها في أي وقت.. فكأنك تلتقي بالله سبحانه أين ومتى تحب..

وما دام الله تبارك وتعالى أنعم على رسوله ﷺ وعلى أمته بأن جعل لهم الأرض مسجداً طهوراً فإنما يريد أن يوسع دائرة التقاء العباد بربهم.. ورسول الله ﷺ يقول:

«أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهُن أحد من الأنبياء قبلي. نُصرْتُ بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلَتْ ليَ الأرضَ مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأُحلَّتْ ليَ الغنائمُ ولم تحل لأحد قبلي وأُعْطيتُ الشفاعة وكان النبي يُبعَثُ إلى قومه خاصة وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامة»[1].

ولكن لماذا خص الله أمة محمد بهذه النعمة؟ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتقاءات العقل وطموحات الدنيا.. كلما ارتقى العقل في علوم الدنيا كشف قوانين وتغلب على عقبات.. وجاء بمبتكرات ومخترعات تفتن عقول الناس.. وتجذبهم بعيداً عن الدين فيعبدون الأسباب بدلاً من خالق الأسباب.

يريد الحق تبارك وتعالى أن يجعل عبادتهم له ميسرة دائمًا حتى يعصمهم من هذه الفتنة.. وهو جل جلاله يريدنا حين نرى التليفزيون مثلاً ينقل الأحداث من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن القمر إلى الأرض في نفس لحظة حدوثها.. أن نسجد لله على نعمه التي كشف لنا عنها في أي مكان نكون فيه.. فخصائص الغلاف الجوي موجودة في الكون منذ خلق الله السموات والأرض.. لم يضعها أحد من خلق الله في كون الله هذه الأيام.. ولكنها خلقت مع خلق الكون.. وشاء الله ألا ندرك وجودها ونستخدمها إلا هذه

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه البخاري (١/ ١١٩)، ومسلم (٥٢١)، والحميدي (٩٤٥)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٣٣)، وأحمد (٥/ ١٦١)، والدارمي (٢/ ٢٢٤)، والبيهقي (١/ ٢١٢) في سننه الكبرى.

الأيام.. فلابد أن نسجد لله شكراً على نعمه التي كشفت لنا أسراراً في الكون لم نكن نعرفها.. وهذه الأسرار تبين لنا دقة الخلق وتقربنا إلى قضايا الغيب.

فإذا قيل لنا إن يوم القيامة سيقف خلق الله جميعًا وهم يشاهدون الحساب.. وإن كل واحد منهم سيرى الحساب لحظة حدوثه.. لا نتعجب ونقول هذا مستحيل.. لأن أحداث العالم الهامة نراها الآن كلها لحظة حدوثها ونحن في منتهى الراحة.. ونحن جالسون في منازلنا أمام التليفزيون.. أي إننا نراها جميعًا في وقت واحد دون جهد.. فإذا كانت هذه هي قدرات البشر للبشر.. فكيف بقدرات خالق البشر للبشر؟.

عندما نرى أسرار قوانين الله في كونه.. لابد أن نسجد لعظمة الخالق سبحانه وتعالى، الذي وضع كل هذا العلم والإعجاز في الكون.. وهذا السجود يقتضي أن تكون الأرض كلها مساجد حتى يمكنك وأنت في مكانك أن تسجد لله شكراً.. ولا تضطر للذهاب إلى مكان آخر قد يكون بعيداً أو الطريق إليه شاقًا فينسيك هذا شكر الله والسجود له.. فالله سبحانه وتعالى شاء أن يوسع على المؤمنين برسول الله ﷺ دائرة الالتقاء بربهم.. لأن هناك أشياء ستأتي الرسالة المحمدية في موعد كشفها لخلق الله.. وكلما انكشف سر من أسرار الوجود اغتر الإنسان بنفسه.. وما دام الغرور قد دخل إلى النفس البشرية.. فلابد أن يجعل الله في الكون ما يعدل هذا الغرور..

لقد كانت الأمور عكس ذلك قبل بعثة محمد ﷺ .. كانت الأمور فطرية فإذا امتنعت الأمطار ونضبت العيون والآبار.. لم يكن أمامهم إلا أن يتوجهوا إلى السماء بصلاة الاستسقاء .. وكذلك في كل أمر يصعب عليهم مواجهته.. ولكن الآن بعد أن كشف الله لخلقه عن بعض أسراره في كونه.. أصبحت هناك أكثر من وسيلة يواجه بها الإنسان عدداً من أزمات الكون.. هذه الوسائل قد جعلت البشر يعتقدون أنهم قادرون على حل مشاكلهم .. بعيداً عن الله سبحانه

وتعالى وبجهودهم الخاصة.. فبدأ الاعتماد على الخلق بدلاً من الاعتماد على الحق.. ولذلك نزل قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[(١)].

ما هي هذه البيوت التي يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى؟ هي المساجد.. فَعُمَّارُ المساجد وزوارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يرون نور الله.. فإذا أتى قوم يجترئون عليها ويمنعون أن يذكر اسم الله فيها.. فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاء الإيمان ضعفاء الدين تجرأ عليهم أعداؤهم .. لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله في مساجد الله.. أو أن يسعى إلى خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة.. ولكن ساعة يوجد من يخرب بيتًا من بيوت الله.. يهب الناس لمنعه والضرب على يده يكون الإيمان قويًا.. فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم.. لماذا؟ لأن الكافر الذي يريد أن يطفئ مكان إشعاع نور الله لخلقه.. يعيش في حركة الشر في الوجود التي تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يمنعوا ذكر اسم الله في بيته وأن يخربوه.

وقول الحق سبحانه وتعالى: **﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾** .. أي إن هؤلاء الكفار ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه.. فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين.. فمعنى ذلك أن وازع الإيمان في نفوس المؤمنين قد ضعف.

---

(١) سورة النور: ٣٥، ٣٦.

قوله تعالى: ﴿ومن أظلم﴾ .. معناه إنه لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.. أي إن هذا هو الظلم العظيم.. ظلم القمة.. وقوله تعالى: ﴿وسعى في خرابها﴾ .. أي في إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة.. والسعي في خراب المسجد هو هدمه.

ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿لهم في الدنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ .. أي لن يتركهم الله في الدنيا ولا في الآخرة.. بل يصيبهم في الدنيا خزى.. والخزى هو الشيء القبيح الذي تكره أن يراك عليه الناس.. قوله تعالى: ﴿لهم في الدنيا خزى﴾ .. هذا مظهر غيرة الله على بيوته.. وانظر إلى ما أذاقهم الله في الدنيا بالنسبة ليهود المدينة الذين كانوا يسعون في خراب مساجد الله.. لقد أخذت أموالهم وطردوا من ديارهم.. هذا حدث.. وهذا معنى قوله تعالى الخزى في الدنيا.. أما في الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون حسابًا عسيراً.. لتطاولهم على مساجد الله.. ولكن في نفس الوقت.. فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتخاذلوا عن نصرة دين الله والدفاع عن بيوت الله.. سيكون لهم أيضًا عذاب أليم.

إنني أحذر كل مؤمن أن يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله في مساجده.. لأنه في هذه الحالة يكون مرتكبًا لنفس ذنبهم وربما أكثر.. ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار.

* * *

الإعجاز العلمي في سرعة الضوء والنور

قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

والميقات هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال، ونسميه وقت العمل. وغلب على أشياء في الإسلام، كمواقيت الحج. ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُظْرَف فيهما، أي يكونان ظرفًا له؛ فلابد له من مكان يحدث فيه، ومن زمان يحدث فيه كذلك، واسمهما ظرف الزمان، وظرف المكان. إلا أن ظرف الزمان غير قار أي غير ثابت؛ فقد يأتي الصبح ويذهب ويأتي بعده، الظهر، والعصر والمغرب والعشاء. لكن ظرف المكان قار وثابت.

والمواقيت - إذن - إما أن يتحكم فيها الزمان، وإما أن يتحكم فيها المكان، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معًا. فإذا أخذنا المواقيت على أنها زمن كل فعل نجد فريضة «الصوم» لها زمن محدد وهو رمضان. فالذي يتحكم في الصوم هو الزمن، فيكون ويحدث في أي مكان. وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضًا الزمان لأنه صيام يوم عرفة، ومن يجلس في أي مكان يصوم يوم عرفة ولكنه غير مطلوب من الحاج. ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان والزمان معًا. والإحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما يسمى بالميقات المكاني ولكل

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.

أهل جهة ميقاتهم المكاني الذي يطلب منهم ألاَّ يمروا عليه إلاَّ وهم محرمون. فمرة يتحكم الزمان، ومرة يتحكم المكان، وثالثة يتحكمان معًا.

وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة.

وهل جاء موسى للميقات أو جاء في الميقات؟ لقد جاء في الميقات، واللام تأتي بمعنى «عند». ونعلم أن «اللام» تأتي بمعنى «عند» كثيراً في القرآن، مثل قوله:

﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾[1].

أي أقم الصلاة عند دلوك الشمس أي عند زوالها عن وسط وكبد السماء إلى غسق الليل. ومن الدلوك إلى الغسق نجد صلاة الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء، وهذه أربعة فروض، ويبقى الفرض الخامس وهو الفجر، وقال فيه الحق:

﴿ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾[2].

ولماذا بدأ بدلوك الشمس؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح؟. إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً، ورسول الله جاء صباحًا إلى مكة، وقد فرضت الصلاة في المعراج، فكانت أول فريضة هى الظهر، وكأن الحق يعني خذ الغاية وخذ البداية، وكانت البداية هى صلاة الظهر والعصر والمغرب. والعشاء وبقى الفجر، وجاء فيه: ﴿ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾[3].

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيام الليل إنه فرض على رسول الله دون غيره، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوع.

---

(١) سورة الإسراء: ٧٨.

(٢) سورة الإسراء: ٧٨.

(٣) سورة الإسراء: ٧٨.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾[١].

ومن يتشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[٢].

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ هو قول يدل على أن كلامًا حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال في مسألة الكلام بالنسبة للبشر كلامًا عامًا.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾[٣].

وفي هذا نفى أن يكلم الله البشر. إلا بالوسائل الثلاث: الوحى أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً، والوحى بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى في قلب النبي دفعة، مع العلم اليقيني بأن ذلك من الله - عز وجل - وقد يراد بالوحى الإلهامات، مثل الوحى إلى أم موسى، والوحى إلى الحواريين، وكذلك إلى الملائكة، وقد يراد بالوحى: التسخير؛ كالوحى للأرض، والنحل.

وبعد ذلك.. **﴿أو من وراء حجاب﴾** أي أن يسمع كلامًا ولا يرى متكلمًا، **﴿أو يرسل رسولاً﴾** هو جبريل - عليه السلام -. والقرآن لم ينزل إلا بطريقة واحدة، بواسطة نزول جبريل على سيدنا رسول الله ﷺ . فما نزل القرآن بالإلهام، وما نزل القرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامات.

---

(١) سورة الإسراء: ٧٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٣) سورة الشورى: ٥١.

وهنا في كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك لأنه غيب لم يكشف لنا عنه ونترك الأمر فيه لله.

وقد سبق أن قلنا: إن صفات الله لا يوجد مثلها في البشر. فليس وجود الإنسان كوجود الله، وليس غنى الإنسان كغنى الله، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله، لأن كل شيء يخص الله إنما نأخذه في إطار ﴿ليس كمثله شيء﴾. وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى، ولذلك يقول الحق: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾[(١)].

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد في البشر، ويوجد مثله. في وصف الله مثل «استوى»، و«جلس» و «وجه»، و«يد» ونأخذ كل ذلك في إطار ﴿ليس كمثله شيء﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[(٢)].

وحينما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه، حصل من موسى استشراق اصطفائي، وكأنه قال لنفسه: ما دام قد كلمني فقد أقدر أن أراه؛ لأن استطابة الأنس تمد للنفس سبل الأمل في الامتداد في الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً على سؤال الله:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[(٣)].

كان الجواب يكفي أن يقول: «عصا» لكنه قال:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾[(٤)].

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٣) سورة طه: ١٧.

(٤) سورة طه: ١٨.

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله: ماذا تفعل بها؟ وأراد بالكلام أن يطيل الأنس بربه، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة ردًّا على سؤال. ولله المثل الأعلى - نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إيناسًا له. وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرقت نفسه أن يراه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[1].

لم يقل موسى: أرني ذاتك. بل قال: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله، لكن إن أراه الله، فهذا أمر بمشيئة الحق. وقدم موسى الطلب معلقًا بمشيئة الله وإرادته، لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك، وحتى في الوحي والكلام لم يكلم ربنا الناس مباشرة، بل لابد أن يصطفى من الملائكة رسلاً، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفى من البشر رسلاً، ويبلغ الرسل الناس كلام الله؛ لأن الصفات الكمالية العليا الخالقة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق.

ضربنا المثل من قبل - ولله المثل الأعلى - بصناعات البشر، وأن الإنسان حين ينام ليلاً، قد يستيقظ لأي شيء، فإذا كانت الدنيا ظلامًا قد يحطم الأشياء التي هى أقل منه أو تحطمه الأشياء التي هى أكثر صلابة منه؛ وإن اصطدم بشيء صغير فقد يكسره، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد ينكسر الإنسان. ولذلك ترك الإنسان في البيت شيئًا من النور الضئيل؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته، فيضع ما نسميه «الوناسة» قوة شمعتين أو خمس شمعات، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود في المنزل؛ لأنها تفسد فوراً، لذلك يأتي لها بمحول يأخذ من القوى ويعطى الضعيف.

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذي لا يأخذ من القوى إلا

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.

بواسطة، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن يتلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة. وكانت الواسطة من البشر اصطفاء ومن الملائكة اصطفاء، فليس كل ذلك صالحًا لهذه المسألة، فمصطفى من الملائكة يعطى مصطفى من البشر.

وبعد ذلك يعطى المصطفى من البشر للبشر. كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطى الله الدليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن، ولكن حين تبرزون في الآخرة وتعدون إعدادًا آخر، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١).

ولا يستوى الناس في ذلك؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق. يقول تعالى في شأن الكفار: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(٢). فلا يستوى المؤمن والكافر في هذه الحالة، فما دام الكافر محجوبًا فالمؤمن غير محجوب ويرى ربه. وقال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾(٣). قال الحق: ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾.

وفي اللغة نجد أن «لن» تأتي تأبيدية، أي تؤبد المستقبل أي لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها. فهل معنى ذلك أن قول الحق: ﴿لن تراني﴾ أن موسى لن يرى الله في الدنيا ولا في الآخرة؟ . ونقول: ومن قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٤).

إذن فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمرًا آخر، يكفى أن أهل الجنة

---

(١) سورة القيامة: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة المطففين: ١٥.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٤) سورة إبراهيم: ٤٨.

سيأكلون ولن تكون لهم فضلات، إنه خلق جديد. إن مجيء «لن» في قوله الحق: ﴿لن تراني﴾ تأبيدها إضافي، أي بالنسبة للدنيا، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية، وأضاف سبحانه:

﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾(١).

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح: لن تراني ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتي انظر إلى الجبل، والجبل مفروض فيه الصلابة، والقوة، والثبات، والتماسك؛ فإن استقر مكانه، يمكنك أن تراني. إن الجبل بحكم الواقع، وبحكم العقل، وبحكم المنطق أقوى من الإنسان، وأصلب منه وأشد، ولما تجلّى ربه للجبل اندك. والدكُّ هو الضغط على شيء من أعلى ليسوِّي بشيء أسفل منه. والحق هو القائل:

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾(٢).

وهنا في موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا إن الله تجلى على خلق من خلقه، ولكن أيقدر المتجلَّي عليه على هذا التجلي أم لا يقدر؟. إن أقدره الله فهو يقدر، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر. والجبل هو الأصلب، فلما تجلى له ربه اندك، إذن فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلي أو لا يقوى؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلي لله بدليل أن الأقوى منه لم يقو. وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفتة تصاعدية. ويبين لنا أن موسى قد صعق لرؤية المتجلَّي عليه فكيف لو رأى المتجلِّي؟!! ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٢) سورة الفجر: ٢١.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٣.

ويقـال: خـر الشيء إذا سـقط من أعلى إلى أسـفل، ويقـول الحق في آية قرآنية:

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ (١).

والحق يخبـرنا هنا: ﴿ وَخَـرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ ، وصعـقه تُطلق ويـراد بها الوفاة، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عـن الإغماءة الطويلة. وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (٢).

إذن النفخـة الأولى لصعق وموت الجمـيع، ثم تأتي النفخة الثانيـة للبعث. وهنا يقول الحق: ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ (٣). وهذا يدل على أن الصعقة ليست هى الصـعقة المميتة، وأفاق سيدنا موسى من الصـعقة، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله. وكما نقول: «فلان فاق لنفسه» وهنا «أفاق» موسى على حاجتين اثنتين، أفاق من الغشية التي حصلت له من الصعقة، وكأنَّه تساءل: لماذا انصعقت؟ لقد انصعق لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم: ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ (٤)، وساعـة تسمع كلمة «سبـحانك» اعرف أنَّه يراد بها التنزيه لله من الحدث الذي نحن بصدده وهو رؤيته - تعالى - أي تنزيهًـا لك يا رب أن يراك مـخلوقك؛ لأن الرؤية قـدرة بصر على مـرئى، ومـعنى: «رأيـت الشيء» أي إن عين البـشر قـد قـدرت على الشيء، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقـانون الضوء، فهـذا يعني أن أبصارنا تقـدر على ربنا

---

(١) سورة ص: ٢٤.

(٢) سورة الزمر: ٦٨.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٣.

وهذا لا يمكن أبدًا؛ لأن المقدور لا ينقلب قادرًا، والقادر لا ينقلب مقدورًا.

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم، ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لنواميس الكون، وأنَّ ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل، لقد كلمه الله، فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية؟ ولماذا لم يترك الأمور للفيوضات التي يعطيها الله له ويتنعم بفيض جود لا ببذل مجهود؟.

ويقرر موسى ويقول: ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي بأنّ ذاتك - سبحانك - لا يقدر مخلوق أن يراها ويدركها. لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته وقال: ﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكأنه قد فهم ما أوضحه الحق له: لا تلتفت إلى ما منعتك، ولكن انظر إلى ما أعطيتك.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾(٢).

أي: إن الله تبارك وتعالى أنزل سكينته أولاً على رسوله وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، ثم أنزلها على المؤمنين الذين فروا من المعركة ثم عادوا إلى القتال مرة أخرى، وقوله تعالى:

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٢) سورة التوبة: ٢٦.

﴿ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[١].

وقد حدَّثونا عن أن الملائكة نزلت وثبَّتت المؤمنين، وألقت الرعب في قلوب الكافرين وأنزلت العذاب بهم. والذين آمنوا هم الذين شهدوا بذلك؛ لأنهم وصفوا كائنات على جياد بُلْق[٢] ولم يكن عندهم مثلها.

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد نزلت وأن هناك من رآهم، فعلى الإنسان منا أن يقف موقف المؤمن، وأن يثق في القائل وهو صادق فليؤمن بما قال ولا يبحث عن الكيفية. وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعلية ألا يقف وقفة الرافض لوجودها، ولكن وقفة الجاهل لكيفيتها؛ لإن وجود الشيء مختلف تمامًا عن إدراك كيفية وجوده.

وهناك أشياء كثيرة في الكون، موجودة وتزاول مهمتها، ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود. وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة. وكل الاكتشافات التي قدمها لنا العلم المعاصر كانت موجودة. ولكننا لم نكن ندرك كيفية وجودها من قبل. فالجاذبية الأرضية كانت موجودة. لكننا لم نكن ندرك وجودها ولا كيفية عملها، وكذلك الكهرباء كانت موجود في الكون منذ بداية الخلق، ولكننا لم نكن ندرك وجودها حتى كشف الله تعالى لنا وجودها فاستخدمناها، والميكروبات كانت موجودة في الكون تؤدي مهمتها ولم نعرفها، حتى كشف الله لنا عنها فعرفنا وجودها وكيفية هذا الوجود، فكل هذه الأشياء كانت موجودة في كون الله منذ خلق الله الكون. ولكننا لم نكن ندرك وجودها. وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الوجود شيئًا؛ ولذلك إذا حُدِّثْت

(١) سورة التوبة: ٢٦.

(٢) البَلَق: سواد وبياض.

بشيء لا يستطيع عقلك أن يفهمه فلا تنكر وجوده؛ لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئًا، ثم أعطانا الله تعالى العلم فوجدنا أنها تعيش بقوانين مادية محددة. إذن: فوجود الشيء يختلف تمامًا عن إدراك هذا الوجود.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾(١). كلمة ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ تعطى العذر لكل من لم ير، ويكفى أن الله قال ليكون هذا حقيقة واقعة. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾(٢).

وحين كان يقال لنا: إنّ لله خلقًا هم الجن، كما إن له خلقًا آخرين هم الملائكة، والجن يروننا ونحن لا نراهم. كان البعض يقف موقف الاستنكار. وكذلك قال لنا رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يَجْرِى من ابن آدم مَجْرى الدم**»(٣).

وكان بعض الناس ينكرون هذا الكلام ويتساءلون: كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجرى منها مجرى الدم؟! وعندما تقدمنا في العلم التجريبي واكتشفنا الميكروبات ورأينا من دراستها أنها تخترق الجسم وتدخل إلى الدم في العروق، هل يحس أحد بالميكروب وهو يخترق جسمه؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله للجسم؟ طبعًا لا، ولكن عندما يتوالد ويتكاثر ويبدأ تأثيرها يظهر على أجسامنا نحس به، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغًا لا تحس به شعيرات الإحساس الموجودة تحت الجلد. ومن فرط دقته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بينها ونحن لا ندري عنه شيئًا، ويدخل إلى الدم ويجرى

(١) سورة التوبة: ٢٦.

(٢) سورة المدثر: ٣١.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

في العروق ونحن لا نحس بشيء من ذلك، والدم يجرى في عروق يحكمها قانون هو: إن مربع نصف القطر يوزع على الكل، ومثال ذلك ما يحدث في توزيع المياه، فنحن نأتي بماسورة رئيسية نصف قطرها ثماني بوصات وندخلها إلى قرية، تكون كمية الصب هى ٨ X ٨ . . أي ٦٤ بوصة مربعة، حينما نأتي لنوزعها على مواسير اخرى فرعية نأخذ منها ماسورة نصف قطرها أربع بوصات، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصتان، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصة أو نصف بوصة، المهم إن مربع أنصاف أقطار المواسير الفرعية يساوى ما تصبه الماسورة الكبيرة.

وهكذا عروق الدم، فالدم يجرى في شرايين واسعة وأوردة وشعيرات دقيقة. . ولكن دقة حجم الميكروب تجعله يخترق هذه الشعيرات فلا ينزل منها دم، وعندما تضيق هذه الشرايين تحدث الأمراض التي نسمع عنها، من تراكم الكوليسترول أو حدوث جلطات، فيتدخل الطب ليوسع الشرايين، لأنها مواسير الدم. وهناك جراحات تجرى بأشعة الليزر أو غيرها من الاكتشافات الحديثة تخترق هذه الأشعة الجلد بين الشعيرات؛ لأنها أشعة دقيقة جداً فلا تقطع أي شعيرة ولا تُسيل أي دماء.

إذن: فكل ما في داخل الجسم محسوب بإرادة الله تعالى، ولكل ميكروب فترة حضانة يقضيها داخل الجسم دون أن نحسن به، ثم بعد ذلك يبدأ تأثيره فيظهر المرض وتأخذ عمليات توالد الميكروب في الدم ومقاومة كرات الدم البيضاء له فترة طويلة، بينما نحن لا نحس ولا ندرك ما يحدث.

فإذا كان «الميكروب» وهو من مادتك، أي: شيء له كثافة وله حجم محدد ولا تراه إلا بالميكروسكوب فتجد له شكلاً مخيفًا، وهو يتوالد ويتناسل وله دورة حياة، إذا كان هذا «الميكروب» لا تحس به وهو في داخل جسمك؛ فما بالك بالشيطان الذي هو مخلوق من مادة أكثر شفافية من مادة الميكروب، هل يمكن

أن تحس به إذا دخل جسدك؟ لا، وإذا كان الشيء المادي قد دخل جسدك ولم تحس به، فما بالك بالمخلوق الذي خلقه الله تعالى من مادة أشف وأخف من الطين؟ ألا يستطيع أن يدخل ويجري من ابن آدم مجرى الدم؟!

فإذا قال رسول الله ﷺ : «**إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم**» .. فلا تتعجب ولا تُكذِّب لأنك لا تحس به. فالله أعطاك في عالم الماديات ما هو أكثر كثافة في الخلق ويدخل في جسدك ولا تحس به.

إذن: فالعلم أثبت لنا أن هناك موجودات لا نراها. ولو أننا باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية الحديثة فحصنا كل خلية في جسم الإنسان فإننا سنرى العجب، سنرى في جلد الإنسان الذي نحسبه أملس آباراً يخرج منها العرق، وغير ذلك من تفاصيل بالغة الدقة لا تدركها العين، فإذا حدَّثنا الله سبحانه وتعالى بأن هناك ملائكة تنزل وتقاتل، فنحن نصدق، وقد جعل الحق تبارك وتعالى لنا ما يطمئن بشريتنا فقال: ﴿ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[1]، فإن قال واحد: إنه رآها، وقال آخر: لم أرَ شيئًا، نقول: إن قول الحق ﴿ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أي: لم تروها مجتمعين، فهناك من لمحها، وهناك من لم يرها.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: بالقتل أو بالأسر أو بسلب أموالهم، وقوله تعالى: ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي: إن ما لحق بهم من هزيمة كان جزاءً لهم على كفرهم. ولكن البعض يتساءل: لماذا لم ينزل الجزاء وتتم الهزيمة من أول لحظة في القتال؟ نقول: إن الله أراد أن يزيد عذابهم، فلو أنه ألحق بهم الهزيمة من أول لحظة لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذابًا، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتي الهزيمة أكثر قسوة وأكثر بشاعة، والشاعر يقول:

---

(١) سورة التوبة: ٢٦.

كما أدركت قومًا عطاشًا غمامةٌ فلما رأوهَا أقشعت[١] وتجلَّت

فحين تمر سحابة على قوم يعانون من شدة العطش، هم يحلمون أن تمطر عليهم، لكن الحلم يتبدد تمامًا كالمسجون الذي يعاني من عطش شديد. فيطلب من السجان شربة ماء فيقول له السجان: سأحضرها لك . وفعلاً يذهب السجان ويحضر له كوب ماء مثلج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب بيده ونفسه تمتلئ فرحًا. وإذا بالسجان يضربه بشدة على يديه فيسقط الكوب على الأرض، فيصاب المسجون بصدمة شديدة. وهذه أبشع طرق التعذيب. ولو أن السجان رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إيلامًا للسجين. لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه في يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذابًا. . وهكذا أراد الله أن يزيد من عذاب الكافرين فأعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولاً، ثم جاءت من بعد ذلك مرارة الهزيمة لتسلبهم كل شيء، وبذلك تجتمع لهم فجيعتان: فجيعة الإيجاب، وفجيعة السلب.

ثم تأتي لمحة الرحمة التي يغمر بها الله سبحانه وتعالى كونه كله، ويفتح الباب لكل عاص ليعود إلى طريق الإيمان فيتقبله الله.

❊ ❊ ❊

(١) أقشعت: انقشعت وذهبت.

◘ أسرع رحلة في الوجود ◘

ويقول الحق تعالى:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(١).

استهل الحق سبحانه هذه السورة بقـوله (سُبْحَانَ)؛ لأنها تتحدث عن حدث عظيم خارق للـعادة، ومعنى سـبحان: أي تنزيهًـا لله تعالى تنزيهًـا مطلقًا، أن يكون له شـبيه أو مـثيل فـيمـا خلق، لا في الذات، فلا ذات كـذاته، ولا في الصفات فلا صفـات كصفاته، ولا في الأفعال، فليس في أفعال خَـلْقه ما يُشبه أفعاله تعالى.

فـإن قـيل لك: الله مـوجـود وأنت مـوجـود، فنزّه الله أن يكون وجـوده كوجودك؛ لأن وجودك عن عدم، وليس ذاتيًا فيك، ووجوده سبحانه ليس عن عدم، وهو ذاتي فيه سبحانه.

فذاته سبحانه لا مثيلَ لها، ولا شبيه في ذوات خلقه. وكذلك إن قيل: لك سَمْع ولله سمع. فنزِّه الله أنْ يُشـابه سمعُه سمـعَك، وإن قيل: لك فِعْل، ولله فِعْل فنزِّه الله أن يكون فعله كفعلك.

ومن معاني «سُبْحَانَ» أي: أتعجب من قدرة الله.

إذن: كلمة «سُبْحَانَ» جاءت هنا لتشير إلى أنَّ ما بعدها أمرٌ خارج عن نطاق قدرات البشر، فإذا ما سمعـتَه إياك أنْ تعترضَ أو تقول: كيف يحدث هذا؟ بل نزِّه الله أن يُشابه فِعلُه فِعْلَ البشر، فإن قـال لك: إنه أسرى بنبيه محمد ﷺ من

---

(١) سورة الإسراء: ١.

مكة إلى بيت المقدس في ليلة، مع إنهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً، فإياك أن تنكر.

فربك لم يقُلْ: سَرَى محمد، بل أُسْرى به. فالفعل ليس لمحمد ولكنه لله، وما دام الفعل لله فلا تُخضعه لمقاييس الزمن لديك، فِفعْل الله ليس علاجًا ومزاولة كفعل البشر.

ولو تأملنا كلمة (سُبْحَان) نجدها في الأشياء التي ضاقتْ فيها العقول، وتحيَّرتْ في إدراكها وفي الأشياء العجيبة، مثل قوله تعالى:

﴿ سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(١).

فالأزواج أي: الزوجين الذكر والأنثى، ومنهما يتم التكاثر في النبات، وفي الإنسان وقد فسر لنا العلم الحديث قوله: ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ بما توصّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء، وأن فيهما السالب والموجب الذي يساوى الذكر والأنثى؛ لذلك قال تعالى:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٢).

ومنها قوله تعالى:

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾(٣).

فَمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها، ويرى كيف يحُلُّ الظلام محلّ الضياء، أو الضياء محل الظلام، لا يملك أمام هذه الآية إلا أن يقول: سبحان الله.

---

(١) سورة يس: ٣٦.

(٢) سورة الذاريات: ٤٩.

(٣) سورة الروم: ١٧.

ومنها قوله تعالى:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(١) ﴾(٢).

هذه كلها أمور عجيبة، لا يقدر عليها إلا الله، ووردتْ فيها كلمة (سبحان) في خلال السور وفي طيّات الآيات.

و«سُبْحَانَ» اسم يدلُّ على الثبوت والدوام، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزِّه، كما نقول في الخلق، فالله خالق ومُتصف بهذه الصفة قبل أنْ يخلق شيئًا.

وكما تقول: فلان شاعر، فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة، فلو لم يكن شاعراً ما قالها.

إذن: تنزيه الله ثابت له قبل أن يوجد مَنْ يُنزِّهه سبحانه، فإذا وُجِد المنزّه تحوّل الأسلوب من الاسم إلى الفعل، فقال سبحانه:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾(٣).

وهل سبَّح وسكت وانتهى التسبيح؟ لا، بل:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾(٤).

على سبيل الدوام والاستمرار، وما دام الأمر كذلك والتسبيح ثابت له، وتُسبّح له الكائنات في الماضي والحاضر، فلا تتقاعس أنت أيُّها المكَلف عن تسبيح ربك، يقول تعالى:

---

(١) أقرن الشيء: قدر عليه وأطاقه.

(٢) سورة الزخرف: ١٣.

(٣) سورة الحشر: ١.

(٤) سورة الجمعة: ١.

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[(١)].

وقوله: «أُسْرِي» من السُّرى، وهو السير ليلاً، وفي الحِكَم: «عند الصباح يحمَدُ القومُ السُّرى».

فالحق سبحانه أسرى بعبده، فالفعل لله تعالى، وليس لمحمد ﷺ فلا تَقِسِ الفعل بمقياس البشر، ونزِّه فِعْل الله عن فِعْلك، وقد استقبل أهل مكة هذا الحدث استقبال المكذِّب. فقالوا: كيف هذا ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً، وهم كاذبون في قولهم؛ لأن رسول الله لم يَدَّعِ أنه سَرَى بل قال: أُسْرِي بي.

ومعلوم أن قَطْع المسافات يأخذ من الزمن على قدر عكس القوة المتمثلة في السرعة. أي: إن الزمن يتناسب عكسيًّا مع القوة، فلو أردنا مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية سيختلف الزمن لو سرْنا على الأقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة، فكلما زادت القوة قلَّ الزمن، فما بالك لو نسب الفعل والسرعة إلى الله تعالى، إذا كان الفعل من الله فلا زمن.

فإنْ قال قائل: ما دام الفعل مع الله لا يحتاج إلى زمن، لماذا لم يأتِ الإسراء لمحة فحسْب، ولماذا استغرق ليلة؟

نقول: لأن هناك فرْقًا بين قطْع المسافات بقانون الله سبحانه وبين مَرَاءٍ عُرِضَتْ على النبي ﷺ في الطريق، فرأى مواقف، وتكلَّم مع أشخاص، ورأى آيات وعجائب، هذه هي التي استغرقت الزمن.

وقلنا: إنك حين تنسب الفعل إلى فاعله يجب أن تعطيه من الزمن على قَدْر قوة الفاعل. هَبْ أن قائلاً قال لك: أنا صعدتُ بابني الرضيع قمة جبل «إفرست»، هل تقول له: كيف صعد ابنك الرضيع قمة «إفرست»؟

---

(١) سورة الأعلى: ١.

هذا سؤال إذن في غـير مـحلّه، وكذلك في مسـألة الإسراء والمعـراج يقول تعالى: أنا أسريتُ بعبدي، فمن أراد أنْ يُحـيل المسألة ويُنكرها، فليعترض على الله صاحب الفعل لا على محمد.

لكن كيف فاتتْ هذه القضية على كفار مكة؟

ومن تكذيب كفار مكة لرسول الله ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج نأخذ رَدًّا جميلاً على هؤلاء الذين يخوضون في هذا الحادث بعقول ضيقة وبإيمانية سطحية في عصرنا الحاضر، فيطالعونا بأفكار سقيمة ما أنزل الله بها من سلطان.

ونسمع منهم من يقول: إن الإسراء كان منَامًا، أو كان بالروح دون الجسد.

ونقول لهؤلاء: لو قال محمد لقومه: أنا رأيتُ في الرؤيا بيت المقدس، هل كانوا يُكذّبونه؟ ولو قال لهم: لقد سبحتْ روحي الليلة حتى أتتْ بيت المقدس، أكانوا يُكذّبونه؟ أتُكذَّب الرّؤى أو حركة الأرواح؟!

إذن: في إنكار الكفـار على رسول الله وتكذيبهم له دلـيل على أن الإسراء كان حـقيقـة تمت لرسول الله ﷺ برُوحه وجـسده، وكأن الحق سبحـانه ادَّخر الموقف التكذيبي لمكذبي الأمس، ليردّ به على مُكذّبي اليوم.

وقوله سبحانه: ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾[1].

العبد كلمة تُطلق على الروح والجسـد معًا، هذا مدلولها، لا يمكن أن تُطلَق على الروح فقط.

لكن، لماذا اختار الحق سبحانه لرسوله ﷺ هذه الصفة بالذات؟

نقول: لأن الله تعالى جـعل في الكون قانونًا عامًّا للناس، وقد يُخرَق هذا القانون أو النامـوس العام ليكون مـعجزةً للخـاصة الذين ميَّـزهم الله عن سائر الخَلْق، فكأن كلمة (عبده) هي حيثية الإسراء.

---

(١) سورة الإسراء: ١.

أي: أُسْرِي به؛ لأنه صادق العبودية لله، ومـا دام هو عبده فقد أخلص في عبـوديته لربه، فـاستحق أنْ يكون له مَـيْزة وخصـوصيـة عن غيره، فـالإسراء والمعراج عطاء من الله استحقّه رسوله بما حقّق من عبودية لله.

وفَرْق بين العبودية لله والعـبودية للبشر، فالعبودية لله عِـزٌّ وشرف يأخذ بها العبدُ خَيْر سيده، وقال الشاعر:

ومـمّا زَادَنـي شَـرَفـًا وَعِـزًّا وكدْتُ بأخْمُصي أَطَأ الثُّريَّا

دُخُولِي تَحْتَ قولِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرت أحمـدَ لِي نبـيًّا

أما عبودية البشر للبشر فنقْصٌ ومذلَّة وهوان، حيث يأخذ السيد خَيْر عبده، ويحرمُه ثمرة كدِّه.

لذلك، فـالمتـتبّع لآيات الـقرآن يجـد أن العـبـودية لا تأتي إلا في المواقف العظيمة مثل:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ... ﴾(١).

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ... ﴾(٢).

ويكفيك عِزًّا وكرامة أنك إذا أردتَ مقـابلة سيدك أن يكون الأمر في يدك، فما عليك إلا أنْ تتـوضأ وتنوى المقابلة قائلاً: الله أكبر، فـتكون في معية الله - عز وجل - في لقـاء تحدد أنت مكانه ومـوعده ومُدَّته، وتـختار أنت مـوضوع المقابلة، وتظل في حضرة ربك إلى أن تنهى المقابلة متى أردتَ.

وما أحسنَ مَا قال الشاعر:

حَسْبُ نَفْسِي عِزًّا بِأَنِّي عَبْدٌ يَحْتَفِي بي بِلاَ مَواعيدَ رَبُّ

---

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) سورة الجن: ١٩.

هُو في قُدْسِهِ الأعزِّ ولكِنْ　　　أنَا ألقَى متَى وَأيْن أُحِبُّ

فـما بالك لو حـاولت لقـاء عظيم من عظمـاء الدنيا؟ وكم أنت مُـلاقٍ من المشـقة والعنت؟ وكم دونه من الحـجّـاب والحرّاس؟ ثم بعـد ذلك ليس لك أن تختار لا الزمان ولا المكان، ولا الموضوع ولا غيره.

وقد كان الرسول ﷺ وهو المتخلِّق بأخـلاق الله إذا سلَّم على أحد لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده.

وقوله: ﴿ لَيْلاً ﴾... (١).

سبق أن قُلْـنا: إن السُّرى هو السـير ليلاً، فكانـت هذه كافيـة للدلالة على وقوع الحدث ليلاً، ولكن الحق سبحانه أراد أنْ يؤكد ذلك، فقد يقول قائل: لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً؟

نقول: حدث الإسـراء ليلاً، لتظلَّ المعجزة غَيْبًـا يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله ﷺ، فلو ذهب في الـنهـار لرآه الناس في الطريق ذهـابًا وعـودة، فـتكون المسألة - إذن - حِسّية مشاهدة لا مجالَ فيها للإيمان بالغيب.

لذلك لما سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد وقال: إن صاحبكم يزعم أنه أسْـرِي به الليلة من مكـة إلى بيت المقـدس، فمنهـم مَنْ قلّب كـفَّيْـه تعجبًا، ومنهم مَنْ أنكر، ومنهم مَن ارتد.

أما الصِّدِّيق أبو بكر فـقد استقبـل الخبر استقبـالَ المؤمن المصدِّق، ومن هذا الموقف سُمِّي الصديق، وقال قولته المشهورة، «إن كان قال فقد صدق».

إذن: عمدته أن يقول رسول الله، وطالما قال فـهو صادق، هذه قضية مُسلَّم بها عند الصِّدِّيق رضي الله عنه

(١) الإسراء: ١.

ثم قال: «إنَّا لَنُصدقه في أبعد من هذا، نُصـدِّقه في خبر السماء (الوحي)، فكيف لا نُصدِّقه في هذا»؟

إذن: الحق سبـحانه جـعل هذا الحادث مَـحكًّا للإيمان، ومُمـحِّصًـا ليقين الناس، حتـى يغربل مَنْ حول رسـول الله، ولا يبقى مـعه إلا أصـحاب الإيمان واليقين الثابت الذي لا يهتز ولا يتزعزع.

لذلك قال تعالى في آية آخر:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾[1].

وهذا دليل آخـر على أن الإسـراء لم يكُنْ منامًـا، فـالإسـراء لا يكون فـتنة واختبارًا إلا إذا كان حقيقة لا منامًا، فالمنام لا يُكذِّبه أحد ولا يختلف فيه الناس.

لكن لماذا قال عن الإسراء «رُؤْيَا» يعني المنامية، ولم يَقُلْ «رؤية» يعني البصرية؟

قالوا: لأنها لما كانت عجيبة من العجائب صارت كأنها رؤيا منامية، فالرؤيا محل الأحداث العجيبة.

وورد في الإسراء أحاديث كثـيرة تكلَّم فيها العلمـاء: أكان بالروح والجسد؟ أكان يقظة أم منامًـا؟ أكان من المسجـد الحرام أم من بيت أم هانئ[2]؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء، ونُوضِّح ما فيها من تقارب.

فمن حـيث: أكان الإسـراء بالروح فقط أم بالروح والجسـد؟ فقـد أوضحنا وَجْه الصواب فيه، وأنه كان بالروح، والجسد جميعًا، فهذا مجال الإعجاز، ولو كان بالروح فقط ما كان عجيبًا، وما كذَّبه كفار مكة.

أمـا مَنْ ذهب إلى أن الإسـراء كان رؤيا منام، فـيـجب أن نلاحظ أن أول

---

(١) سورة الإسراء: ٦٠.

(٢) هي: أم هانئ بنت أبي طالب الهاشمية.

الوحي لرسول الله ﷺ كان الرؤيا الصادقة، فكان ﷺ لا يرى رُؤْيَا إلا وجاءت كفلَق الصبح، فرؤيا النبي ﷺ ليست كرؤيانا، بل هي صِدْق لابُدّ أن يتحقَّق.
ومثال ذلك ما حدث، مَنْ إرادة الله لهُ رؤْيا الفتح.

قال تعالى:

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ... ﴾[1].

وقد أخبر ﷺ صحابته هذا الخبر، فلما ردَّهم الكفار عند الحديبية، فقال الصحابة لرسول الله: ألم تُبشِّرنا بدخول المسجد الحرام؟ فقال: ولكن لم أَقُلْ هذا العام.

لذلك يسمون هذه الرُّؤى رؤى الإيناس، وهي أن يرى النبي ﷺ الشيء منامًا، حتى إذا ما تحقق لم يُفَاجأ به، وكان له أُنس به. وما دام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح فلابُدَّ أن هذه الرؤيا ستأتي واقعًا وحقيقة، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى على سبيل التذكرة بذلك الإيناس.

إذن: مَنْ قال: إن الإسراء كان منامًا نقول له: نعم كان رؤيا إيناس تحققت في الواقع، فلدينا رؤى الإيناس أولاً، ورؤى التذكير بالنعمة ثانيًا، وواقع الحادث في الحقيقة ثالثًا، وبذلك نخرج من الخلاف حول: أكان الإسراء يقظة أم منامًا؟

وحتى بعد انتهاء حادث الإسراء كانت الرؤيا الصادقة نوعًا من التسلية لرسول الله ﷺ، فكان كلما اشتدتْ به الأهوال يُريه الله تعالى ما حدث له ليُبيِّن له حفاوة السماء والكون به ﷺ، ليكون جلْدًا يتحمل ما يلاقي من التعنت والإيذاء.

---

(١) سورة الفتح: ٢٧.

أما من قال: إن الإسراء كان من بيت أم هانىء، فهذا أيضًا ليس محلاً للخلاف؛ لأن بيت أم هانىء كان مُلاصِقًا للمطاف من المسجد الحرام، والمطاف من المسجد.

إذن: لا داعي لإثارة الشكوك والخلافات حول هذه المعجزة؛ لأن الفعل فِعْل الحق سبحانه وتعالى، والذي يحكيه لنا هو الحق سبحانه وتعالى، فلا مجالَ للخلاف فيه.

وقوله تعالى:

﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾(١).

المسجد الحرام هو بيت الله: الكعبة المشرفة، وسُمّي حرامًا، لأنه حُرّم فيه ما لم يحرُمْ في غيره من المساجد، وكل مكان يخصص لعبادة الله نسميه مسجداً، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾(٢).

ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد، أنه بيت لله باختيار الله تعالى، وغيره من المساجد بيوت لله باختيار خَلْق الله؛ لذلك كان بيت الله باختيار الله قِبْلة لبيوت الله باختيار خَلْق الله.

وقد يُراد بالمسجد المكان الذي نسجد فيه، أو المكان الذي يصلح للصلاة، كما جاء في الحديث الشريف: «.. وجُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً»(٣).

أي: صالحة للصلاة فيها.

ولابُدَّ أن نُفرِّق بين المسجد الذي حُيِّز وخُصِّص كمسجد مستقل، وبين أرض

---

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) سورة التوبة: ١٨.

(٣) سبق تخريجه.

تصلح للصلاة فيهـا ومباشرة حركة الحياة، فـالعالم يمكن أن يصلى في مصنعه، والفلاح يمكن أن يصلى في مزرعته، فهـذه أرض تصلح للصلاة ولمباشرة حركة الحياة.

أما المسـجد فللصلاة، أو ما يتـعلق بها من أمور الدين كـتفسيـر آية، أو بيان حكم، أو تلاوة قرآن. .إلخ ولا يجوز في المسجد مباشرة عمل من أعمال الدنيا.

لذلك حينما رأى النبي ﷺ رجلاً ينشـد ضالته في المسجـد، قال له: **«لا ردَّها الله عليك»**[1]. وقال لمن جلس يعقد صـفقة في المسجد: **«لا بارك الله لك في صفقتك»**[2].

ذلك لأن المسجد خُصِّص للعبادة والطاعة، وفيه يكون لقاء العبد بربه - عز وجل - فإياك أن تشـغل نفسك فيه بأمـور الدنيا، ويكفى ما أخـذته منك، وما أنفقته في سبيلها من وقت.

والمسجد لا يُسمَّى مسجداً إلا إذا كان بناء مستـقلاً من الأرض إلى السماء، فأرضـه مسجد، وسـماؤه مسـجد، لا يعلوه شيء من منافع الدنيـا، كمَنْ يبنى مسجداً تحت عمارة سكنيـة، ودَعْكَ من نيته عندما خَصَّص هذا المكان للصلاة: أكانت نيته لله خالصة؟ أم لمأرب دنيوي؟

وقد قال تعالى:

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[3].

فمـثل هذا المكان لا يُسمّى مـسجداً؛ لأنه لا تنطبق عـليه شروط المسـجد،

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه مسلم (٥٦٨)، وأبو داود (٤٧٣)، وابن ماجه (٧٦٧)، وابن خزيمة (١٣٠٢)، وأحمد (٢/٣٤٩).

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه الترمذي (١٣٢١)، والدارمي (١/٣٢٦)، والحاكم (٢/٥٦)، وابن خزيمة (١٣٠٥).

(٣) سورة الجن: ١٨.

ويعلوه أماكن سكنية يحدث فيها ما يتنافى وقدسية المسجد، وما لا يليق بحُرْمة الصلاة، فالصلاة في مثل هذا المكان كالصلاة في أي مكان آخر من البيت.

لذلك يحرم على الطيار غير المسلم أن يُحلِّق فوق مكة؛ لأن جوَّ الحَرَم حَرَمٌ.

وقوله تعالى:

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[1].

في بُعْد المسافة نقول: هذا قصيّ. أي: بعيد. وهذا أقصى أي: أبعد، فالحق تبارك وتعالى كأنه يلفت أنظارنا إلى أنه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجدٌ آخر قصيّ، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله ﷺ

فالمسجد الأقصى: أي: الأبعد، وهو مسجد بيت المقدس.

وقوله سبحانه: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾.

البركة: أن يُؤتى الشيءُ من ثمره فوقَ المأمول منه، وأكثر مما يُظنّ فيه، كأن تُعد طعامًا لشخصين، فيكفي خمسة أشخاص، فتقول: طعام مبارك.

وقول الحق سبحانه:

﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[2].

دليل على المبالغة في البركة، فإنْ كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى، فالبركة فيه من باب أوْلى، كأن تقول: مَنْ يعيشون حول فلان في نعمة، فمعنى ذلك أنه في نعمة أعظم.

لكن بأيّ شيء بارك الله حوله؟

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى ببركة دنيوية، وبركة دينية:

---

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) سورة الإسراء: ١.

بركة دنيوية بما جعل حوله من أرض خِصْبة عليها الحدائق والبساتين التي تحوى مختلف الثمار، وهذا من عطاء الربوبية الذي يناله المؤمن والكافر.

وبركة دينية خاصة بالمؤمنين، هذه البركة الدينية تتمثل في أن الأقصى مَهْد الرسالات ومَهْبط الأنبياء، تعطَّرَتْ أرضه بأقدام إبراهيم وإسحاق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى، وفيه هبط الوحى وتنزلتِ الملائكة.

وقوله: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ... ﴾(١).

اللام هنا للتعليل.

كأن مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس أن نُرى رسول الله الآيات، وكلمة: الآيات لا تُطلق على مطلق موجود، إنما تطلق على الموجود العجيب، كما نقول: هذا آية في الحُسْن، آية في الشجاعة، فالآية هى الشيء العجيب.

ولله – عز وجل – آيات كثيرة منها الظاهر الذي يراه الناس، كما قال تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴾(٢).

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾(٣).

والله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله ﷺ خصوصية، وأن يُرويه من آيات الغيب الذي لم يَرَهُ أحد، ليرى ﷺ حفاوة السماء به، ويرى مكانته عند ربه الذي قال له:

﴿ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾(٤).

لأنك في سعة من عطاء الله، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك

---

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) سورة فصلت: ٣٧.

(٣) سورة الشورى: ٣٢.

(٤) سورة النحل: ١٢٧.

أهل السماء في الملأ الأعلى، وإنْ كنت في ضيق من الخَلْق فأنت في سَعة من الخالق.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(١).

أي: الحق سبحانه وتعالى.

السمع: إدراك يدرك الكلام. والبصر: إدراك يدرك الأفعال والمرائي، فلكل منهما ما يتعلق به.

لكن سميع وبصير لمن؟

جاء هذا في ختام آية الإسراء التي بيَّنَتْ أن الحق سبحانه جعل الإسراء تسلية للرسول ﷺ بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم، وكأن معركة دارت بين رسول الله والكفار حدثتْ فيها أقوال وأفعال من الجانبين.

ومن هنا يمكن أن يكون المعنى: «سَمِيعٌ» لأقوال الرسول «بَصِيرٌ» بأفعاله، حيث آذاه قومه وكذبوه وألجئوه إلى الطائف، فكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم في مكة، فعاد مُنكَرًا داميًا، وكان من دعائه:

«اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمر؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»(٢).

---

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) حديث ضعيف: أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٤١٩، ٤٢٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤١٥).

فالله سميع لقول نبيه ﷺ. وبصير لفعله.

فقد كان ﷺ في أشدِّ ظروفه حريصًا على دعوته، فقد قابل في طريق عودته من الطائف عبدًا، فأعطاه عنقودًا من العنب، وأخذ يحاوره في النبوات ويقول: أنت من بلد نبي الله يونس بن متى.

أو يكون المعنى: سميع لأقوال المشركين، حينما آذوا سمع رسول الله وكذَّبوه وتجهَّموا له، وبصير بأفعالهم حينما آذوه ورَمَوْه بالحجارة.

الحق تبارك وتعالى تعرّض لحادث الإسراء في هذه الآية على سبيل الإجمال، فذكر بدايته من المسجدِ الحرام، ونهايته في المسجد الأقصى، وبين البداية والنهاية ذكر كلمة الآيات هكذا مُجْملة.

وجاء ﷺ ففسَّر لنا هذا المجمل، وذكر الآيات التي رآها، فلو لم يذكر لنا رسول الله ﷺ ما رأى من آيات الله لَقُلْنا: وأين هذه الآيات؟

فالقرآن يعطينا اللقطة الملزمة لبيان الرسول ﷺ:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾(١).

إذن: كان لابُدَّ لتكتمل صورة الإسراء في نفوس المؤمنين أن يقول الرسول ﷺ ما قال في أحاديث الإسراء.

لكن يأتي المشكِّكُون وضِعَاف الإيمان يبحثون في أحاديث الإسراء عن مأخذ، فيعترضون على المرائى التي رآها رسول الله، وسأل عنها جبريل - عليه السلام -.

فكان اعتراضهم أن هذه الأحداث في الآخرة، فكيف رآها محمد ﷺ ؟

---

(١) سورة القيامة: ١٧-١٩.

ونقول لهؤلاء: لـقد قصُرَتْ أفهـامكم عن إدراك قدرة الله في خَلْق الكون، فالكون لم يُخلَق هكذا، بل خُلِق بتقدير أزلي له، ولتوضيح هذه المسألة نضرب هذا المثل:

هَبْ أنك أردتَ بناء بيت، فسـوف تذهب إلى المهندس المختص وتطلب منه رَسْمًا تفصيليًّا له، ولو كنت ميسور الحال تقول له: اعمل لي (ماكيت) للبيت، فيصنع لك نموذجًا مُصغَّرًا للبيت الذي تريده.

فالحق سبحانه خلق هذا الكون أزلاً، فالأشياء مخلوقة عند الله (كالماكيت)، ثم يبرزها سبحانه على وَفْق ما قدَّره.

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(١).

انظر: ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ ﴾ كأن الشيء موجود والله تعـالى يظهره فحسب، لا يخلقه بداية، بل هو مـخلوق جاهز ينتظر الأمر ليظهـر في عالم الواقع، لذلك قال أهل المعرفة: أمور يُبديها ولا يبتديها.

وإنْ كان الحق تبارك وتعالى قد ذكر الإسراء صراحة في هذه الآية، فقد ذكر المعراج بالالتزام في سورة النجم، في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَـدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْـرَى * عِندَ سِـدْرَةِ الْمُنتَـهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّـدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَـصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَـدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾(٢).

ففي الإسراء قال تعالى:

---

(١) سورة يس: ٨٢.

(٢) سورة النجم: ١٣-١٨.

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾[١].

وفي المعراج قال:

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى ﴾[٢].

ذلك لأن الإسراء آية أرضيـة استطاع الرسول ﷺ بما آتاه الله من الإلهام أنْ يُدلِّل على صدْقـه في الإسراء به من المسجـد الحرام إلى المسجـد الأقصى؛ لأن قومـه على علم بتاريخه، وأنه لم يسـبق له أنْ رأى بيت المقدس أو سافـر إليه، فقالوا له: صِفْه لنا وهذه شهادة منهم أنه لم يَرَهْ، فتحدَّوهُ أن يصفه.

والرسول ﷺ حينما يأتي بمثلِ هذه العملية، هل كـان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس، خاصة وقد ذهب إليه ليلاً؟

إذن: صورته لم تكن واضحة أمام النبي ﷺ بكل تفاصيلها، وهنا تدخلتْ قدرة الله فجلاَّه الله له، فأخذ يصفه لهم كأنه يراه الآن.

كما إن الطريق بين المسـجد الحرام والمسجد الأقـصى طريق مسلوك للعرب، فهو طريق تجارتهم إلى الشام، فأخبرهم ﷺ أن عِيراً لهم في الطريق، ووصفها لهم وصفًا دقيقًا، وأنها سوف تصلهم مع شروق شمس يوم مُعين.

وفعـلاً تجمعـوا في صبيـحة هذا اليوم ينتـظرون العير. وعند الشـروق قال أحدهم: ها هى الشمس أشرقتْ. فردَّ الآخر: وها هى العير قد ظهرت.

إذن: استطاع ﷺ أن يُدلِّل على صدق الإسراء، لأنه آية أرضية يمكن التدليل عليها، بما يَعْلمه الناس عن بيت المقدس، وبما يعلمونه من عيرهم في الطريق.

أما مـا حدث في المعراج، فـآيات كبرى سـماوية لا يسـتطيع الرسول ﷺ التدليل عليها أمام قومه، فـأراد الحق سبحانه أنْ يجعل ما يمكن الدليل عليه من

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) سورة النجم: ١٨.

آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصعود إلى السماء، وإلا فهل صعد أحد إلى سدرة المنتهى، فيصفها له رسول الله؟

إذن: آية الأرض أمكن أنْ يُدلّل عليها، فإذا ما قام عليها الدليل، وثبت للرسول خَرْق نواميس الكون في الزمن والمسافة، فإنْ حدّثكم عن شيء آخر فيه خَرْق للنواميس فصدِّقوه، فكأن آية الإسراء جاءت لِتُقرّب للناس آية المعراج.

فالذي خرق له النواميس في آيات الأرض من الممكن أنْ يخرق له النواميس في آيات السماء، فالله تعالى يُقرِّب الغيبيات، التي لا تدركها العقول بالمحسّات التي تدركها.

ومن ذلك ما ضربه إليه مثلاً محسوسًا لمضاعفة النفقة في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، فأراد الحق سبحانه أنْ يُبيّن ذلك ويُقرّبه للعقول، فقال:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

ومن لُطْف الله سبحانه بعقول خَلْقه أنْ جعل آيات الإسراء بالنصّ الملزم الصريح، لكن آيات المعراج جاءت بالالتزام في سورة النجم؛ لذلك قال العلماء: إن الذي يُكذّب بالإسراء يكفر، أما مَنْ يكذّب بالمعراج فهو فاسق.

لكن أهل التحقيق يذهبون إلى تكفير مَنْ يُكذّب المعراج أيضًا؛ لأن المعراج وإنْ جاء بالالتزام فقد بيّنه الرسول ﷺ في حديثه الشريف، والحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾(٢).

والمتأمل في الإسراء والمعراج يجده إلى جانب أنه تسلية لرسول الله وتخفيف

---

(١) سورة البقرة: ٢٦١.

(٢) سورة الحشر: ٧.

عنه، إلا أن لهم هدفًا آخر أبعد أثرًا، وهو بيان أن رسول الله ﷺ مُؤيد من الله، وله معجزات، وتُخرَق له القوانين والنواميس العامة؛ ليكون ذلك كله تكريمًا ودليلاً على صدق رسالته.

فالمعجزة: أمر خارق للعادة الكونية يُجريه الله على يد رسوله، ليكون دليلاً على صدقه، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل - عليه السلام - حيث ألقاه قومه في النار، ومن خواص النار الإحراق، فهل كان المراد نجاة إبراهيم من النار؟

لو كان القصد نجاته من النار ما كان الله مكَّنهم من الإمساك به، ولو أمسكوا فيمكن أنْ يُنزِل الله المطر فيطفئ النار.

إذن: المسألة ليست نجاة إبراهيم، المسألة إثبات خَرْق النواميس لإبراهيم - عليه السلام - فشاء الله أنْ تظلَّ النار مشتعلة، وأن يُمسكوا به ويرموه في النار، وتتوفر كل الأسباب لحرقه - عليه السلام -.

وهنا تتدخل عناية الله لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين، فمن خواصّ النار الإحراق، وهى خَلْق من خَلْق الله، يأتمر بأمره، فأمر الله النارَ ألاَّ تحرق، سلبها هذه الخاصية، فقال تعالى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾(١).

وربما يجد المشكّكون في الإسراء والمعرج ما يُقرّب هذه المعجزة لأفهامهم بما نشاهده الآن من تقدُّم علمي يُقرِّب لنا المسافات، فقد تمكّن الإنسان بسلطان العلم أنْ يغزوَ الفضاء، ويصعد إلى كواكب أخرى في أزمنة قياسية، فإذا كان في مقدور البشر الهبوط على سطح القمر، أتستبعدون الإسراء والمعراج، وهو فِعْل لله سبحانه؟!

(١) سورة الأنبياء: ٦٩.

وكذلك من الأمور التي وقفتْ أمام المعترضين على الإسراء والمعراج حادثة شَقِّ الصدر التي حكاها رسول الله ﷺ، والمتأمل فيه يجده عملاً طبيعيًّا لإعداد الرسول ﷺ لما هو مُقبِل عليه من أجواء ومواقف جديدة تختلف في طبيعتها عن الطبيعة البشرية.

كيف ونحن نفعل مثل هذا الإعداد حينما نسافر من بلد إلى آخر، فيقولون لك: البس ملابس كذا. وخذ حقنة كذا لتساير طبيعة هذا البلد، وتتأقلم معه، فما بالك ومحمد ﷺ سيلتقي بالملائكة وبجبريل وهم ذوو طبيعة غير طبيعة البشر، وسيلتقي بإخوانه من الأنبياء، وهم في حال الموت، وسيكون قاب قوسيْن أو أدنى من ربه - عز وجل -؟

إذن: لا غرابة في أنْ يحدث له تغيير ما في تكوينه ﷺ ليستطيع مباشرة هذه المواقف.

وإذا استقرأنا القرآن الكريم فسوف نجد فيه ما يدلُّ على صدق رسول الله فيما أخبر به من لقائه بالأنبياء في هذه الرحلة، قال تعالى:

﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾[(١)].

والرسول ﷺ إذا أمره ربّه أمراً نفّذه، فكيف السبيل إلى تنفيذ هذا الأمر: واسأل مَن سبقك من الرسل؟

لا سبيل إلى تنفيذه إلا في لقاء مباشر ومواجهة، فإذا حدَّثنا بذلك رسول الله في رحلة الإسراء والمعراج نقول له: صدقت، ولا يتسلل الشكّ إلا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين.

فالفكرة في هذه القضية - الإسراء والمعراج - دائرة بين يقين المؤمن بصدق

---

(١) سورة الزخرف: ٤٥.

رسول الله، وبين تحكيم العقل، وهل استطاع عقلك أنْ يفهم كل قضايا الكون من حولك؟

فما أكثر الأمور التي وقف فيها العقل ولم يفهم كُنْهَها، ومع مرور الزمن وتقدُّم العلوم رآها تتكشّف له تدريجيًّا، فما شاء الله أنْ يُظهره لنا من قضايا الكون يسَّر لنا أسبابه باكتشاف أو اختراع، وربما بالمصادفة.

وما العقل إلا وسيلة إدراك، كالعين والأذن، وله قوانين محددة لا يستطيع أنْ يتعدّاها، وإياك أنْ تظنَّ أن عقلك يستطيع إدراك كل شيء، بل هو محكوم بقانون.

ولتوضيح ذلك، نأخذ مثلاً العين، وهي وسيلة إدراك يحكمها قانون الرؤية، فإذا رأيت شخصًا مثلاً نراه واضح الملامح، فإذا ما ابتعد عنك تراه يصغُر تدريجيًّا حتى يختفي عن نظرك، كذلك السمع تستطيع بأذنك أنْ تسمعَ صوتًا، فإذا ما ابتعد عنك قَلَّ سمعك له، حتى يتوقف إدراك الأذن فلا تسمع شيئًا.

كذلك العقل كوسيلة إدراك له قانون، وليس الإدراك فيه مطلقًا.

ومن هنا لما أراد العلماء التغلُّب على قانون العيْن وقانون الأذن حينما تضعف هذه الحاسة وتعجز عن أداء وظيفتها صنعوا للعين النظارة والميكروسكوب والمجهر، وهذه وسائل حديثة تُمكِّن العين من رؤية ما لا تستطيع رؤيته. وكذلك صنعوا سماعة الأذن لتساعدها على السمع إذا ضعفت عن أداء وظيفتها.

إذن: فكل وسيلة إدراك لها قانونها، وكذلك العقل، وإياك أنْ تظنَّ أن عقلك يستطيع أن يدرس كل شيء، ولكن إذا حُدِّثْتَ بشيء فعقلك ينظر فيه، فإذا وثقته صادقًا فقد انتهت المسألة، وخذ ما حدثت به على أنه صدق.

وهذا ما حدث مع الصِّدِّيق أبي بكر رضي الله عنه حينما حدثوه عن صاحبه ﷺ، وأنه أُسرِى به من مكة إلى بيت المقدس، فما كان منه إلا أن قال: «إن كان قال فقد صدق».

فالحجة عنده إذن قول الرسول، وما دام الرسول قد قال ذلك فهو صادق، ولا مجال لعمل العقل في هذه القضية، ثم قال: «كيف لا أُصدقه في هذا الخبر، وأنا أصدقه في أكثر من هذا، أصدقه في خبر الوحي يأتيه من السماء».

فآية الإسراء - إذن - كانت آية أرضية، يمكن أنْ يُقام عليها الدليل، ويمكن أن يفهم الناس عنها أن القانون قد خُرِق لمحمد في الإسراء، فإذا ما أتى المعراج وخرق له القانون فيما لا يعلم الناس كان أَدْعى لتصديقه.

* * *

إشارات كونية في القرآن الكريم

قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(١).

يذكرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه هو الذي خلق ما في الأرض جميعًا. وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ لتلفتنا إلى أن ما في الأرض كله ملك لله جل جلاله، وأننا لا نملك شيئًا إلا ملكية مؤقته. وأن ما لنا في الدنيا سيصير لغيرنا. وهكذا.

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الحياة وقال ﴿كنتم أمواتًا فأحياكم﴾ كأن الحياة تحتاج إلى إمداد من الخالق للمخلوق حتى يمكن أن تستمر. فلابد لكي تستمر الحياة أن يستمر الإمداد بالنعم. ولكن النعم تظل طوال فترة الحياة، وعند الموت تنتهي علاقة الإنسان بنعم الدنيا. ولذلك لابد أن يتنبه الإنسان إلى أن الأشياء مسخرة له في الدنيا لتخدمه. وأن هذا التسخير ليس بقدرات أحد. ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى. والإنسان لا يدري كيف تم الخلق. ولا ما هي مراحله إلا أن يخبرنا الله سبحانه وتعالى بها. فهو جل جلاله يقول:

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾(٢).

وما داموا لم يشهدوا خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم. فلابد أن نأخذ ذلك عن الله ما ينبئنا به الله عن خلق السموات والأرض وعن خلقنا هو

(١) سورة البقرة: ٢٩.

(٢) سورة الكهف: ٥١.

الحقيقة. وما يأتينا عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزيف. ونحن الآن نجد أبحاثًا كثيرة عن كيفية السموات والأرض وخلق الإنسان. وكلها لن تصل إلى حقيقة. بل ستظل نظريات بلا دليل. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضدًا﴾ أي إن هناك من سيأتي ويضل. ويقول هكذا تم خلق السموات والأرض، وهكذا خلق الإنسان. هؤلاء المضلون الذين جاءوا بأشياء هى من علم الله وحده. جاءوا تثبيتًا لمنهج الإيمان. فلو لم يأت هؤلاء المضلون، ولو لم يقولوا خلقت الأرض بطريقة كذا والسماء بطريقة كذا. لقلنا إن الله تعالى قد أخبرنا في كتابه العزيز إن هناك من سيأتي ويضل في خلق الكون وخلق الإنسان ولكن كونهم أتوا. فهذا دليل على صدق القرآن الذي أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا بقرون.

والاستفادة من الشيء لا تقتضى معرفة أسراره.. فنحن مثلاً نستخدم الكهرباء مع إننا لا نعرف ما هى؟ وكذلك نعيش على الأرض ونستفيد بكل ظواهرها وكل ما سخره الله لنا. وعدم علمنا بسر الخلق والإيجاد لا يحرمنا هذه الفائدة. فهو علم لا ينفع وجهل لا يضر. والكون مسخر لخدمة الإنسان. والتسخير معناه التذليل ولا تتمرد ظواهر الكون على الإنسان. وإذا كانت هناك ظواهر في الكون تتمرد بقَدَر الله. مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية. نقول إن ذلك يحدث ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن كل ما في الكون لا يخدمنا بذاتنا. ولا بسيطرتنا عليه، وإنما يخدمنا بأمر الله له، وإلا لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك. فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك. وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة الله. حتى الأسباب والمسببات خاضعة أيضًا لطلاقة القدرة الإلهية. فالأسباب والمسببات في الكون لا تخرج عن إرادة الله.

لذلك إذا تمرد الماء بالطوفان. وتمردت الرياح بالعاصفة. وتمردت الأرض

بالزلازل والبراكين. فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أن يسيطر على الكون الذي يعيش فيه. واقرأ قوله سبحانه وتعالى:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾(١).

والإنسان عاجز على أن يخضع حيوانًا إلا بتذليل الله له. ومن العجيب إنك ترى الحيوانات تدرك ما لا يدركه الإنسان في الكون. فهى تحس بالزلزال قبل أن يقع. وتخرج من مكان الزلزال هاربة. بينما الإنسان لا يستطيع بعقله أن يفهم ما سيحدث.

والحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعًا﴾ يستوعب كل أجناس الأرض. ولذلك فإن الإنسان لا يستطيع أن يوجد شيئًا إلا من موجود. أي إن الإنسان لم يستحدث شيئًا في الكون. فأنت إذا أخذت حبة القمح. من أين جئنا بها؟ من محصول العام الماضي.. ومحصول العام الماضي. من أين جاء؟.. من محصول العام الذي قبله. وهكذا يظل تسلسل الأشياء حتى تصل إلى حبة القمح الأولى من أين جاءت؟ جاءت بالخلق المباشر من الله. وكذلك كل ثمار الأرض إذا أعدتها للثمرة الأولى فهى بالخلق المباشر من الله سبحانه وتعالى. فإذا حاولت أن تصل إلى أصل وجود الإنسان. ستجد بالمنطق والعقل.. أن بداية الخلق هى من ذكر وأنثى. خُلقا بالخلق المباشر من الله. لأنك أنت من أبيك وأبوك من جدك. وجدك من أبيه. وهكذا تمضى حتى تصل إلى خلق الإنسان الأول. فنجد أنه لابد أن يكون خلقًا مباشرًا من الله سبحانه وتعالى. وما ينطبق على الإنسان ينطبق على الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد. فكل شيء إذا رددته لأصله تجد أنه لابد أن يبدأ بخلق مباشر من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة يس: ٧١، ٧٢.

بعض الناس يتساءل عن الرقى والحضارة وهذه الاختراعات الجديدة. أليس للإنسان فيها خلق؟.. نقول فيها خلق من موجود. والله سبحانه وتعالى كشف من علمه للبشر ما يستطيعون باستخدام المواد التي خلقها الله في الأرض أن يرتقوا ويصنعوا أشياء جديدة. ولكننا لم نجد ولم نسمع عن إنسان خلق مادة من عدم.

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق كل ما في هذا الكون من عدم. ثم بعد ذلك تكاثرت المخلوقات بقوانين سخرها الله سبحانه وتعالى لها. ولكن كل هذا التطور راجع إلى أن الله خلق المخلوقات وأعطاها خاصية التناسل والتزاوج لتستمر الحياة جيلاً بعد جيل. وكل خلق الله الذي تراه في الكون الآن قد وضع الله سبحانه وتعالى فيه من قوانين الأسباب ما يعطيه استمرارية الحياة من جيل إلى جيل حتى ينتهى الكون. فإذا قال لك إنسان: أنا أزرع بذكائي وعلمي. فقل له: أنت تأتي بالبذرة التي خلقها الله. وتضعها في الأرض المخلوقة لله. وينزل الله سبحانه وتعالى الماء عليها من السماء. وتنبت بقدرة الله الذي وضع فيها غذاءها وطريقة إنباتها. إذن فكل ما يحدث أنك تحرث الأرض. وترمى البذرة. يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[1].

صحيح أن الإنسان يقوم بحرث الأرض ورمى البذرة. وربما تعهد الزرع بالعناية والرى. ولكن ليس في كل ما يفعله مهمة خلق. بل إن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء. ولو كنت تزرع بقدرتك فأت ببذرة من غير خلق الله. وأرض لم يخلقها الله. وماء لم ينزله الله من السماء. وطبعًا لن تستطيع.. ولكن ما هو مصدر الأشياء التي استحدثت؟

(١) سورة الواقعة: ٦٣، ٦٤.

نقول إن هناك فرقًا بين وجود الشيء بالقوة. ووجوده بالفعل.. فالنخلة مثلاً حبة كانت موجودة بالقوة. كانت نواة. ثم زرعت فأصبحت موجودة بالفعل. وانت لا عمل لك في الحالتين فلا أنت بقوتك خلقت النواة - التي هى البذرة - ولا أنت بفعلك جعلت النواة تكبر. لتصير نخلة بالفعل. على أن هناك أشياء مطمورة في الكون. خلقها الله سبحانه وتعالى مع بداية الخلق. ثم تركها مطمورة في الكون. حتى كشفها الله لمن يبحث عن أسراره في كونه.

وكل كشف له ميلاد. إذا أخذنا مثلاً ما تحت الثرى. أو الكنوز الموجودة تحت سطح الأرض. لقد ظلت مطمورة حتى هدى الله الإنسان إليها. وعلمه كيف يستخرجها. فالإنسان لم يخترع مثلاً أو يوجد البترول أو المعادن. ولكنها كلها كانت مطمورة في الكون حتى جاء الوقت الذي يجب أن تؤدي فيه دورها في الحياة. فدلنا الحق عليها، فليس معنى أن الشيء كان غائبًا عنا أنه لم يكن موجودًا. أو أنه وجد لحظة اكتشافنا له. فالشيء الحادث الآن، والشيء الذي سيحدث بعد سنوات.. خلق الله سبحانه وتعالى كل عناصره. وأودعها في الأرض لحظة الخلق. والإنسان بما يكشف الله له من علم يستطيع تركيب هذه العناصر. ولكنه لا يستطيع خلقها أو إيجادها. والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾.

حينما يقول الله جل جلاله. استوى. يجب أن نفهم كل شيء متعلق بذات الله على أنه سبحانه ليس كمثله شيء. فالله استوى والملوك تستوى على عروشها. وأنت تستوى على كرسيك. ولكن لأننا محكومون بقضية ﴿ليس كمثله شيء﴾ لابد أن نعرف أن استواء الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء والله حي. وأنت حي. هل حياتك كحياته؟ والله سبحانه وتعالى يعلم وأنت تعلم. هل علمك كعلمه؟ والله سبحانه وتعالى يقدر. وأنت تقدر. هل قدرتك كقدرته. طبعًا لا. فعندما تأتي إلى ﴿استوى﴾ فلا تحاول أن تفهمها أبدًا

بالمفهوم البشري. . فالله سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرض وما في السماء. وهو سبحانه يعلم المكان بكل ذراته. والموجودين في هذا المكان أو المكين. بكل ذراته. وأنت تعرف ظاهر الأمر. . والله سبحانه وتعالى يعلم غيب السموات والأرض حتى يوم القيامة. وبعد يوم القيامة إذن فهو جل جلاله. ليس كمثله شيء. ولا يمكن أن تحيط أنت بعقلك بفعل يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى. فعقلك قاصر عن أن يدرك ذلك. لذلك قل سبحان الله. ليس كمثله شيء في كل فعل يتصل بذات الله. . ﴿استوى إلى السماء﴾ هذا الكلام هو كلام الله. فالمتحدث هو الله - عز وجل -.

بعض الناس يقولون تلقينا القرآن وحفظناه. نقول لهم إن الذي حفظ القرآن هو الله سبحانه وتعالى. وما دام قد حفظ كلامه فهو جل جلاله يعلم أن الوجود كله لن يتعارض مع القرآن الكريم. . والله سبحانه وتعالى حفظ القرآن ليكون حجة له على الناس وما دام الله جل جلاله هو الخالق. وهو القائل. فلا توجد حقيقة في الكون كله تتصادم مع القرآن الكريم. . واقرأ قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

وهذا من عظمة الله أن حفظ كلامه ليكون حجة على الناس. والله سبحانه وتعالى وجدت صفاته قبل أن توجد متعلقات هذه الصفات. فهو جل جلاله. خلق لأنه خالق. كأن صفة الخلق وجدت أولاً. وإلا كيف خلق أول خلقه. إن لم يكن سبحانه وتعالى خالقًا؟

والله سبحانه وتعالى رزاق. قبل أن يوجد من يرزقه. وإلا فبأى قدرة رزق الله أول خلقه؟ والله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صفاته. وشهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يشهد أي من خلق الله أنه لا إله إلا الله. واقرأ قوله تعالى:

---

(١) سورة الحجر: ٩.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾(١).

فالله سبحانه وتعالى شهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يوجد أحد من خلقه يشهد بوحدانية ألوهيته. شهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يخلق الملائكة. ليشهدوا شهادة مشهد بأنه لا إله إلا الله. وأولو العلم شهادة علم. فكأن شهادة الذات للذات. في قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ هى التي يعتد بها، وهى أقوى الشهادات. فالله ليس محتاجًا من خلقه امتداد الشهادة.

الله سبحانه وتعالى: بعد أن خلق الأرض وخلق السماء واستتب له الأمر. قال ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي لا تغيب ذرة من ملكه عن علمه. فهو عليم بكل ذرات الأرض وكل ذرات الناس. وكل ذرات الكون. والكون كله لا يفعل إلا بإذنه ومراده. واقرأ قوله تعالى:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٢)

وقال تعالى:

﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾(٣).

ونقف بالتأمل الآن عند قوله الحق: ﴿الله لا إله إلا هو﴾. إن كلمة ﴿الله﴾ هى عَلَمٌ على واجب الوجود. وعندما نقول: ﴿الله﴾ فإن الذهن ينصرف إلى الذات الواجبة الوجود.

---

(١) سورة آل عمران: ١٨.

(٢) سورة لقمان: ١٦.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٥.

ما معنى «واجبة الوجود»؟ إن الوجـود قسمان: قسم واجب، وقسم ممكن. والقسم الواجـب هو الضروري الذي يجب أن يكون موجـودًا، والحق سبـحانه وتعالى حين أعلمنا باسمه «الله» أعطانا فكرة على أن كلمة «الله» هذه يتحدى بها - سبحـانه - أن يُسمى بها سواه. ولو كنا جمـيعًا مؤمنين لكان احـترامنا لهذا التـحدي نـابعًا من الإيمان. ولكـنْ هناك كافـرون بالله ومـتمـردون وملحـدون يقولون: «الله خـرافة»، ومع ذلك هل يجـرؤ واحد من هؤلاء أن يسمى نفـسه «الله»؟

لم يفـعل أحد هذا؛ لأن الله تحـدى بذلك، فلم يجرؤ واحـد أن يدخل في هذه التجربة. وعدم جرأة الكفـار والملاحدة في أن يدخلوا في هذه التجربة دليل على أن كفرهم غير وطيد في نفوسهم، فلو كان كفرهم صحيح لقالوا: سنسمى ونرى ما يحدث، ولكن هذا لم يحدث.

إذن «الله» علم واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال. وبعد ذلك جاء بالقضـية الأساسـية وهى قـوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾ وهنا نجد الـنفي ونجد الإثبـات، النفي في «لا إله»، والإثبات في «إلا هـو». والنفي تخلية والإثبـات تحلية. خلى سبحانه نفسه من وجود الشريك له ثم أثبت لنا وحدانيته. و«لا إله إلا هو» أي لا معبود بحق إلا الله. ونعرف أن بعضًا من البشر في فترات الغفلة قد عبـدوا أصنامًا وعبدوا الكواكب. ولكن هل كانت آلهـة بحق أم بباطل؟ لقد كانت آلهـة بباطل ودليل صـدق هذه القضيـة التي هى «لا إله إلا الله»، أي لا معبود إلا الله إن أحدًا من تلك الآلهة لم يعـترض على صدق هذه القضية. إذن فهذا الكلام هو حق وصدق.

وإن ادعى أحد غـير ذلك، نقول له: إن الله قد أخـبرنا أنه لا معـبود بحق غيره؛ لأنه هو الذي خلق وهو الذي رزق، وقال: أنا الذي خلقت. إن كان هذا الكلام صحـيحًا فهـو صادق فيه، فـلا نعبد إلا هو. وإن كان هذا الكلام غـير

صحيح، وأن أحدًا غيره هو الذي خلق هذا الكون فأين هذا الأحد الذي خلق، ثم ترك من لم يخلق ليأخذ الكون منه ويقول: «أنا الذي خلق الكون»؟ إنه أمر من اثنين، الأمر الأول: هو إنه ليس هناك إله غيره. فالقضية - إذن - منتهية. والأمر الآخر: هو إنه لو كان هناك آلهة أخرى، وبعد ذلك جاء واحد وقال: «أنا الإله وليس هناك إله إلا أنا». فأين هذه الآلهه الأخرى؟ ألم تعلم بهذه الحكاية؟

إن كانوا لم يعلموا بها، فهم لا يصلحون أن يكونوا آلهة، وإن كانوا قد علموا فلماذا لم يقولوا: لا. نحن الآلهة، وهذا الكلام كذب؟ وكما بعث الله رسلاً بمعجزات كان عليهم أن يبعثوا رسولا بمعجزات. فصاحب الدعوة إذا ادّعاها ولم يوجد معارض له، تثبت الدعوى إلى أن يوجد مُنازِع.

إذن كلمة «لا إله إلا الله» معها دليل الصدق؛ لأنه إما أن يكون هذا الكلام حقًا وصدقًا فتنتهي المسألة، وإن لم يكن حقًا فأين الإله الذي خلق والذي يجب أن يُعبد بعد أن سمع من جاء ليأخذ منه هذه القضية؟ وبعد ذلك لا نسمع له حسًا ولا حركة، ولا يتكلم، ولا نعلم عنه شيئًا، فما هو شأنه؟ إما أنه لم يعلم فلا يصلح أن يكون إلهًا؛ لأنه لو كان قد علم ولم يرد فليست له قوة. ولذلك ربنا سبحانه يأتي بهذه القضية من ناحية أخرى فيقول:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُواً كَبِيراً﴾[1].

فلو كان عند تلك الآلهة المزعومة مظاهر قوة لذهبوا إلى الله سبحانه وتعالى وأنكروا ألوهيته، ولو كان هناك إله غير الله لحدثت معركة بين الآلهة، ولكن هذا لم يحدث. فالكلمة «لا إله إلا الله» صدق في ذاتها حتى عند من ينكرها،

(١) سورة الإسراء: ٤٢، ٤٣.

والدليل فيها هو عدم وجود المنازع لهذه الدعوى؛ لأنه إن لم يوجد منازع فقد ثبت أنه سبحانه لا إله إلا الله. وإن وجد المنازع نقول: أين هو؟

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - هب أننا في اجتماع، وبعد ذلك وجدنا حافظة نقود، فعرضناها على الموجودين، فلم نجد لها صاحبا، ثم جاء واحد كان معنا وخرج، وقال: يا قوم بينما كنت أجلس معكم ضاعت حافظة نقودي. ولما لم يدعها واحد منا لنفسه فهى إذن حافظته هو.

إذن «لا إله إلا الله» هى قضية تمتلئ بالصدق والحق، والله هو المعبود الذي يُتَوَجَّه إليه بالعبادة، والعبادة هى الطاعة. فمعنى عابد أي طائع، وكل طاعة تقتضى أمراً وتقتضي نهيًا، وما دامت العبادة تقتضى أمراً وتقتضى نهيًا، فلابد أن يكون المأمور والمنهى صالحًا أن يفعل وصالحًا ألا يفعل. فعندما نقول له: افعل كذا كمنهج إيمان، فهو صالح لئلا يفعل. وعندما نقول له: لا تفعل فهو صالح لأن يفعل، وإلا لو لم يكن صالحًا ألا يفعل أيقول له «افعل»؟ لا، لا يقول له ذلك. ولو كان صالحًا ألا يفعل أيقول له «لا تفعل»؟ إن ذلك غير ممكن.

إذن لابد أن يكون صالحًا لهذه وتلك وإلا لكان الأمر والنهي عبثًا ولا طائل من ورائهما. لذلك عندما أرادوا أن يقصروا الإسلام في العبادات الطقسية التي هى شهادة لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، قالوا: هل هذا هو كل الإسلام، وقالوا: إنه دين يعتمد على المظاهر فقط، قلنا لهم: لا، إن الإسلام هو كل حركة في الحياة تناسب خلافة الإنسان في الأرض؛ لأن الله يقول في كتابه الكريم:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1].

---

(١) سورة هود: ٦١.

﴿واستعمركم فيها﴾ أي طلب منكم أن تعمروها، فكل حركة في الحياة تؤدي إلى عمار الأرض فهى من العبادة، فلا تأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هى الأركان التي ستقوم عليها حركة الحياة التي سيبني عليها الإسلام، فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساسًا بدون مبنى، فهذه هى الأركان التي يُبنى عليها الإسلام، فإذن الإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان في الأرض يبين ذلك ويؤكده قول الله تعالى:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1].

ويخرج إلينا أناس يقولون: نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل. ونقول لأي منهم: كم تأخذ الصلاة منك في اليوم؟ ساعة مثلاً. والزكاة كم تأخذ منك في العام يومًا واحدًا في العام؟ والصوم كم يأخذ منك من قوت؟ نهار أيام شهر واحد. وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة في عمرك؟ فبالله عليك ماذا تفعل في الباقي من عمرك من بعد ذلك وهو كثير؟ إنك لا تأخذ أكثر من ساعة في اليوم للصلاة، ولا تأخذ أكثر من يوم في السنة لإخراج الزكاة، وتقضى شهراً في السنة تصوم نهاره. وتحج مرة واحدة في عمرك، فماذا تفعل في بقية الزمان، ستأكل وتلبس، ستطلب رغيف الخبز للطعام فمن الذي سيصنعه لك؟ إن هذا الرغيف يمر بمراحل حتى يصير لقمة تأكلها. ويحتاج إلى أكثر من علم وأكثر من حركة وأكثر من طاقة.

إن المحل الذي يبيعه فقط ولا يخبزه يحتاج إلى واجهة من زجاج أو غيره، ولابد أن يعمل فيه من يذهب بعربته إلى المخبز ليحمل الخبز، وينقله إلى المحل ويبيعه، وإذا نظرت إلى الفرن فسوف تجد مراحل عدة من تسليم وتسلم للدقيق، ثم إلى العجين، وإلى النار التي توقد بالمازوت، ويقوم بذلك عمال يحتاجون

---

(١) سورة هود: ٦١.

لمن يخطط لهم، وقبل ذلك كان الدقيق مجرد حبوب، وتم طحنها لتصير دقيقًا، وهناك مهندسون يديرون الماكينات التي تطحن، ويعملون على صيانتها، وبعد ذلك الأرض التي نبت فيها القمح وكيف تم حرثها، وتهيئتها للزراعة، وريها، وتسميدها، وزرعها، وحصدها، وكيف دُرِسَ القشر والسنابل، وكيف تتم تذريته من بعد ذلك، لفصل الحبوب عن التبن، وتعبئة الحبوب، إلى غير ذلك؟

انظر كَم من الجهد أخذ رغيف الخبز الذي تأكله، وكم من الطاقات وكم رجالٍ للعمل، فكيف تستسيغ لنفسك أن يصنعوه لك، وأنت فقط جالس لتصلي وتصوم؟ لا، إياك أن تأخذ عمل غيرك دون جهد منك.

مثال آخر، أنت تلبس جلبابًا، كم أخذ هذا الجلباب من غزل ونسج وخيط؟ إذن فلا تقعد، وتنتفع بحركة المتحرك في الحياة، وتقول: أنا مخلوق للعبادة فقط، فليست هذه هى العبادة، ولكن العبادة هى أن تطيع الله في كل ما أمر، وأن تنتهى عن كل ما نهى في إطار قوله تعالى: ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ إن كل عمل يعتبر عبادة، وإلا ستكون «تنبلاً» في الوجود. والإيمان الحق يقتضى منك أن تنتفع بعملك ولا تعتمد على عمل غيرك.

إن الحق سبحانه وتعالى قد استخلفنا في الأرض من أجل أن نعمرها. ومن حسن العبادة أن نتقن كل عمل وبذلك لا نقيم أركان الإسلام فقط، ولكن نقيم الأركان والبنيان معًا. ونكون قد أدينا مسئولية الإيمان، وطابق كل فعل من أفعالنا قولنا: «لا إله إلا الله».

ولقد عرفنا أن كلمة «الله» هى علَم على واجب الوجود، وهى الاسم الذي اختاره الله لنفسه وأعلمنا به، ولله أسماء كثيرة كما روى في الحديث عن رسول الله ﷺ حين سأل الله بكل اسم هو له أنزله في كتابه أو علمه أحداً من خلقه - أي خصّه به - أو استأثر به في علم الغيب عنده، فلا تظنن أن أسماء الله هى

كلها هذه الأسـماء التي نعرفهـا، ولكن هذه الأسماء هى التي أذن الله سبـحانه وتعالى بأن نعلمها.

ومن الجـائز، أو من لفظ الحـديث نعلم أن الله قـد يُعلّم بعضًـا من خلقـه أسماء له، ويستأثـر لنفسه بأسماء سنعرفها يوم القـيامة حين نلقاه، وحين نتكلم عن الأسماء الأخرى نجد أنهـا ملحوظ فيها الصفة، ولكنهـا صارت أسماء لأنها الصفة الغالبة، فإذا قيل: «قـادر» نجد أننا نستخدم هذه الكلمة لوصف واحد من البشـر، ولكن «القادر» إذا أطلق انصرف إلى القـادر الأعلى وهو الله. وكذلك «السميع»، و«البصير». و«العليم».

إننا نجد أن بعضًا من أسـماء الله سبحانه وتعالى له مـقابل، ومن أسماء الله الحسنى مـا لا تجد له مـقابلاً. فإذا قـيل «المحيى» تجـد «المميت»، و«المعـز» تجد «المذل»، لأنها صفة يظهر أثرها في الغير، فهو مميت لغيره، ومعزّ لغيره، ومذل لغيره، لكن الصفـة إن لم يوجد لها مقابل نسميهـا صفة ذات، فهو «حى» ولا نأتي بالمقابل إنما «محيـى» نأتي بالمقابل وهو «المميت»، فهذه اسمهـا صفة فعل. فصفات الفعل يتصف بها وبمقابلهـا لأنها في الغير. لكن صفة الذات لا يتصف إلا بها.

وحينما قـال الحق: «الله» فهو سبحـانه يريد أن يعطينا بعض تجليات الله في أسمائه، فقال: «الله لا إله إلا هو» ليحقق لنا صفة التوحيد، ويجب أن نعلم أن «إلا» هنا ليست أداة استـثناء، لأنها لو كانت أداة استـثناء فكأنك تنفى أن توجد آلهة ويكون الله من ضمن هذه الآلهة التي نفيتـها وذلك غير صحيح. وإنما المراد أنه لا آلهة أبدًا غـير الله فـهو واحد لا شـريك له، وأنه لا معـبود بحق إلا هو فكلمة «إلا» ليست للاستثناء وإنما هى بمعنى غير، أي لا إله غير الله.

وقد عرفنا أن هذه القضية معها دليلها، وإلا فلو كان هناك إله آخر لقال لنا: إنه موجود. لكن لا إله إلا هو سبحـانه أبلغنا «الله لا إله إلا هو». وأعجبني ما

قالـه الدكتـور عبد الوهـاب عزام - رحمـة الله عليـه - وكان متـأثراً بالشـاعر الباكستاني «إقـبال»، كان للشاعر إقبال شيء اسمـه «المثاني»، أي أن يقول بيتين من الشعر في معنى، وبيتين من الشعـر في معنى، وكان يغلب على شعر إقبال الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي، وقـد تأثر الدكتور عبد الوهاب عزام بشعر إقبال فجعل له مثاني أيضًا يناظر فيها «إقبال»، فيقول:

إنما التوحيد إيجاب وسلب وفيهما للنفس عزم ومضاء

وقوله: «إنما التـوحيـد إيجاب وسلب» هو قول مـتأثر بالقضـية الكهـربية. فيقـول: إنما التوحيد إيجـاب وسلب فيهمـا للنفس عزم ومضاء. فـأنت عندما تقـول: «لا إله»، فـ «لا» لـلنفي، وعندمـا تكـمل قـولك: «إلا الله» فـ «إلا» للإثبات، ويكمل الدكتور عزام قوله: لا وإلا قـوة قاهرة. فهما في القلب قطبا الكهرباء كأن الكهربـاء تأتي بأنك تسلب وتوجب. فالإيجاب في «إلا» والسلب في «لا». وما دام فيه إيجاب وسلب، إذن ففيه شرارة كهرباء.

«الله لا إله إلا هو الحيّ القـيـوم»، و«الحيّ» هو أول صـفـة يجب أن تكون لذلك الإله، لأن القدرة بعد الحياة، والعلم بعـد الحياة. فكل صفة لابد أن تأتي بعدها في الذكر وإلا فلـيست صفة من صفـات الله أسبق من صفة ولا متـقدمة عليها فكلها قديمة لا أول لها، فلو كـان عدمًا فكيف تأتي الصفات على العدم؟ وكلمة «حيّ» عندما نسمـعها نقول: ما هو الحيّ؟. إن الفلاسفـة قد احتاروا في تفسيرها. فمنهم من قال: الحيّ هو الذي يكون على صفة تجعله مُدْرِكًا إن وُجِدَ ما يُدْرَكُ.

كأن الفـيلسوف الذي قال ذلك: يعني بالحـياة حياتنا نحن، ومـا دوننا كأنه ليس فيه إدارك. ونقول لصاحب هذا الرأي: لا، إن أردت الحياة بالمعنى الواسع الدقـيق فلابد أن تقـول: الحـياة هى أن يكـون الشيء على الصفـة التي تبـقى صلاحيـته لمهمتـه، هذا هو ما يجب أن يكون عليه التـعريف، فـ «الحيّ» : هو

الذي يكون على صفة تُبقى له صلاحيته لمهمته، مثال ذلك النبات، ما دمت تجده ينمو، إذن ففيه حياة تُبقى له صلاحية مهمته. فلو قُطعَ لانتهت الصلاحية. ومثل الإنسان عندما يموت تنتهى صلاحيته لمهمته والعناصر الجامدة عندما تأتي مع بعضها تتفاعل، هذا التفاعل فرع وجود الحياة، لكنها حياة مناسبة لها وليست مثل حياتنا.

أنت مثلاً ترى «الزلط» الناعم الأملس، تجده على مقدار واحد؟ لا، إن أشكاله مختلفة، وهذا دليل على أن هناك مراحل للحجر الواحد منها، ولو استمرت تلك الأحجار في بيئتها الطبيعية فلاشك أن هذه الكبيرة تتفتت يومًا وتصير صغيرة ثم تكبر مرة أخرى، لكن الإنسان حين يستخدم هذه الحجارة ليضعها على سبيل المثال بين القضبان التي تسير عليها القطارات فهذه الأحجار تكون قد خرجت من بيئتها. ومن حكمة الله أنه لا يوجد شيء تنتهى جدواه أبدًا، بل هو سبحانه يهيىء لكل شيء مهمة أخرى.

إذن فكل كائن يكون على صفة تُبقى له صلاحيته لمهمة، وتكون له حياة مناسبة لتلك المهمة. نحن لا نأتي بهذا الكلام من عندنا، ولكننا نأتي بهذا الكلام لأننا نقرأ القرآن بإمعان وتدبر، ونقول: ماذا يقابل الحياة في القرآن؟ إنه الهلاك بدليل إن الله قال:

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[(١)].

إذن فالحياة مقابلة للهلاك. و«الحي» غير هالك. والهالك لا يكون حيًّا، ويقول تعالى في الآخرة:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[(٢)].

---

(١) سورة الأنفال: ٤٢.

(٢) سورة القصص: ٨٨.

ومعنى ذلك إن كل الأجناس من أعلاها إلى أدناها، سواء الإنسان، أو الملائكة، أو الحيوان أو النبات، كلها ستكون هالكة، وما دام كل شيء سيهلك يوم القيامة فكأنه لم يكن هالكًا قبل ذلك، وله حياة مناسبة له. أليست الحجارة شيئًا، وستدخل في الهلاك يوم القيامة؟. إذن فهى قبل ذلك غير هالكة. لكننا نحن البشر لا نفطن إلى ذلك ونفهم الحياة فقط على أنها الحس والحركة الظاهرة. مع إن العلماء قد أثبتوا أنه حتى الذرة فيها دوران، ولها حياة. وأنت عندما تنظر بالمجهر على ورقة من النبات، وترى ما بها من خضر وخلايا، وتشاهد العمليات التي تحدث بها، وتقول: هذه حياة أرقى من حياتنا، وأدق منها.

إذن فكل شيء له حياة، وإياك أن تظن أنك أنت الذي تهلكها، فعندما تأتي بحجر وتدقه أو تضعه في الفرن لتصنع الجير؛ إياك أن تقول: إنك أذهبت من الأحجار الحياة المناسبة لها، أنت فقط قد حولت مهمتها من حجر صلب، وصارت لها مهمة أخرى، فالمسائل تتسلسل إلى أن يصير لكل شيء في الوجود حياة تناسب المهمة التي يصلح لها.

وانظر إلى مهمة الحق، ما شكلها؟ إنها الحياة العليا، وهو الحي الأعلى وحي لا تُسلب منه الحياة، لأن أحداً لم يعطه الحياة، بل حياته سبحانه ذاتية، فهذا هو الحي على إطلاقه.

إذن فالحي على إطلاقه هو الله والحق سبحانه وتعالى قال: ﴿الله لا إله إلا هو الحيّ﴾ وأثر صفة هذه موجود في كل الصفات الأخرى فقال: ﴿القيوم﴾. والقيوم هو صفة مبالغة في قائم. ومثلها قولنا: «الله غفور» لكن ألا يوجد غافر؟ يوجد غافر، لكن «غفور» هى صفة مبالغة.

وقد يقول قائل: هل صفات الله فيها صفة قوية وأخرى ضعيفة؟. نقول: لا، فصفات الله لا يصح أن توصف بالضعف أو بالقوة، صفات الله نظام

واحد. وحتى نفهم ذلك فلنضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نقول: كلنا نأكل كي نستبقى حياتنا، فكل واحد منا «آكل»، لكن عندما نقول: فلان أكول، فمعنى ذلك إنه أخذ صفة الأكل التي كلنا شركة فيها وزاد فيها فنقول عليه: «أكّال» أو «أكول».

من أي ناحية تأتي هذه الزيادة؟ قد تأتي الزيادة من أنك تأكل في العادة رغيفًا، وهو يأكل رغيفين أو ثلاثة، إذن فالحدث له في الأكل أثر كبير فنقول عليه: أكول. وقد يأكل معك رغيفًا في الوجبة الواحد، لكنه يأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث وجبات؛ فيكون أيضًا أكولاً، إذن فـ «أكول» إما مبالغة في الحدث نفسه وإما بتكرار الحدث.

ونحن ننظر إلى صفات الله ونقول: إنها لا تحتمل القوة والضعف في ذات الحدث، إنما في تكررها بالنسبة للمخلوقين جميعًا، فالله غافر لهذا، وغافر لذاك، وغافر لكل عاص يتوب، إذن فالحدث يتكرر، فيكون «غفورًا» و«غفّارًا». وهذا ما يحل لنا الإشكال في كثير من الأمور، فعندما يقول سبحانه:

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(١).

فنحن هنا نجد قضية لغوية تقول: إنك إذا جئت بصيغة المبالغة، وأثبتها، تكون الصيغة الأخرى الأقل منها ثابتة بالضرورة، مثال ذلك عندما نقول: فلان «علاّم» أو «عالم»، فما دمت أثبت له الصفة القوية؛ تكون الصفة الضعيفة موجودة، لكن إذا نفيت الصفة المبالغ فيها قد تكون الصفة الأخرى موجودة، فهو ليس «علامة» لكنه قد يكون «علامًا» أو «عالمًا»، فإذا قلت: فلان «علامة» فقد أثبت له الأدنى أيضًا، فيكون «علاّمًا» و «عالمًا». لكن إذا نفيت عنه «علامة» انتفى عنه الباقي؟ لا، إذن فنفى الأكثر لا ينفى الأقل.

---

(١) سورة فصلت: ٤٦.

لكن إذا أثبت الأكثر ثبت الأقل، وإذا نفيت الأكثر فلن ينتفى الأقل، فإذا قلت: الله ليس بظلام للعبيد، نفيت الأكثر. صحيح أنه غير مبالغ في الظلم، فهل يمكن أن يكون ظالمًا؟ على حسب ما قلنا: إذا نفينا الأكثر لا ينتفى الأقل نقول: لا، لإننا هنا يجب أن نأخذ القضية الأولى في أن المبالغة في الحدث والمبالغة في الفعل تأتي مرة في ذات الحدث، ومرة في تكرار الحدث، والحق سبحانه لو أراد أن يظلم هذا ويظلم هذا، فقد تكرر الحدث؛ فيكون معاذ الله - ظلاَّمًا، ولذلك لم يقل: بظلاّم للعبد، بل قال: بظلاّم للعبيد.

إذن فهذا العبد يحتاج ظالمًا، والعبد الآخر يحتاج ظالمًا، وذاك يحتاج ظالمًا! فعندما يظلم كل هؤلاء يكون ظلامًا، ولذلك نفاها سبحانه وقال: **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾**.

والحق هنا يقول: «قيوم» وهذه صفة مبالغة من قائم، فالأصل فيها: القائم على أمر بيته، والقائم على أمر رعيته، والقائم على أمر المدرسة، والقائم على أمر هذه الإدارة، ومعنى قائم على أمرها: أنه متولى شئونها، فكأن القيام هو مظهر الإشراف. فنحن لا نقول: «قاعد على إدارتها». وعندما نقول «قيوم» فمعناها أنه أوسع في القيام. كيف جاء هذا الاتساع؟. لأن القائم قد يكون قائمًا بغيره، لكن حين يكون قائمًا بذاته، وغيره يستمد قيامه منه، فهو قائم على كل نفس وهو سبحانه القائل:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(١).

إن المشركين قد بلغوا السفه في جحودهم فجعلوا لله شركاء في العبادة،

---

(١) سورة الرعد: ٣٣.

فهل يستطيع أحد أن يبلغ تلك المرتبة العالية، مرتبة خلق العالم والقيام على كل أمر فيه، صغر أو كبر؟. إنه الحافظ المراقب لكل نفس، العالم بكل ما خفى وظهر، وهذه الأوثان لا تضر ولا تنفع، فكيف تتوهمون يا من أشركتم بالله له نداً، إن الحق مُنزه عن ذلك بقيامه على كل نفس وكل الخلق. لكن أهل الضلال أغواهم ضلالهم فلم يعد لهم هاد بعد الله.

إن الحق سبحانه قائم بذاته، وقائم على غيره. والغير إن كان قائماً إنما يستمد منه القيام. فلابد أن يكون «قيوماً»، ومن قيومته أنه ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾، وقيل في كتب العلم: إن قوم بنى إسرائيل سألوا موسى - عليه السلام -: أينام ربنا؟.

فأوحى الله إليه: أن آت برجاجتين وضعهما في يد إنسان، ودعه إلى أن ينام، ثم انظر الجواب. فلما وضع في يده الزجاجتين ونام. انكسرت الزجاجتان فقال: هو كذلك، هو قائم على أمر السماء والأرض، ولو كانت تأخذه سنة أو نوم لتحطمت الدنيا.

وهو سبحانه ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾. و«السنة» هى أول ما يأتي من النعاس؛ أي النوم الخفيف، فالواحد منا يكون جالساً ثم يغفو، لكن النوم هو «السُبات العميق»، فلما قال: ﴿لا تأخذه سنة﴾ قالوا: إنه يتغلب على النوم الخفيف لكن؛ هل يقدر على مقاومة النوم العميق؟. فقال الحق عن نفسه: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾. وعرفنا أن السنة هى: النعاس الذي يأتي في أول النوم، ومظهرها يبدو أولاً في العين وفي الجفن، فعندما يذهب إنسان في النوم؛ فإن أثر ذلك يظهر في عينيه، ولذلك يقولون: إن العين هى الجارحة التي يمكن أن تعرف بها أحوال الإنسان، وقد اكتشفوا في عصرنا الحديث أن الشرايين لا يمكن أن يعرفوا حالتها بالضبط إلا من العين. فالفتور الذي يأتي في العين أولاً هو السنة أو مقدمات النوم ونسميه: النعاس.

﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ أتريدون تطمينًا من إله لمألوه، ومن معبود لعابد، ومن خالق لمخلوق أكثر من أنه يقول للعابد المخلوق: «نم أنت ملء جفونك، واسترح؛ لأن ربك لا ينام». ماذا تريد أكثر من هذا؟ هو سبحانه يعلم أنه خلقك، وأنك تحتاج إلى النوم، وأثناء نومك فهناك أجهزة في جسمك تعمل. أإذا نمت وقف قلبك؟ أإذا نمت انقطع نفسك؟ أإذا نمت وقفت معدتك من حركتها الدودية التي تهضم؟ أإذا نمت توقفت أمعاؤك عن امتصاص المادة الغذائية؟ لا، بل كل شيء في دولابك يقوم بعمله. فمن الذي يُشرف على هذه العمليات لو كان ربك نائمًا؟

إذن فأنت تنام وهو لا ينام وبالله هل هذه عبودية تُذلّنا أو تُعزنا؟ إنها عبودية تُعزنا؛ فالذي نعبده يقول: ناموا أنتم؛ لأنني لا تأخذني سنة ولا نوم. وإياك أن تفهم أنه لا تأخذه سنة ولا نوم، وأن شيئًا في كونه يخرج على مراده، لا؛ لأن كل ما في السموات والأرض له، فلا شيء ولا أحد يخرج عن قدرته. ولذلك يقول الحق: **﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾**.

ويتابع سبحانه بقوله: **﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾** إنّه سبحانه وتعالى يوضح: أنا أعطيتك الراحة في الدنيا، وحتى الكافر جعلته يتنعم بنعمي، ولم أجعل الأسباب تضن عليه، وأعطيته ما دام قد اجتهد في تلك الأسباب مما يدل على أنني ليس عندي محاباة، قلت للأسباب: يا أسباب من يُحسنك يأخذك ولو كان كافرًا بي. لكنه سيأتي يوم القيامة وليس للكافر إلا العذاب، لأنه ما دام قد عمل في الدنيا وأحسن عملاً فقد أخذ جزاءه، فإياكم أن تظنوا كما قالوا: **﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾**، وجاء فيهم قول الحق:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ

شُفَعَاؤُنَا عندَ اللَّه قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

إن هؤلاء الذين افتروا على الله بالشرك به، واتخذوا أصنامًا باطلة لا تضرهم ولا تنفعهم. يقولون عن هذه الأصنام: إنها تشفع لهم عند الله في الآخرة، ويأمر الحق سبحانه رسوله محمداً ﷺ أن يبلغ المشركين: قل لهم يا محمد: هل تخبرون الله بشريك لا يعلم الله له وجوداً في السموات ولا في الأرض، وهو الخالق لكل ما في السموات والأرض ومُنزه سبحانه عن أن يكون له شريك في المُلك.

لقد أرادوا أن يخلوا بقضية التوحيد ويجعلوا لله شركاء ويقولوا: إن هؤلاء الشركاء هم الذين سيشفعون لنا عند الله. فيقول الحق سبحانه: إن الشفاعة لا يمكن أن تكون عندي إلا لمن أذنت له أن يشفع. إن الشفاعة ليست حقًّا لأحد. ولكنها عطاء من الله، لذلك يقول: **﴿من ذا الذين يشفع عنده إلا بإذنه﴾**.

ويقول الحق: **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾**. ساعة يتعرض العلماء إلى: **﴿ما بين أيديهم ما خلفهم﴾** يشرحون لنا أن ما بين اليدين أي ما أمامك، وما خلفك أي ما وراءك، وما بين يدي الإنسان يكون: مواجهًا لآلة الإدراك الرائدة وهى العين، فهو أمر يُشهد.

والذي في الخلف يكون غيبًا لا يراه، كأن ما بين اليد يراد به المشهود والذي في الخلف يراد به الغيب، فهو **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾** أي يعلم مشهدهم وغيبهم، ويطلق «ما بين اليد» إطلاقًا آخر.. إننا قد نسأل عمّا بين يديك. هل هو مواجه لك أو غير مواجه؟ فلو كان أمامك بشر، فهل هم قادمون إليك أو راحلون عنك؟

---

(١) سورة يونس: ١٨.

إنهم إن كانوا راحلين عنك فقد سبقوك وقد جئت أنت من بعدهم، ومن وراءك سيأتي من بعدك. أي إن الحق سبحانه يخبرنا أنه يعلم الماضي والمستقبل مفسرة يعلم الحق ما بين أيديهم، أي العالم المشهود ويسمونه «عالم الملك»، وما خلفهم أي الغيب، ويسمونه «عالم الملكوت». إنه يعلم المشهود لهم والخفى عنهم. وكما يقول الحق:

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾(1).

إن عند الله علم جميع الغيب ويحيط علمه بكل شيء، ولا تخفى عليه خافية. إنها إحاطة من كل ناحية. **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾**. إنه الحق يعلم مطلق العلم. وكون الحق يعلم فإن ذلك لا ينفى أن يكون غيره يعلم أيضًا، لكن علم البشر هو بعض علم موهوب من الخالق لعباده.

فعندما يقول واحد: أنا أقول الشعر. فهل منع ذلك القول أحدًا آخر من أن يقول الشعر؟ لا. إنه لم يقل: ما يقول الشعر إلا أنا.

ويقول سبحانه: **﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾**، و«العلم» هو الصفة التي تعلم الأشياء على وفق ما هى عليه، هذا هو العلم. وصفة الله وعلمه أعظم من أن يحاط بها، لأنها لو أحيطت لحددت، وكمالات الله لا تحدد، مثلما ترى شيئًا يعجبك فتقول: هذه قدرة الله، هل هى قدرة الله أو مقدور الله؟ إنها مقدور الله أي أثر القدرة، فعندما يقول: **﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾** أي من معلومه.

---

(١٧) سورة الأنعام: ٥٩.

«ويحيطون» هى دقة في الأداء، لأنك قد تدرك معلومًا من جهة وتجهله من جهات، فأوضح سبحـانه: أنك لا تقدر أن تحيط بعلم الله أو قدرته؛ لأن معنى الإحاطة أنك تعـرف كل شيء، مثل المحـيط على الدائرة، لكن ذلك لا يمنع أن نعلم جزئية مـا، ونحن نعلم بما آتانا الله من قوانين الاستنباط، فهناك مـقدمات نستنبط منها نتائج، مثل الطالب الذي يحل مسألة جبر، أو تمرين هندسة، أيعلم هذا الطالب غـيبًا؟ لا، ولكنه يـأخذ مقـدمات مـوضوعة له ويصل إلـى نتائج معروفـة سلفًا لأستاذه. وأنت لا تحيط بعـلم إلا بما شاء لك الله أن تحيط، ﴿لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾.

وقول الله: ﴿إلا بما شاء﴾ هو إذن منه سبحانه بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئًا من معلومه، وكان هذا المعلوم خفيًّا عنهم ومستوراً في أسرار الكون، ثم يأذن الله للسر أن ينكشف، وكل شيء اكتشفه العقل البشري، كان مطموراً في علم الغيب وكان سرًّا من أسرار الله، وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف فعـرفناه، بمشيئتـه سبحـانه. فكل سر في الكون له ميلاد كـالإنسان تمامًا، أي إن له ميعـاداً يظهر فيه، وهذا الميعاد يسمى مـولد السر. لقد كان هذا السـر موجـوداً وكان العالم يستفـيـد منه وإن لم يعلمـه. لقـد كنا نحن نستفيد - على سبيل المثال - من قانون الجاذبيـة ولم نكن نعلم قانون الجاذبية، وكذلك النسبية كنا نستفيد منهـا ولم نكن نعلمها، وهذا ما يبينه لنا الحق في موضع آخر من القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

ما دام قال سبحانه: ﴿سنريهم﴾، فهذا يعني إنه سبحـانه سيولد لنا أسراراً

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

جـديدة، وهذا الميـلاد ليس إيجـادًا وإنما هـو إظهـار، ولذلك يقـول الناس عن الأسرار العلمية: إنهـا اكتشافات جديدة، لقد تأدبوا في القـول مع أن كثيراً منهم غير متدينين قـالوا: اكتشفنا كذا، كأن ما اكتشفوه كـان موجوداً وهم لا يقصدون هذا الأدب. إنما هي جاءت كـذلك، أما المؤمنون فـيقولـون: لقد أذن الله لذلك السر أن يولـد. وقوله: ﴿لا يحـيطون بشيء من علمـه إلا بما شـاء﴾ فـيه تحـد واضح. فحتى إذا اجتمع البشـر مع بعضهم البعض فلن يحيطوا بشيء إلا بإذنه. وهذا تحدٍ للكل، حين يشاء سـبحانه أن يوجد إظهار سر في الوجـود، فهذا السر يولد، وقد يكون إظهـار السر موافـقًا لبحث الناس مثـل العالم الذي يجلس في معمله ليجرب في العناصر والتفاعلات، ويهتدى لهذه وهذه، إنه يتعب كثيراً كي يعرف بعضًا من الأسرار، ونحن لا ندري بتعبه وجهده إلا يوم أن يكتشف سره.

لقد أخـذ المقدمات التي وضعـها الله في الكون حتى إذا تـتبعناها نصل إلى سره، مـثلمـا نريد أن نصل إلى الولد فنتزوج حـتى يأتي، وقد يـأذن الله مراراً كثيرة أن يولد السر بدون أن يشتغل الخلق بمقدماته، لكن ميعاد السر قد جاء ولم ينشغل العلماء بمقدماته؛ فيخرجه الله لأي مخترع كنتيجة لخطأ في تجربة ما.

وعندما نـبحث في تاريخ مـعظم الاكتشـافات نجـدها كذلك، لقـد جاءت مصادفة، فهناك عالم يبحث في مجال ما، فتخرج له حقيقة أخرى كانت مخفية عنا جميعًا. لقد جاء ميعاد ميلادها على غير بحث من الخلق، فجاء الله بها في طريق آخر لغيرها، وفي بعض الأحيـان يوفق الله عالمًا يبحث المقدمات ويكشف له السر الذي يبحث عنه.

إذن، فـ ﴿لا يحـيطون بشيء من علمـه إلا بما شـاء﴾ تعني إن الإنسـان قد يصادف السر بالبحث، ومرة يأتي سر آخـر في مجال البحث عن غيره، فالله لا يضن بكشف السر حـتى لو لم يشتغلوا به ونسـميها نحن - مـصادفة - إن كل شيء يجرى في الكـون إنما يجرى بمقدار، وهذا هو الذي يفـرق لنا بين معـرفة

غيب كان موجودًا وله مقدمات في كون الله نستطيع أن نصل إليه بها، وشيء مستور عند الله ليست له مقدمات؛ إن شاء سبحانه أعطاه من عنده تفضلاً من باب فضل الجود لا بذل المجهود وهو سبحانه يفيضه في «المصادفة» هنا ويفيضه فيما لا مقدمات له على بعض أصفيائه من خلقه، ليعلم الناس جميعًا أن لله فيوضات على بعض عبيده الذين وَالاَهُمُ الله بمحبته وإشراقاته وتجليه.

لكن هل هذا يعني إن باستطاعتنا أن نعرف كل الغيب؟ لا، فالغيب قسمان: غيب جعل الله له في كونه مقدمات، إن استعملناها نصل إليه، ككثير من الاكتشافات، وإذا شاء الله أن يولد سر ما ولم نبحث عنه فهو يعطيه لنا «مصادفة» من باب فيض الجود بلا بذل المجهود. ونوع آخر من الغيب ليست له مقدمات، وهذا ما استأثر الله بعلمه إلا أنه قد يفيض به على بعض خلقه كما يقول سبحانه:

﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾(١)

إن الله هو عالم الغيب فلا يُطلع أحدًا من خلقه على غيبه إلا من ارتضاه واصطفاه من البشر، لذلك فلا أحد يستطيع أن يتعلم هذا اللون من الغيب. ولذلك فلا يوجد من يفتح دكانًا لعلم الغيب يذهب إليه الإنسان ليسأله عن الغيب. إن الحق يقول:

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾(٢)

وهو سبحانه لا يعطى المفتاح لأحد من خلقه. وقد يريد الله أن يعطى

---

(١) سورة الجن: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الأنعام: ٥٩.

لواحد كرامة، فأعطاه كلمة على لسانه قد يكون هو غير مدركٍ لها! فيقول: من يسمع هذا القول وينتفع به. فلان قال لي: كذا وكذا.. يا سلام! وهذا فيض من الله على عبده حتى يبين الله لنا أنه يوالي هؤلاء العباد الصالحين.

وقوله الحق: ﴿ولا يحيطون بشيء﴾ نجد أن كلمة «شيء» تعنى أقل القليل. وقوله سبحانه: ﴿من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض﴾ يعلمنا أن الحق فيما يتكلم به عن نفسه ولخلقه فيه نظائر، كالوجود، هو سبحانه موجود وأنت موجود، وكالغنى هو غنى وأنت غنى، كالعلم هو عالم وأنت تكون عالمًا، فهل نقول: إن الصفة لله كالصفة عندنا؟ لا، كذلك كل ما يرد بالنسبة للغيب فيما يتعلق بالله إضافة أو وصفًا؛ لا تأخذها بالمناسب عندك؛ بل خذها في إطار ﴿ليس كمثله شيء﴾.

فإذا قيل لله يد، قل: هو له يد كما أن له وجودًا؛ وبما أن وجوده ليس كوجودي فيده ليست كيدي بل افهمها في إطار ﴿ليس كمثله شيء﴾، فإذا قال: ﴿وسع كرسيه﴾ نقول: هو قال هذا، وما دام قال هذا فسنأخذ هذه الكلمة في إطار ﴿ليس كمثله شيء﴾. فلا تقل له كرسي وسيقعد عليه مثلنا، لا. لقد وجدنا من قال: أين يوجد الله؟!! متى وجد؟!! وقلنا ونقول: «متى» و«أين» لا تأتي بالنسبة لله، إنها تأتي بالنسبة لكم أنتم، لماذا؟ لأن «متى» زمان و«أين» مكان. والزمان والمكان ظرفان للحدث، فالشيء الحادث هو الذي له زمان ومكان، مثال ذلك أن أقول: «أنا شربت» وما دام قد حدث الشرب فيكون له زمان ومكان، لكن هب أنني لم أشرب، أيكون هناك زمان أو مكان؟! لا، فما دام الله ليس حدثًا فليس متعلقًا به زمان أو مكان، لأن الزمان والمكان نشآ عندما خلق الله وأحدث هذا الكون، فلا تقل: «متى» لأن «متى» خُلِقَت به، ولا تقل «أين» لأن أين خُلِقَت به ولأن «متى» و«أين» ظرفان؛ هذه للزمان، وهذه للمكان، والزمان والمكان فرعًا الحدث، وعندما يوجد حدث فقل زمان ومكان.

إذن فما دام الله ليس حدثًا، فإياك أن تقول فيه متى، وإياك أن تقول فيه أين، لأن «متى» و«أين» وليدة الحدث. وقوله الحق: ﴿وسع كرسيه﴾ نأخذه - كما قلنا - في إطار ﴿ليس كمثله شيء﴾، الكرسي: في اللغة من الكِرْس. والكِرْسُ هو: التجميع، ومنهن الكراسة وهى عدة أوراق مجمعة، وكلمة «كرسي» استعملت في اللغة بمعنى الأساس الذي يُبنى عليه الشيء، فمادة «الكرسي» «الكاف والراء والسين» تدل على التجميع وتدل على الأساس الذي تثبت عليه الأشياء؛ فنقول: اصنع لهذا الجدار كرسيًا، أي ضع لهذا الجدار أساسًا يقوم عليه. وتطلق أيضًا على القوم العلماء الذين يقوم بهم الأمر فيما يشكل من الأحداث، والشاعر العربي قال: «كراسي في الأحداث حين تنوب» أي يُعتمد عليهم في الأمور الجسيمة.

وحين يُنسب شيء من ذلك للحق سبحانه وتعالى. فإن السلف لهم فيها كلام والخلف لهم فيها كلام، والسلف يقولون: كما قال الله نأخذها ولكن نضع كيفيتها وتصورها في إطار ﴿ليس كمثله شيء﴾، وبعضهم قال: نؤولها بما يُثبت لها صفة من الصفات، كما يثبتون قدرة الحق بقوله الحكيم:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1].

أي أن قدرة الله فوق قدرتهم، وكما قال سبحانه عن قدرته في الخلق:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[2].

إن كمال قدرة الله أحكمت خلق السماء، والحق سبحانه مقدس ومُنَزَّهٌ عن أن يتصور المخلوق كلمة «يد» بالنسبة لله. ونحن نقول: الله قال ذلك، ونأخذها من الله؛ لأنه أعلم بذاته وبنفسه، ونُحيلها إلى ألا يكون له شبيه أو نظير، كما

(١) سورة الفتح: ١٠.
(٢) سورة الذاريات: ٤٧.

أثبتنا لله كثيراً من الصفات، في خلق الله مثلها ومع ذلك نقول: علمه لا كعلمنا، وبصره لا كبصرنا، فلماذا يكون كرسيه مثل كرسينا؟. فتكون في إطار ﴿ليس كمثله شيء﴾.

والعلماء قالوا عن الكرسى: إنه ما يُعتمد عليه، فهل المقصود علمه؟. نعم. وهل المقصود سلطانه وقدرته؟. نعم، لأن كلمة «كرسي» توحى بالجلوس فوقه، والإنسان لا يجلس عن قيام إلا إذا استتب له الأمر، ولذلك يسمونه «كرسي المُلْك»؛ لأن الأمر الذي يحتاج إلى قيام وحركة لا يجعلك تجلس على الكرسي، فعندما تقعد على الكرسي، فمعنى ذلك أن الأمر قد استتب، إذن فهو بالنسبة لله السلطان، والقهر، والغلبة، والقدرة.

أو نقول: ما دام قال: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ فوسع الشيء أي: دخل في وسعه واحتماله. ﴿والسموات والأرض﴾ نحن نفهمها إنها كائنات كبيرة بالنسبة لنا، إنه سبحانه يقول:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وعندما يقول: إن الكرسي وسع السموات والأرض، إذن، فهو أعظم من السموات والأرض أي دخل في وسعه السموات والأرض. ولذلك يقول أبو ذر الغفاري رضي الله عنه.

«سألت النبي ﷺ عن الكرسي فقال: **يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة. وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة**»[2].

---

(١) سورة غافر: ٥٧.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن حبان (٩٤)، وأبو نعيم (٣/ ١٦٧) في الحلية.

والبشرية بكل ما وصلت له من إنجازات علمية قد وصلت إلى القمر فقط وهو مجرد ضاحية من ضواحي الأرض، ومفصول عنا بمسافة تقاس بالثواني الضوئية، ولقد تعودنا في حياتنا أن نستخدم وحدات الميل والكيلومتر لقياس الأطوال والأبعاد الكبيرة، لكننا اكتشفنا أن هذه الوحدات لست ذات نفع في قياس أبعاد النجوم؛ لأننا نعرف مثلاً أن الشمس تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليونًا من الأميال، ولكن عندما نريد أن نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما، وهذا يجعل التعبير غير عملي، ولهذا السبب وضع علماء الفلك وحدة ملائمة لقياس أبعاد النجوم وهى ما نسميه السنة الضوئية. ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية. ولذلك فقياس أي مسافة بيننا وبين أي نجم في السماء أمر يحتاج إلى حسابات دقيقة وكثيرة ودراسة علوم متعددة.

فالشمس بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليونًا من الأميال ويصلنا ضوؤها في خلال ثماني دقائق وثلث الدقيقة. والشعري اليمانية وهى ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤها في تسع سنوات ضوئية.

إذن فالسنة الضوئية هى وحدة لقياس المسافات الفلكية. ونحن نذهل عندما نعرف أن بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا في خمسين سنة ضوئية!! كل ذلك ونحن لم نصل بعد إلى السماء الدنيا، فما بالنا ببقية السموات؟ إذن فحدود ملك الله فوق تصورنا. ولنا أن نعرف أي تكريم من الحق للمؤمنين حين يصور لنا ضخامة الجنة يقول سبحانه:

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(١)

---

(١) سورة الحديد: ٢١.

هذه هى الجنة التي أعدها الله للمؤمنين بالله ورسله الذين يسارعون إلى طلب غفران الله. فإذا كان عرض الجنة هو السموات والأرض، فما طولها إذن؟ وكم يكون بعدها؟ والعرض كما نعرف هو أقل البعدين.

إذن يجب أن نفهم أن هناك عوالم أخرى غير السماء والأرض، لكن عيوننا لا تبصر فقط إلا ما أراده الحق لنا من السماء والأرض، ولذلك فعندما نسمع قول الحق: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ فلنا أن نتخيل أي عظمة هى عظمة كرسى ذي الجلال والإكرام.

إن الحق يقول: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما﴾، ومعنى آده الشيء، أي أثقله. وحتى نفهم ذلك هب أن إنسانًا يستطيع أن يحمل عشرة كيلوجرامات، فإن زدنا هذا الحمل إلى عشرين من الكيلوجرامات فإن الحمل يثقل عليه، ويجعل عموده الفقري معوجًا حتى يستطيع أن يقاوم الثقل. فإن زدنا الحمل أكثر فقد يقع الرجل على الأرض من فرط زيادة الوزن الثقيل.

إذن فمعنى ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ أي إنه لا يثقل على الله حفظ السموات والأرض. إن السماء والأرض وهما فوق اتساع رؤية البشر؛ قد وسعهما الكرسي الرباني. وقال بعض المفسرين: إذا كان الكرسي لا يثقل عليه حفظ السموات والأرض فما بالنا بصاحب الكرسي!!؟

ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يطمئننا فيقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾[1].

إنه الحق وحده سبحانه وتعالى الذي يحفظ السموات والأرض في توازن عجيب ومذهل، ولئن قُدِّر لهما أن تزولا. فلن يحفظهما أحد بعد الله، أي لا

(١) سورة فاطر: ٤١.

يستطيع أحـد إمساكهمـا؛ فهما قـائمتان بقدرة الواحـد القهار، وإذا أراد الله أن تزولا فلا يستطيع أحدٌ أن يمسكهما ويمنعهما من الزوال.

وإذا كانت هذه الأشياء الضخمة من صنع الله وهو فوقها، فإنه عندما يصف نفسـه بأنه «عليّ» و«عظيم» فذلك أمر طبيـعي. إن الحق سبحـانه وتعالى يعطينا تذييلاً منطقيًّا يقتضيه ما تقدمت به الآية الجليلة: آية الكرسي، إنه الحق يقول: «وهو العليّ العظيم» وكلمة «عليّ» صيغـة مبالغة في العلو. و«العليّ» هو الذي لا يوجد ما هو أعلى منه فكل شيء دونه.

هذه الآية الكريمة الـتي نحن بصـددها نعـرفـهـا بآية الكرسي؛ لأن كلمـة «الكرسي» هى الظاهرة فـيها. وكلمـة «الكرسي» فيـها: تعني السلطان والقـهر والقدرة والملكية وكلها مأخوذة من صفات الحق جل وعلا.

إنه لا إله إلا هو. إنه الحي. إنه القيوم. إنه الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

والشفاعة عنده مأذون فيها بإرادته هو وحده وليس بإرادة سواه. وهو العليم بكل شيء، الذي يسع كرسيه السموات والأرض وهو العليّ فلا أعلى منه، وهو العظيم بمطلق العظمة. وتتجمع كل هذه الصفات لتضع أمامنا أصول التصور في العقيدة الإيمانية، وقـد وردت فيها أحاديث كثيرة، ومنها نـستخلص أنها آية لها قدرها ومقدارها عند الله. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمـضان فأتاني آت فجعل يحـثو الطعام فأخـذته وقلت والله لأرفعنـك إلى رسول الله ﷺ ، قال: إنـي محتـاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة قال: فـخليت عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ : «يا أبا هريرة ما فـعل أسيرك البـارحة»؟ قال: قلت يا رسول الله: شكا حـاجة شديدة وعيالاً، فـرحمته، فخليت سـبيله، قال: «أمّا إنه كذبك وسـيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود، فرصدته فجـاء يحثو من الطعام فأخذته

فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة: ما فعل أسيرك»؟ فقلت يا رسول الله: شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت: ما هي؟

قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم﴾ حتى تختم الآية؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة»؟ قلت يا رسول الله: زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال: «ما هي» قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا (أي الصحابة) أحرص شيء على تعلم الخير، فقال النبي ﷺ: «أمَا أنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة»؟ قال: لا، قال ﷺ: «ذاك الشيطان»[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه - آية الكرسي»[2].

وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ دُبُرَ كل صلاة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»[3].

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخاري (٤/ ١٤٩)، وابن خزيمة (٢٤٢٤).

(٢) حديثٌ حسنٌ. أخرجه الحاكم (١/ ٥٦٠)، (٢/ ٢٥٩)، والطبراني (١٠/ ١٠٦) في الكبير.

(٣) حديثٌ حسنٌ. أخرجه الطبراني (٨/ ١٣٤) في الكبير، وابن السني (١٢٠)، وانظر: السلسلة الصحيحة (٩٧٢) للألباني.

وعن عليّ - كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأها - يعني آية الكرسي - حين يأخذ مضجعه آمنه الله تعالى على داره، ودار جاره، وأهل دويرات حوله**»[(١)].

كل هذه المعاني قد وردت في أفضال هذه الآية الكريمة، وقد جلس العلماء يبحثون عن سر هذه المسألة فقال واحد منهم: انظروا إلى أسماء الله الموجودة فيها.

وبالفعل قام أحد العلماء بحصر أسماء الله الحسنى فيها، فوجد أن فيها ستة عشر اسمًا من أسماء الله، وبعضهم قال: إن بها سبعة عشر اسمًا من أسماء الله الحسنى، وبعضهم قال إن فيها واحدًا وعشرين اسمًا من أسماء الله، كل ذلك من أجل أن يستنبطوا منها أشياء، ويعلموا فضل وفضائل هذه الآية الكريمة. والذين قالوا إن بها ستة عشر اسمًا من أسماء الله قالوا:

إن بها اسم علم واجب الوجود «الله».

واسم «هو» في لا إله إلا هو: هو الاسم الثاني.

و«الحيّ» هو الاسم الثالث.

و«القيوم» هو الاسم الرابع.

وعندما ندقق في قول الحق ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾ نجد أن الضمير في ﴿**لا تأخذه**﴾ عائد إلى ذاته - جل شأنه -.

و﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ فيها ضمير عائد إلى ذاته سبحانه.

وكذلك الضمائر في قوله: «عنده» و«بإذنه» و«يعلم» و«من علمه» و«بما شاء» و«كرسيه» كلها تعود إلى ذاته جل شأنه.

و﴿**لا يؤوده حفظهما**﴾ فيها ضمير عائد إلى ذاته كذلك.

---

(١) حديثٌ ضعيفٌ. تفرد به البيهقي في «الشعب».

و﴿هو﴾ في قوله سبحانه ﴿وهو العلى العظيم﴾ اسم من أسمائه تعالى.

و﴿العلىّ﴾ اسم من أسمائه جل وعلا.

و﴿العظيم﴾ كذلك اسم من أسمائه سبحانه وتعالى.

لكنَّ عالمًا آخر قال: إنها سبعة عشر اسمًا من أسماء الله؛ لأنك لم تحسب الضمير في المصدر المشتق منه الفعل الموجود بقوله: ﴿حفظهما﴾ إن الضمير في «هما» يعود إلى السموات والأرض. و«الحفظ» مصدر.. فمن الذي يحفظ السموات والأرض؟ إنه الله سبحانه وتعالى، وهكذا أصبحوا سبعة عشر اسمًا من أسماء الله الحسنى في آية الكرسي.

وعالم ثالث قال: لا، أنتم تجاهلتم أسماء أخرى؛ لأن في الآية الكريمة أسماء واضحة للحق جل وعلا، وهناك أسماء مشتقة، مثال ذلك:

الله لا إله إلا هو. الحيّ هو. القيوم هو. العليّ هو. العظيم هو.

ولكن العلماء قالوا ردًا على ذلك: صحيح أنها أسماء مشتقة ولكنها صارت أعلامًا.

المهم أن في الآية الكريمة ستة عشر اسمًا، وإن حسبنا الضمير المستتر في ﴿حفظهما﴾ نجد أنها سبعة عشر اسمًا، وإذا حسبنا الضمير الموجود في المشتقات مثل «الحيّ هو» و«القيوم هو»، و«العليّ هو»، و«العظيم هو». صارت أسماء الله الحسنى الموجودة في هذه الآية الكريمة واحدًا وعشرين اسمًا. إذن هي آية قد جمعت قدرًا كبيرًا من أسماء الله، ومن ذلك جاءت عظمتها.

وهذه الآية الكريمة قد بيّنت ووضحت قواعد التصور الإيماني، وأنشأت عقيدة متكاملة يعتز المؤمن أن تكون هذه العقيدة عقيدته. والآية في ذاتها تتضمن حيثيات الإيمان، إنه ما دام هو الله لا إله إلا هو، وما دام هو الحيّ القيوم على أمر السماء والأرض، وكل شيء بيده، وهو العليّ العظيم، فكل

هذه مبررات لأن نؤمن به سبحانه وتعالى، وأن نعتز بأن نعتقد هذه المعتقدات، وتكون هى الدليل على أن المؤمن فخور بهذا الدين الذي كان أمر الألوهية المطلقة واضحًا وبينا فيه.

ولذلك فمن الطبيعي ألا يقهر الحق أحدًا على الإيمان به إكراهًا، لأن الذي يقهر أحدًا على عقيدة ما، هو أول من يعتقد أنه لولا الإكراه على هذه العقيدة لما اعتقدها أحد. ونحن في حياتنا اليومية نجد أن أصحاب المبادئ الباطلة هم الذين يمسكون السياط من أجل إكراه الناس على السير على مبادئهم. وكل من أصحاب هذه المبادئ الباطلة يعلم تمام العلم أنه لو ترك السوط والقهر ما سار إنسان على مثل هذه المبادئ الباطلة.

ولو كان أحد من أصحاب هذه المبادئ الباطلة معتقدًا أن مبدأه سليم لقال: أطرح هذا المبدأ على الناس، وأترك لهم الخيار؛ لأنه في هذه الحالة سيكون واثقًا من مبدئه. أما الذي يقهر الناس إكراهًا بالسوط أو السلطان ليعتقدوا مبدأ ما، فهو أول من يشك في هذا المبدأ، وهو أول من يعتقد أنه مبدأ باطل. مثل هؤلاء نراهم عندما تضعف أيديهم عن استعمال السوط أو السلطان فإن أمر مبدئهم ينهزم ويسقط بنيانه.

* * *

الإعجاز العلمي في فتق السموات والأرض

قال تعالى:

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً[١] فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[٣]. يعني: أعميتْ أبصارهم، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله. وهكذا كلما رأيت الهمزة بعد الواو والفعل المنفى.

لكن كيف يقول الحق سبحانه: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[٤]. والحديث هنا عن السماء والأرض، وقد قال تعالى: ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً ﴾[٥].

فهذه مسألة لم يشهدها أحد، ولم يخبرهم أحد بها، فكيف يرونَها؟

سبق أن تكلمنا عن الرؤية في القرآن، وأن لها استعمالات مختلفة: فتارة تأتي بمعنى: نظر أي: بصرية. وتأتي بمعنى: علم، ففي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾[٦].

والنبي ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ولم يشهدها؛ لأنه وُلِد في نفس عامها،

---

(١) رتقًا: أي مرتوقتين أي متصلتين في كتلة واحدة.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٤) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٥) سورة الكهف: ٥١.

(٦) سورة الفيل: ١.

فالمعنى: ألم تعلم، فلماذا عَدلَ السياق عن الرؤية البصرية إلى الرؤية العلمية، مع أن رؤية العين هى آكد الرُّؤى، حتى أنهم يقولون: ليس مع العَيْن أيْن؟

قالوا: لأن الله تعالى يريد أن ينبه رسوله ﷺ: أنت صحيح لم ترهَا بعينيك، لكن ربك أخبرك بها، وإخبار الله أصدق من رؤية عينيك، فإذا أخبرك الله بشيء فإخبار الله أصدقُ من رؤية العين، فالعين يمكن أنْ تخدعك، أو ترى بها دون أنْ تتأمل. أما إخبار الله لك فصادقٌ لا خداعَ فيه.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(١).

لكن، كيف تمَّت الرؤية العلمية لهم في مسألة خَلْق السموات والأرض؟

قالوا: لأن الإنسانَ حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ: من أين جاء هذا الكون العجيب؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشيء العجيب، ويسأل عنه، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به، فما بالُكَ إنْ كان شيئًا نافعًا له؟

إذن: كان عليهم أن ينظروا: مَنِ الذي نبَّأ رسول الله بهذه المسألة؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها، وقد جاءهم رسول الله بمعجزة تُثبِت صدقه في البلاغ عن الله، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه، وما دام الكلام من الله فهو صدق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾(٢).

وقد نزل القرآن وفي جزيرة العرب كفار عُبَّاد أصنام، وفيها اليهود وبعض النصارى، وهما أهل كتاب يؤمنون بإله وبرُسُل وبكتب، حتى إنهم كانوا يجادلون الكفار الوثنيين يقولون لهم: لقد أطلّ زمان نبي سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم.

---

(١) سورة مريم: ٨٣.

(٢) سورة النساء: ١٢٢.

ومع ذلك، لما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به، والتحموا بالكفار، وكوَّنوا معهم جبهة واحدة، وحزبًا واحدًا، ما جمعهم إلا كراهية النبي، وما جاء به من الدين الحق، وما أشبهَ هذا بما يفعله الآن كُلٌّ من المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي من اتحاد ضد الإسلام.

إذن: بعد أنْ جاء الإسلام أصبح أهلُ الكتاب والكفار ضد الإسلام في خندق واحد، وكان الكفار يسمعون من أهل الكتاب، وفي التوراة كلام عن خَلْق السماء والأرض يقول: إن الله أول ما خلق الخَلْق خلق جوهرة، ثم نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان، فالدخان صعد إلى أعلى فكوَّنَ السماء، والبقية ظلتْ فكوَّنت الأرض.

وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْق؛ لذلك قال الله عنهم: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾(١).

وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾(٢). قالوا: السموات جمع، والأرض كذلك جنس لها جمع، فالقاعدة تقتضي أنْ نقول: كُنَّ رتقًا بضمير الجمع. وصاحب هذا الاعتراض لم يَدْرِ أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى السماء كنوع والأرض كنوع، فالمراد هنا السماوية والأرضية وهما مُثَنًّى.

وفي القرآن نظائر كثيرة لهذه المسألة؛ لأن القرآن جاء بالأسلوب العربي المبنيّ على الفطْنة والذكاء ومُرونة الفهم. فخُذْ مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾(٣)

فلم يقُلْ حسْب الظاهر: اقتتلَتا؛ لأن الطائفة وإنْ كانت مفردًا إلا أنها تحوى جماعة، والقتال لا يكون بين طائفة وطائفة، إنما بين أفراد هذه وأفراد هذه،

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٣) سورة الحجرات: ٩.

فالقـتال ملحوظ فيــه الجمع ﴿ اقْتَتَلُوا... ﴾[١]. فإذا مـا جِئْنا للصُّلْح نرى أن الصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفـراد، وإنما بين ممثل عن كل طائفة، فـالصُّلْح قائم بين طرفين؛ لذلك يعود السياق للتثنية.

﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾[٢].

والرَّتْق: الشيء الملتـحم الملتـصق، ومـعنى ﴿ فَـفَـتَـقْـنَاهُـمَـا ﴾[٣]. أي: فَـصلْنَاهما وأزحنَا هذا الالتـحـام، وما ذُكِـر في التوراة من أن الله تعـالى خلق جوهرة، ثم نظر إليها في هَيْبة، فحصل لها كذا وكذا في القرآن له ما يؤيده في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾[٤].

والعلماء ساعةَ يستـقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتـهادية مختلفة؛ لأنها تتعرَّض لحـقيقة الكون، وهذا أمر قابل للخـلاف، فكلٌّ واحد منهم يأخذ منه على قَدْر ثقافته وعِلْمه.

فالعربي القديم لم يكُنْ يعرف كثيراً عن الظواهر الكونية، لا يعرف الجاذبية، ولا يعرف كُروية الأرض ولا حركتها، فلو أن القرآن تعرَّض لمثل هذه الأمور التي لا يتسع لهـا مداركه وثقـافته فلربما صـرفه هذا الكلام الذي لا يفهـمه، ولك أنْ تتصوَّر لو قلتَ له مثلاً: إن الأرض كرة تدور بنا بما عليها من بحار وجبال إلخ.

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهـج «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحًا لا غموض فيه، أمَّا الأمور الكونية التي تخضع

---

(١) سورة الحجرات: ٩.

(٢) سورة الحجرات: ٩.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٤) سورة فصلت: ١١.

لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التي تكشف عن هذه الظواهر واحدةً، بعد الأخرى، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا مجرد إشارة، وعلى العقول المتأمّلة أنْ تُكمِلَ هذه المنظومة.

وقد كان لعلماء الإسلام موقفان في هذه المسألة، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله، والغرام بكتابه، والرغبة الصادقة في إثبات صِدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعةَ عشر قرنًا من الزمان.

الموقف الأول: وكان أصحابه مُولعين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديد شاهدًا من القرآن ليقولوا: إن القرآن سبق إليه وأن محمدًا ﷺ صادق في بلاغه عن الله.

الموقف الثاني: أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيَّبون من هذه المسألة خشية أن يقولو. بنظرية لم تثبت بَعْد، ويلتمسون لها شاهدًا من كتاب الله، ثم يُثبت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن.

والموقف الحق أن هناك فرقًا بين نظرية علمية، وحقيقة علمية، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد؛ لذلك يقولون: هذا كلام نظري أي: يحتاج إلى ما يؤيده من الواقع، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة، وثبت صدقها عمليًا ووثقنا أنها لا تتغير.

فعلينا - إذن - ألاَّ نربط القرآن بالنظرية التي تحتمل الصدق أو الكذب، حتى لا يتذبذب الناس في فَهْم القرآن، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْبَ أهوائنا، أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن.

من ذلك مسألة كروية الأرض، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتبًا، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك؛ لأن هذه المسألة لم ينص عليها القرآن. فلما تقدم العلم، وتوفرتْ له الأدلة الكافية

لإثبات هذه النظرية، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر، فلماذا لا تكون الأرض كذلك؟!

كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطئ البحر، ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها، ولا ترى باقي المركب إلا إذا اقتربتْ منك، عَلاَمَ يدلُّ ذلك؟ هذا يدل على أن سطح الأرض ليس مستويًا، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرويتها.

فلما جاء عصر الفضاء، وصعد العلماء للفضاء الخارجي، وجاءوا للأرض بصور، فإذا بها كُروية فعلاً، وهكذا تحولت النظرية إلى في حقيقة علمية لا تُدفع، ولا جدال حولها، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلاَّ قبولها والقول بها.

وما قلناه عن كُروية الأرض نقوله عن دورانها، ومَنْ كان يصدق قديمًا أن الأرض هي التي تدور حول الشمس بما عليها من مياه ومَبانٍ وغيره؟ ولك أن تأخذَ كوزًا ممتلئًا بالماء، واربطه بخيط من أعلى، ثم أدِرْه بسرعة من أسفل إلى أعلى، تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دون أنْ ينسكب الماء، لماذا؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التي تجذب الماء إليها، بدليل أنك إذا تهاونتَ في دوران الكوز يقع الماء من فُوهته، ولابُد من وجود تأثير للجاذبية، فجاذبية الأرض هي التي تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها.

أما أن نلتقط نظرية وليدة في طَوْر البحث والدراسة، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حديث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية، حين اكتشف العلماءُ المجموعة الشمسية، وكانت في بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتَّبة حسب قُرْبها من الشمس في المركز: عطارد، فالزهرة، فالأرض، فالمريخ، فالمشترى، فزُحَل، فأورانوس.

وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار - منهم الشيخ المراغي - بالقول بأنها السموات السبع، وكتبوا في ذلك بحوثًا، وفي القرآن الذي سبق إلى هذا. ومرَّتِ الأيام، واكتشف العلماء الكوكب الثامن «نبتون»، ثم التاسع.

إذن: ربْط النظرية التي لم تتأكد بَعْد علميًا بالقرآن خطأ كبير، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزةٌ أحدث ومجاهر أكبر - كما يقول بعض علماء الفضاء - لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة، لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة في المجرة التي نسميها (سكة التبَّانة)، والإغريق يسمونها (الطريق اللبني).

وهذه الكواكب التي نراها كبيرة وعظيمة، لدرجة تفوق تصور الناس، فالشمس التي نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة، وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس في جوفه والمسافة بيننا وبين الشمس ثماني دقائق ضوئية، وتُحسب الدقيقة الضوئية بأن تُضرب في ستين ثانية، الثانية الواحدة السرعة فيها ١٨٦ ألف ميل يعني: ثلاثمائة ألف كيلو متر.

أما المسافة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق، فوجدوها مائة سنة ضوئية، أما الشِّعْرى الذي امتنَّ الله به في قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[1]. فهو أبعد من ذلك، وهذ الكواكب والأفلاك كلها في السماء الدنيا فقط، فما دَخْل هذا بالسموات السبع التي تحدثوا عنها؟!

لذلك حاول كثيرون من عُشَّاق هؤلاء العلماء أن يمحوا هذه المسالة من كتبهم، حتى لا تكون سبَّة في حقِّهم وزلّة في طريقهم العلمي.

كذلك من النظريات التي قالوا بها وجانبتِ الصواب قولهم: إن المجموعة الشمسية ومنها الأرض تكوَّنت نتيجة دوران الشمس وهى كتلة ملتهبة، فانفصل

(١) سورة النجم: ٤٩.

عنها بعض «طـراطيش»، وخرج منها بعض الأجـزاء التي بردتْ بمرور الوقت، ومنهـا تكونت الأرض، ولما بردتِ الأرض أصبـحتْ صالحـة لحياة النـبات، ثم الحيوان، ثم الإنسان، بدليل أن باطن الأرض ما يزال ملتهبًا حتى الآن. وتتفجر منه براكين كبركان «فيزوف» مثلاً.

والقـياس العـقلي يقتـضى أن نقول: إذا كـانت الأرض قطعة من الشـمس وانفصلت عنها، فمن الطبيعي أن تبردِ مع مرور الزمن وتقل حرارتها حتى تنتهي بالاستطراق الحراري، إذن: فهـذه نظرية غير سليمة، وقولكم بهـا يقتضى أنكم عرفتم شيـئًا عن خَلْقِ السموات الأرض ما أخبـر الله به، وقد قال تعالى: ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[1].

ثم يقول في آية جامعة ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[2]. والمضلّ هو الذي يأخذ بيدك عن الحقيقة إلى الباطل، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ما سيكون من أقوال مُضلِّلة في هذه المسألة تقول: حدث في الخلق كيت وكيت.

والواجب علينا أن نأخذ هذه التفـاصيل من الخالق - عز وجل - وأن نقف عند هذا الحد، لأن مـعرفتك بكيفيـة الشيء ليست شرطًا لانتفـاعك به، فأنت تنتفع بمخلوقـات الله وإن لم تفهم كيف خُـلِقَتْ؟ وكيف كانت؟ انتـفعنا بكروية الأرض والشمس وبالقـمر دون أن نعرف شيـئًا عنها، ووضع العلماء حـسابات للكسوف وللخسوف والأوقات قبل أن تكتشف كروية الأرض.

فالرجل الأميّ الذي لا يعلم شـيئًا يشتـرى مثلاً «التليفـزيون ويتعلم كيـفية تشغيله والانتفاع به، دون أنْ يعلم شيئًا عن تكوينه أو كيفية عمله ونَقْله للصورة وللصوت.. إلخ. فـخُذْ ما في الكون من جـمال وانتفع به كمـا خلقه الله لك

(١) سورة الكهف: ٥١.

(٢) سورة الكهف: ٥١.

دون أن نخوض في أصل خلقه وكيفية تكوينه، كما لو قُدِّم لك طعام شهى أتبحثُ قبل أن تأكل كيف طُهِي هذا الطعام؟!

وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والفَتْق فمنهم مَن قال بالرأي الذي قالتْه التوراة، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة، وحدث لها كذا وكذا، وتكوَّنت السماء والأرض.

ومنهم مَنْ رأى أن المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء، كل على حِدَة، وأنهما لم يكونا أبدًا ملتحمتين، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾[1]

وفي موضع آخر قال: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾[2].

فالمراد - إذن - أن الأرض وحدها كانت رَتْقًا، فتفجرت بالنبات، وأن السماء كانت رتْقًا فتفجرت بالمطر، فشقَّ الله السماء بالمطر، وشَقَّ الأرض بالنبات الذي يصدعها: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾[3].

وقال عن السماء: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ... ﴾[4]. على اعتبار أن السماء كُلُّ ما علاك فأظلّك. فيكون السحاب من السماء.

نفهم من هذا الرأى أن الفَتْق ليس فَتْقَ السماء عن الأرض، إنما فتق كل منهما على حدَة، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطى حكمًا جديدًا، واجتهاد على

---

(١) سورة عبس: ٢٤-٢٨.

(٢) سورة القمر: ١١، ١٢.

(٣) سورة الطارق: ١١، ١٢.

(٤) سورة الفرقان: ٢٥.

قَدْر عطاء العقول قد تُثبته الأيام، وقد تأتي بشيء آخر. المهم أن القولين لا يمنع أحدُهما الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾[1]. قال أصحاب التأويل الثاني: ما دام ذكر هنا الماء، فلابُدَّ أن له صلة الرَّتْق والفَتْق في كل من الأرض والسماء.

ونلحظ أن الآية لم تَقُلْ: كل شيء حيًّا إنما ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾ وقد استدلوا بها على أن الحيَّ المراد الحياة الإنسانية التي نحياها، ولم يفطنوا إلى أن الماء داخلٌ في تكوين كل شيء، فالحيوان والنبات يحيا على الماء فإنْ فَقَدَ الماء مات وانتهى، وكذلك الأدنى من الحيوان والنبات فيه مائية أيضًا، فكُلُّ ما فيه لمعة أو طراوة أو ليونة فيه ماء.

فالمعنى ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾[2]. أي: كل شيء مذكور بوجود.

والتحقيق العلمي أن لكل شيء حياةً تناسبه، وكل شيء فيه ماء، بدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3].

والحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء، إذن: يحييكم أي: حياة أخرى لها قيمة؛ لأن حياتكم هذه قصاراها الدنيا، إنما استجيبوا بحياة أخرى خالدة هي حياة الآخرة.

وسُمِّي الشيء الذي يتصل بالمادة، فتدبّ فيها الحياة روحًا فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي...﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٣) سورة الأنفال: ٢٤.

(٤) سورة الحجر: ٢٩.

وسُمِّي المنهج الذي ينزل من السماء لهداية الأرض روحًا وسُمِّي الملَك الذي ينزل به روحًا؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية لا فناء لها، وهكذا يتم الارتقاء بالحياة.

فإذا نزلنا أدنى من ذلك وجدنا للحيوان حياة، وللنبات حياة، فالحيوان يَنْفَق ويموت، والنبات إنْ منعتَه الماء جَفَّ وذَبُل وانتهى. أما الجماد فله حياة أيضًا، بدليل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ... ﴾(١).

فوَصَف كل ما يقال له شيء بأنه هالك، والهلاك ضد الحياة، فلابُدَّ أن تكون له حياة، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ... ﴾(٢). فالحياة ضِدُّهَا الهلاك.

إذن: فكل شيء في المخلوقات حتى الجماد له حياة، وفي تكوينه مائية، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾(٣).

ويختتم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني: أعَمُوا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها، وامتنعوا عن الإيمان؟ فكان يجب عليهم أن يلتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آلة حديثة أو حتى لُعبة تبهرهم فيقولون: مَن فعل هذه ؟ ويُؤرِّخون له ولحياته، وتخرَّج في كلية كذا.. إلخ.

فمن الأَوْلى أنْ نلتفتَ إلى الخالق العظيم الذي أبدع لنا هذا الكون، فالانصراف - إذن - عن آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول.

* * *

---

(١) سورة القصص: ٨٨.

(٢) سورة الأنفال: ٤٢.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٠.

الإعجاز العلمي وسر الروح

قال تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً[1] ﴾[2].

والسؤال يَرِد في القرآن بمعان متعددة، ووردتْ هذه الصيغة ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في مواضع عِدّة، فإنْ كان السؤال عن شيء نافع يضر الجهل به أجابهم القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[4].

فإنْ كان السؤال عن شيء لا يضر الجهل به، لفت القرآن أنظارهم إلى ناحية أخرى نافعة، كما في سؤالهم عن الأهِلّة: كيف يبدو الهلال صغيراً ثم يكبر ويكبر إلى أن يصير بدراً، ثم يأخذ في التناقص ليعود كما بدأ؟

---

(١) سبب نزول الآية: عن عبد الله بن مسعود قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة وهو متكيء على عسيب، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا: سلوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون، فأتاه نفر منهم فقالوا: يا أبا القاسم ما تقول في الروح؟ فسكت ثم ماج، فأمسكت بيدي على جبهته، فعرفت أنه ينزل عليه، فأنزل الله عليه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] أخرجه البخاري (٤٧٢١)، ومسلم (٢٧٩٤).

(٢) سورة الإسراء: ٨٥.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٤) سورة البقرة: ٢١٥.

فالحديث مع العرب الذين عاصروا نزول القرآن في هذه الأمور الكونية التي لم نعرفها إلا حديثًا أمر غير ضروري، وفوق مستوى فهمهم، ولا تتسع له عقولهم، ولا يترتب عليه حكم، ولا ينتج عن الجهل به ضرر، ولو أخبرهم القرآن في إجابة هذا السؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشمس وما يترتب على هذه الدورة الكونية من ليل ونهار، وهم أمة أُمِّيَّة غير مثقفة لاتهموا القرآن بالتخريف، ولربما انصرفوا عن أصل الكتاب كله.

لكن يُحوِّلهم القرآن، ويُلفِت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأهِلَّة: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾(1).

وقد يأتي السؤال، ويُرَاد به اختبار رسول الله ﷺ، ومن ذلك ما حدث من اتفاق كفار مكة واليهود حيث قالوا لهم: اسألوه عن الروح، وهم يعلمون تمامًا أن هذه مسألة لا يعلمها أحد، لكنهم أرادوا الكيد لرسول الله، فلعله يقول في الروح كلامًا يأخذونه عليه ويستخدمونه في صَرْف الناس عن دعوته.

ولاشَكَّ أنه سؤال خبيث؛ لأن الإنسان عامة يحب أن يظهر في مظهر العالم، ولا يحب أن يعجز أمام محاوره فاستغلوا هذه العاطفة، فالرسول لن يُصَغِّر نفسه أمام سائليه من أهل مكة، وسوف يحاول الإجابة عن سؤالهم.

ولكن خَيَّب الله سَعْيهم، فكانت الإجابة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(2).

فعندما سمع أهل الكتاب هذه الإجابة آمن كثيرون منهم؛ لأنها طابقت ما قالته كتبهم عن الروح، وأنها من عند الله.

و«الرُّوح» لها إطلاقات مُتعدِّدة، منها: الرُّوح التي تمدُّ الجسم بالحياة إن

---

(1) سورة البقرة: ١٨٩.

(2) سورة الإسراء: ٨٥.

اتصلت به، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(١).

فإذا ما فارقتْ هذه الروح الجسد فقد فارق الحياة، وتحوَّل إلى جثة هامدة، وفيها يقول تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾(٢).

وقد تأتي الروح لتدل على أمين الوحي جبريل - عليه السلام -، كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾(٣).

وقد تُطلَق الروح على الوحي ذاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾(٤).

وتأتي بمعنى التثبيت والقوة، كما في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾(٥).

وأُطلقَتْ الروح على عيسى ابن مريم - عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(٦).

إذن: لهذه الكلمة إطلاقات مُتعدِّدة، فما العلاقة بينها؟

قالوا: الروح التي بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ في الإنسان تعطى مادية الحياة، ومادية الحياة شيء، وقِيَمُ الحياة شيء آخر، فإذا ما جاءك شيء يعدل لك قيم الحياة فهل تُسمِّيه روحًا؟ لا، بل هو روح الروح؛ لأن الروح الأُولى

(١) سورة الحجر: ٢٩.

(٢) سورة الواقعة: ٨٣.

(٣) سورة الشعراء: ١٩٣.

(٤) سورة الشورى: ٥٢.

(٥) سورة المجادلة: ٢٢.

(٦) سورة النساء: ١٧١.

قصاراها الدنيـا، لكن روح المنهج النازل من السماء فخالدة في الآخـرة، فأيُّهما حياته أطول؟

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنـا: إياك أنْ تظنَّ أن الحياة هي حياتك أنت وكونك تُحِسُّ وتتحـرك وتعيش طالما فيك روح، لا بـل هناك روح أخرى أعظم في دار أخرى أبْقى وأدْوم: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

لأن الروح التي تعيش بها في الدنيا عُرْضة لأنْ تُؤخَذ منك، وتُسلَب في أيّ مرحلة من مراحل حياتك منذ وجودك جنينًا في بطن أمك، إلى أنْ تصير شيخًا طاعنًا في السنّ. أما روح الآخرة، وهي روح القيم وروح المنهج، فهي الروح الأقْوى والأبْقى؛ لأنها لا يعتريها الموت.

إذن: سُمّى القرآن، وسُمّى المَلك النازل به روحًا؛ لأنه سيعطيني حياة أطول هي حياة القيم في الآخرة.

وهنا يقول تعالى: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[2].

أي: إن هذا من خـصوصـيـاته هو سبحـانه، وطالما هي من خصـوصيـاته سبـحانه، فلن يطلع أحـدًا على سِرِّها. وهل هي جـوهر يدخل الجسم فـيحـيا ويسلب منه فيمـوت، أم هي مراد (بكُنْ) من الخالق سبحانه، فـإنْ قال لها كُنْ تحيا، وإنْ قال مِتْ تموت؟

إنّ علم الإنسان سيظل قاصرًا عن إدارك هذه الحقيقة، وسيظل بينهما مسافات طويلة؛ لذلك قال تعالى بعدها: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[3].

وهل عرف العقل البشري كل شيء حتى يبحث في أسرار الروح؟!

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٢) سورة الإسراء: ٨٥.

(٣) سورة الإسراء: ٨٥.

ولما تعرَّض أحد رجال الصوفية للنقد، واعترض عليه أحد الأشخاص فقال له الصوفى: وهل أَحَطْتَ عِلْمًا بكل شيء في الكون؟ قال الرجل: لا، قال: فأنا من الذي لا تعلم.

والحق سبحانه وتعالى حينما يعطينا فكرة عن الأشياء لا يعطينا بحقائق ذاتها وتكوينها؛ لأن أذهاننا قد لا تتسع لفهمها، وإنما يعطينا بالفائدة منها. فحين حدثنا عن الأهِلّة قال: ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ... ﴾(١).

وهذه هى الفائدة التي تعود علينا والتي تهمنا من الأهِلّة، أما حركتها ومنازلها والمراحل التي تمر بها الأهِلّة، فأمور لا يضر الجهل بها؛ ذلك لأن الاستفادة بالشيء ليستْ فرعًا لفهم حقيقته، فالرجل الأُمىّ في ريفنا يقتنى الآن التلفاز وربما الفيديو، ويستطيع استعمالهما وتحويل قنواتهما وضبطهما، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف تعمل هذه الأجهزة؟ وكيف تستقبل؟

إذن: الاستفادة بالشيء لا تحتاج معرفة كل شيء عنها، فيكفيك - إذن - أنْ تستفيد بها دون أن تُدخِل نفسك في متاهات البحث عن حقيقتها.

والحق سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ... ﴾(٢). لأن الخالق سبحانه يريد للإنسان أن يُوفِّر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يُجدي، وألاّ يُتعب نفسه ويُجهدها في علم لا ينفع، وجهل لا يضر.

فعلى المسلم بدل أن يشغل تفكيره في مثل مسألة الروح هذه، أنْ ينشغل بعمل ذي فائدة له ولمجتمعه. وأي فائدة تعود عليك إنْ توصلت إلى سرٍ من أسرار الروح؟ وأيّ ضرر سيقع عليك إذا لم تعرف عنها شيئًا؟

---

(١) سورة البقرة: ١٨٩.

(٢) سورة الإسراء: ٣٦.

إذن: مناط الأشياء أن تفهم لماذا وجدت لك، وما فائدتها التي تعود عليك.

والحق سبحانه حينما قال: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1]. كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، وما زال يخاطبنا ويخاطب مَنْ بعدنا، وإلى أن تقوم الساعة بهذه الآية مع ما توصلتْ إليه البشرية من علم، وكأنه سبحانه يقول: يا ابن آدم، الزم غرزك، فإن وقفت على سرٍ فقد غابتْ عنك أسرار.

وقد أوضح الحق سبحانه لنا هذه المسألة في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ... ﴾[2].

وهاهم العلماء والباحثون يقفون كل يوم على جديد في الكون الفسيح وفي الإنسان، ولو تابعت ما توصّل إليه علماء الفضاء ورجال الطب لَهالَك ما توصَّلوا إليه من آيات وعجائب في خَلْق الله تعالى، لكن هل معنى ذلك أننا عرفنا كل شيء؟ إن كلمة ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ ستظل تعمل إلى قيام الساعة.

والتتبع لطموحات العقول وابتكاراتها يجد التطور يسير بخُطى واسعة، ففي الماضي كان التقدم يُقَاسُ بالقرون، أما الآن ففي كل يوم يطلع علينا حديث وجديد، ونرى الأجهزة تُصنع ولا تُستعمل؛ لأنها قبل أنْ تُبَاع يخرج عليها أحدث منها، لكن كلها زخارف الحياة وكمالياتها، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ... ﴾[3].

فكلُّ ما نراه من تقدُّم ليس من ضروريات الحياة، فقد كُنَّا نعيش بخير قبل أن نعرف الكهرباء، وكُنَّا نشرب في الفخار والآن في الكريستال، فابتكارات

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

(٢) سورة فصلت: ٥٣..

(٣) سورة يونس: ٢٤.

الإنسان في الكماليات، أما الضروريات فقد ضمنها الخالق سبحانه قبل أن يوجد الإنسان على هذه الأرض.

فإذا ما استنفدت العقول البشرية نشاطاتها، وبلغتْ مُنتهى مَا لديها من ابتكارات، حتى ظنَّ الناس أنهم قادرون على التحكم في زمام الكون، لا يعجزهم فيه شيء، كما قال تعالى: ﴿ وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾[1].

فبعد ما أخذتم أسرار المنعم في الكون على قَدْر ما استطعتم، فاذهبوا الآن إلى المنعم ذاته لتروا النعيم على حقيقته، وكلما رأيت في دنيا الناس ابتكارات واختراعات تُسعد الإنسان، فهذا ما أعدَّ البشر للبشر، فكيف بما أعدَّ الله الخالق لخَلْقه؟

فالمفروض أن زخارف الحياة وزينتها وكمالياتها لا تدعونا إلى الحقد أو الحسد لمن توفرتْ لديه، بل تدعونا إلى مزيد من الإيمان والشوق إلى النعيم الحقيقي عند المنعم سبحانه.

ولو تأملتَ هذه الارتقاءات البشرية لوجدتها قائمة على المادة التي خلقها الله والعقل المخلوق لله والطاقة المخلوقة لله، فدور الإنسان أنه أعمل عقله وفكره في المقومات التي خلقها الله، لكن مهما وصلتْ هذه الارتقاءات، ومهما تطورت هل ستصل إلى درجة: إذا خطر الشيء ببالك تجده بين يديك؟

* * *

(١) سورة يونس: ٢٤.

◘ دعوة للنظر في ملكوت السموات والأرض ◘

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

وبذلك ينتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذي يأخذ بيدهم إلى الإيمان الأعلى، ينتقل الجدل إلى التفكر ومسئوليته:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

والتفكر هو إعمال العقل حتى لا يقولَنَّ أحد: إن رسول الله مجنون، لأن مجرد النظر في الكون يجعل الإنسان رائيًا للسماء مرفوعة بلا عمد، والأرض مبسوطة والهواء يتحرك في انتظام دقيق.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

إذن فوقنا سماء، وهناك ما فوق السماء، وتحتنا الأرض، وفيها ما تحت الأرض، وهناك ما بين السموات والأرض وما نراه في الظاهر هو ما يسمونه «مُلْك» أما الخفى عنك الذي لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه «ملكوت».

ويقول سبحانه في سيدنا إبراهيم:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (٢).

فكلمة «ملكوت» معناها مبالغة في الملك، مثل رهبوت أي الرهبة الشديدة، ورحموت أي الرحمة الشديدة، وكلها صيغة «فعلوت» وهى صيغة المبالغة.

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٥.

(٢) سورة الأنعام: ٧٥.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾(١).

ونحن نرى السماء والأرض بوضوح، ولكن العظمة والسر ليسا في السماء والأرض فقط، بل هناك أشياء دقيقة جدًّا، بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق. وأنت قد ترى ساعة «بيج بن» الشهيرة في لندن وتكاد أن تكون أضخم ساعة في العالم، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة في حجم الخاتم، وننبهر ونعجب بدقة عمله وصنعته، فما بالنا بالخالق الأعظم الذي يعظم خلقه من السموات والأرض لأنها فوق إدراكات البشر، وخلق أيضًا مخلوقات دقيقة لطيفة لا تستطيع أن تدركها أنت بمجرد النظر، كالميكروب، أو تدركها بصعوبة كالذبابة والبعوضة وبكل هذه الكائنات كل مقومات حياتها، حتى الكائن الذي لا معدة له يجهزه خالقه بقدرة على امتصاص الدماء مباشرة بعقله أو غريزته ويسعى ليأكل ويملأ معدته وله أجهزة تحول غذاءه ليكون دمًا.

إذن فليست العظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط، لذلك يقول الحق:

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

أي من أول شيء يقال له شيء صار محكومًا عليه وجوديًّا، بأنك إن نظرت إليه ستجد الأجهزة التي تعطى له الحياة، وتعينه، حتى وإن كانت حواس استشعارية في ذات هذا الكائن، ولا يقوى عليها صاحب العقل مثال ذلك: نجد أن ما يفر قبل حدوث الزلازل هو الحمير التي نتهمها بالغباء.

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٥.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٥.

وحين يتأمل العقل ما وصل إليه العلم في البحث في عالم الحيوان وعالم البحار، سنجد الإيمان بضرورة وجود خالق حكيم. وإن كان الكافرون مصروفين عن النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة، كان عليهم أن يراعوا مصلحتهم فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم.

إننا نعلم أن الإنسان جنس، وأن له نوعين: نوع ذكورة، ونوع أنوثة، وبينهما جنس مشتبه نسميه الخنثى، والأجناس لها أفراد متعددة. وكل واحد له خلق، وكل واحد له موهبة، وكل واحد له مهمة. وساعة يطلب منا الحق: إياك أن تستصغر شيئًا منك ضد غيرك، وإياك أن تستكثر شيئًا منك لغيرك، ويجب عليك أن تجعل كلمة «شيء» هذه هى المقياس، ولذلك يقول لك الشرع: إنك حين تقدم حسنة إياك أن تستكثرها، بل قل هى ليست بشيء ذي بال، وإن همّ واحد بعمل سيئة فلا يقل: وماذا ستفعل لي سيئة واحدة؟ مستصغرًا شأن هذه السيئة. وهذا نقول له: لا، إن كلمة «شيء» يجب أن تحكم الكون. إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحدًا مثلاً ضئيل التكوين ولا بسطة له في جسمه، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة، وقد تجد إنسانًا آخر متين التكوين وليست عنده أية موهبة؛ لأن الله قد يعطى الضئيل فكرًا عميقًا، أو حيلة كبيرة، أو موهبة خاصة في أي شيء. فلا تنظر إلى شيء قليل في أي إنسان، بل انظر إلى الشيء الجميل الذي فيه وهو المخفى عنك في نفسك.

﴿ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

ولماذا تأتي هنا حكاية اقتراب الأجل؟ وللإجابة عن التساؤل أقول: إنها هامة جدًا؛ لأننا ما دمنا أفرادًا أي جنسين أو ثلاثة أجناس، وقال عنا ربنا إننا خلفاء في الأرض، فعلينا أن نعلم أن الخليفة في الأرض جاء ليخلف من سبقوه، وقد يُميت ربنا أي إنسان في سن شهر أو سنة، أو سنتين أو خمسين عامًا؛ لأن

(١) سورة الأعراف: ١٨٥.

العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد اختص به الحق - تبارك وتعالى - نفسه ولا يعلمه أحد؛ لأن غاية المتساوى لابد أن تكون متساوية، وعلى سبيل المثال: إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق قالوا: لنيل إجازة الليسانس، وسنجد منهم الطويل، والقصير، والأبيض، والأسود، والذكي والغبي، والقوى والضعيف، وهم لا يتفقون إلا على دراسة الحقوق، وكذلك لا نتساوى جميعًا كبشر إلا أمام الموت، فهناك من يموت وهو في بطن أمه، ومن يموت وهو طفل، ومن يموت وهو فتى. وإن كنا نختلف فيما بقى بعد ذلك والمؤمن أو الكافر يرى هذه الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول: لا لن أموت.

وما دمت ستموت فانظر إلى مصلحتك أنت، لتثاب على ما فعلت في الدنيا بدلاً من أن تعاقب، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعة للأجل، والإبهام هو أوضح أنواع البيان، فحين يريد ربنا أن يوضح أمرًا توضيحًا كاملاً فهو يبهمه.

ومثال ذلك: لو جعل الله للموت سنًّا، لصار الأمر محدداً بلا أمل. لكنه سبحانه لم يجعل للموت سنًّا أو سببًا، وأشاعه في كل زمن، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت في أي لحظة، ونزول الموت لا يتوقف على سبب، فقد يأتي بسبب وقد يأتي بغير سبب، وما دام الإنسان يستقبل الموت في أي وقت، فعلى العاصي ألا يستقبل الموت وهو على عصيان لله.

وإياك أن تقول: كيف مات فلان وهو غير مريض؟ لأن هناك العديد من الأسباب للموت، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب، فالإنسان الذي نفقده بالموت، مات لأن أجله قد انتهى، والحق هنا يوضح: أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات وعمره سنتان، ومن مات وعمره ثلاث سنوات، ومن مات وهو ظالم، ومن مات وهو مظلوم، ولو لم تكن هناك حياة ثانية لماذا تساوى هذه الحياة؟. وما ذنب الذي لم يعش في

الدنيا إلا شهـراً؟ لابد إذن أن تعرفوا أن هناك غاية ثانية تـنتظركم، غايات فردية هى آجال الناس بذواتهم، وآجال إجماعية تتمثل في يوم القيامة.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

يوضح الحق تبارك وتعالى: أنه إذا كان هذا الحـديث الذي أنزلته إليهم وفيه ما فـيه من الإعجـاز ومن الإبداع، ويجمع كل أنواع الكمالات، فـماذا يريدون أكثر من ذلك؟

وهل في اتباعـهم للأهواء ولتقنينات بعـضهم لبعض سـعادة لهم؟ بالعكس إنهم يشقون بذلك. وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول.

وقال تعالى:

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وهنا يُحدِّثنا الحق سـبحانه عن عالم المُـلْك الذي تراه، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذي يغـيب عنك، وكأنك إن اقـتنعت بعالم الملك، وقلـت: إن لهذا العالم خالقًا إلهًا قادراً قويًا، وتؤمن به، هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب؛ لتصل إلى عـالم الملكوت؛ لأنك اكتـشفت في داخـلك أمانتك مع نفـسك، وأعلنت إيمانك بالخالق سبـحانه، ورأيت جميل صُنْعه في السمـاء والكواكب، وأعجبْتَ بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب.

وترى التوقيـت الدقيق لظهور الشمس والقـمر ومواعيد الخـسوف الكلي أو الجزئي، وتُبـهر بدقة المنظِّم الخـالق سبحـانه وتعالى، ولن تجد زحـام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده، بل كما قال الله سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة يونس: ١٠١.

﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١).

ونحن في حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر، فنحن نكرِّم الصانع، وقد أكرمت البشرية مصمِّم التلغراف، ومصمم جهاز التليفزيون، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه.

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثماني دقائق ضوئية، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر، وهى شمس واحدة تراها، غير آلاف الشموس الأخرى في المجرَّات الأولى، وكل مجرَّة فيها ملايين من المجموعات الشمسية، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم بالشمس، وقال عن كوكب الشِّعْرى:

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾(٢).

لأن كوكب الشعرى أكبر من الشمس.

وحين تتأمل السموات والأرض تجد في الأرض جبالاً شامخة، وتمر عليها فتُدْهش من دقة التكوين ودقة التماسك، وتجد في داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة، وقد تجد أسطح الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ، فإذا ما نزل عليها المطر، فهو يصحبها معه إلى الأرض؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد، وتتخلل الأرض التي شقَّقتها حرارة الشمس.

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غرين(٣) في أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالي، وكانت مياه النيل في أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغِرْين، وفي مثل هذا الغرين يوجد الخِصْب الذي نأخذ منه الأقوات(٤).

(١) سورة يس: ٤٠.

(٢) سورة النجم: ٤٩.

(٣) الغرين: ما بقى في الحوض من الطين.

(٤) أقوات: جمع قوت، وهو الرزق.

ولو أن الجبال كلها كانت هشَّة التكـوين، لأزالها المطر مرة واحدة، وجعلها مجرد مسـافة نصف متر مضاف لسطح الأرض، ولاخـتفى الخصب من الأرض بعد سنوات، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال متماسكة، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر في كل عام مرة؛ ليحمل الخصب إلى الأرض.

ومَن يتأمل هندسة التكوين في الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت.

فالبـشر يحتـاجون إلى الحديد ليـصنعوا منه مـا يفيدهم، سـواء أكان آلات لحـرث الأرض، أو أي آلات أخرى تسـاعد في تجـمـيل الحيـاة، وتجد الحـديد مخزونًا في الجبال.

وكـذلك نجد المواد الأخـرى مـثل الفوسـفات أو المـنجنيز، أو الرخـام، أو الفيروز أو الغازات.

إذن: فالمطمور[١] في الجبـال إما للاقـتيات، أو وسـيلة إلى الاقتـيات، أو وسيلة للتَّرف فوق الاقتيات.

وحين ينزل المطر فوق الجبـال فهو يأخـذ الخِصْب من الطبقة الـهشَّة[٢] على سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للناس، ففي إفريقيا مثلاً توجد مناجم للفـحم والماس، وفي بلاد أخـرى تجـد عود الطـيب، وهو عبـارة عن جـذور أشجار.

وأنت لو شقـقت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركـز تجد الأرض الخصبة مع الصحراء، مع المياه، مع الجبـال، متساوية في الخير مع القطاع المقابل للقطاع الأول.

وقد تـختلف نوعـيات العطاء من مـوقع إلى آخر على الأرض، فـأنت لو

(١) طمر الشيء: خبَّأه. ومطمور: اسم مفعول من طمر، وطمر: إذا تغيَّب واستخفى.
(٢) والشيء الهش الغير متماسك.

حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصْب الجبال من يوم أن خلق الله عز وجل النيل في أرض وادي النيل في إفريقيا، وحسبت ما أعطاه النفط (البترول) في صحراء الإمارات مثلاً، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول، رغم أن اكتشاف البترول قد تَمَّ حديثًا.

وكل قُوت محسوب من مخازن القوت، وكل قوت له زمن، فهناك زمن للفحم، وزمن للبترول، كل ذلك بنظام هندسي أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه.

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال: ﴿يعقلون﴾ في مجال النظر في السموات وفي الأرض، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض.

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة، ولها قاعدة، مثلها مثل الهرم، وتجد الوديان على العكس من الجبال؛ لأن الوادي يكون بين جبلين، وتجد رأس الوادي في أسفله، ورأس الجبل في قمته.

وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادي الضيق، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل؛ ليملأ مساحة الوادي المتسعة، وكلما ازداد الخلق، زاد الله سبحانه رقعة الاقتيات.

ومثال ذلك تجده في الغِرْيَن القادم من منابع النيل؛ ليأتي إلى وادي النيل والدلتا، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة.

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب.

والذي يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها، ثم نفكر في استصلاح أراضٍ جديدة، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل.

وكلما نزل المـطر على الجبال فـهى تتخلخل وتظهـر ما فيـها من مـعادن، يكشتفها الإنسان ويُعْمِل عقله في استخدامها.

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيمانًا، وكلـما طبَّق المؤمن حُكْمًـا تكليـفـيًّـا مأموراً به، يجد نور الإيمان وهو يشرق في قلبه.

وليُجرِّب أي مسلم هذه التجربة، فليجرب أن يعيش أسبوعًا في ضوء منهج الله سبحانه وتعالى، ثم يَزِنْ نفسه ويُقيِّمها ليعرف الفارق بين أول الأسبوع وآخر الأسبوع، سيكتشف في هذا الأسبوع أنه يصلى في مواقيت الصلاة، وسيجد أنه يعرق في عمله ليكسب حلالاً، وسيجد أنه يصرف ماله في حلال.

زِنْ نفسك يقينيًّا في آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفَّت شفافية رائعةَ؛ لتـجد ضـوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجـامًا بيـنك وبين الكون كله في أبسط التفاصيل وأعقدها أيضًا.

ومثال ذلك: إنك قد تجد الرجل مـن هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ منهج الله الشفافيـة تسأله زوجته: ماذا نطبخ اليوم؟ فيقـول لها: فَلْنقْضِ اليوم بما بقى من طعام أمس، ثم يُفَاجأ بقريب له يزوره من الريف، وقدَ جاءه ومعه الخير.

لقد وصل الرجل إلى درجـة من الشفافيـة تجعله منسجـمًا مع الكون كله، فيصله رزق الله تعالى له من أيٍّ مكان.

وتجد الشفافية أيضًا في أعقد الأمور، ألم يَقُلْ يعقوب - عليه السلام -: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾(١).

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم، حـاملين قميصَ يوسف، الذي أوصاهم يوسف بـإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره.

---

(١) سورة يوسف: ٩٤.

لقد جاءت ريح يوسف - عليه السلام - لأبيه يعقوب لأن يعقوب - عليه السلام - قد عاش في انسجام مع الكون، ولا توجد مُضَارة بينه وبين الكون.

والمثال الحيّ لذلك هو فرح الكون لمجيء رسول الله ﷺ، يوم مولده، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ؛ لأن الكون عابد مُسبِّح لله سبحانه، فحين يأتي مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لابُدَّ أن يفرح الكون، أما مَنْ يَعْصِ الله تعالى، فالكون كله يكرهه ويلعنه، ويتلاعن الاثنان.

وقد فرح الكون بمجيء الرسول الذي أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[1].

والكون كله أمامهم، فلماذا لا ينظرون؟ إنهم يبُصرون ولا يستبصرون، مثل الذي يسمع ولا يسمع؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ[2] عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

إذن: فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا[4] مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾[5].

---

(١) سورة يونس: ١٠١.

(٢) النذر: جمع نذير، وهو الرسول.

(٣) سورة يونس: ١٠١.

(٤) خلوا: مضوا وسبقوا.

(٥) سورة يونس: ١٠٢.

وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظلون في طغيانهم يعمهون[١]، وكأنهم ينتظرون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذِّبين السابقين.

ونحن نعلم أن اليوم[٢] هو وحدة من وحدات الزمن، وبعده الأسبوع، وبعد الأسبوع نجد الشهر، ثم نجد السنة، وكلما ارتقى الإنسان قسَّم اليوم إلى ساعات، وقسَّم الساعات إلى دقائق، وقسَّم الدقائق إلى ثوانٍ.

وكلما تقدمت الأحداث في الزمن نجد المقاييس تزداد دقة، واليوم - كما قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن، وهو مُكوَّن من ليل ونهار.

* * *

(١) يعمهون: يتحيَّرون ويترددون في الضلال.

(٢) اليوم: في علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة، ومدته أربع وعشرين ساعة وجمعه أيام.

دعوة للتدبر وإعمال الفكر في آيات الله

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾(١).

وإذا سمعتَ «كأين» افهم أن معناها كثير كثير كثير، بما يفوق الحَصْر، ومثل «كأين» كلمة «كم»، والعَدُّ هو مظنة الحصر، والشيء الذي فوق الحصر؛ تنصرف عن عَدِّه، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً، لكن كلاً منا يعُدُّ النقود التي يردُّها لنا البائع، بعد أن يأخذ ثمن ما اشتريناه.

إذن: فالانصراف عن العَدِّ معناه أن الأمر الذي نريد أن نتوجه لعَدِّه فوق الحصر، ولا أحد يعُدُّ النجوم أو يحصيها.

ولذلك نجد الحق سبحانه يُنبِّهنا إلى هذه القضية، لإسباغ نعمه على خلقه، ويقول:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾(٢)

و«إنْ» هى للأمر المشكوك فيه، وأنتم لن تعدُّوا نعمة الله؛ لأنها فوق الحصر، والمعدود دائمًا يكون مُكرراً، وذَكَر الحق هنا نعمة واحدة، ولم يحددها؛ لأن أيَّ نعمة تستقبلها من الله لو استقصيتها لوجدتَ فيها نِعَمًا لا تُحصَر ولا تُعَدُّ.

إذن: فكلمة «كأين» تعني «كم»، وأنت تقول للولد الذي لم يستذكر دروسه: كم نصحتك؟ وأنت لا تقولها إلا بعد أن يفيض بك الكيل.

---

(١) سورة يوسف: ١٠٥.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٤.

وتأتي «كم» ويُراد بها تضخيم العدد، لا منك أنت المتكلم، ولكن ممَّنْ تُوجِّه إليه الكلام، وكأنك تستأمنه على أنه لن ينطق إلا صِـدْقًا، أو كأنك استحضرتَ النصائح، فوجدتها كثيرة جداً.

والسؤال عن الكمية إمـا أنْ يُلْقَى من المتكلم، وإما أن يُطلب من المخاطب، وطلبُه من المخاطب دليل على أنه سيُقِرّ على نفسه، والإقرار سيد الأدلة.

وحين يقول الحق سبحانه:

﴿ وَكَأَيِّن ﴾[1].

فمعناها أن ما يأتي بعدها كثير..

وسبحانه القائل:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[2] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا[3] لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا[4] وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾[5].

وهكذا نفهم أن «كأين» تـعني الكثير جداً؛ الذي بلغ من الكثرة مـبلغًا يُبرر لنا العذر أمام الغير إنْ لم نُحْصِه.

والآيات هى جمع «آية»؛ وهى الشيء العجيب، المُلْفِت للنظر، ويُقال: فلان آية في الذكاء. أي: إن ذكاءه مَضْرب المثل، كأمر عجيب يفوق ذكاء الآخرين.

ويُقال: فلان آية في الشجاعة؛ وهكذا.

ومعنى الشيء العجيب أنه هو الخارج عن المألوف، ولا يُنسَى.

---

(١) سورة يوسف: ١٠٥.

(٢) الرِّبِّيّ: العالم التقي.

(٣) الوهن: الضعف في العمل.

(٤) استكان: خضع وذل.

(٥) سورة آل عمران: ١٤٦.

وقد نثر الحق سبحانه في الكون آيات عجيبة، ولكل منثور في الكون حكمة. وتنقسم معنى الآيات إلى ثلاث:

الأول: هو الآيات الكونية التي تحدثنا عنها، وهي عجائب؛ وهي حُجة للمتأمل أن يؤمن بالله الذي أوجدها؛ وهي تلفتُك إلى أن مَنْ خلقها لابُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدقّة، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه.

وقد نثر الحق سبحانه هذه الآيات في الكون. وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذي خلقها، ولم يَقُلْ أحد غيره: «أنا الذي خلقت» فهذه المسألة - مسألة الخلق - تثبُت له سبحانه، فهو الخالق وما سواه مخلوق، وهذه الآيات قد خُلِقت من أجل هدف وغاية.

وفي سورة الروم نجد آيات تجمع أغلب آيات الكون؛ فيقول الحق سبحانه:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الروم: ١٧-٢٥.

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود في الكون أنه يتمتع فيه طبقًا لنواميس عليا؛ فيها سرٌّ بقاء حياته، فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها.

وبعد أن ينتبه إلى وجود واحد أعلى؛ كان عليه أن يسأل: ماذا يريد منه هذا الخالق الأعلى؟

هذه الآيات تفرض علينا عقليًّا أن يوجد مَنْ يبلغنا مطلوبَ الواجد الأعلى، وحينما يأتي رسول يقول لنا: إن مَن تبحثون عنه اسمه الله؛ وهو قد بعثني لأبلغكم بمطلوبه منكم أن تعبدوه؛ فتتبعوا أوامره وتتجنبوا نواهيه.

والنوع الثاني من الآيات هى آيات إعجازية، والمراد منها تثبيت دعوة الرسل، فكان ولابُدَّ أن يأتي كل رسول ومعه آية؛ لتثبت صِدْق بلاغه عن الله؛ لأن كل رسول هو من البشر، ولابد له من آية تخرق النواميس، وهى المعجزات التي جاءت مع الرسل.

وهناك آيات حُكْمية، وهى النوع الثالث، وهى الفواصل التي تحمل جُملاً، فيها أحكام القرآن الكريم؛ وهو المنهج الخاتم.

وهى آياتٌ عجيبة أيضًا؛ لأنك لا تجد حُكْمًا من أحكام الدين إلا ويمسٌّ منطقيًّا حاجة من حاجات النفس الإنسانية، والبشر وإنْ كفروا سيُضطرون إلى كثير من القضايا التي كانوا ينكرونها، ولكن لا حَلَّ للمشكلات التي يواجهونها، ولا تُحَلّ إلا بها.

والمثل الواضح هو الطلاق، وهم قد عَابُوا مجيء الإسلام به؛ وقالوا: إن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير من القسوة على الأسرة، لكنهم لجأوا إليه بعد أن عضَّتهم أحداث الحياة، وهكذا اهتدى العقل البشرى إلى حكم كان يناقضه.

وكذلك أمر الربا الذي يحاولون الآن وَضْع نظام ليتحللوا من الربا كله، ويقولون: لا شيء يمنع العقل البشري من التوصُّل إلى ما يفيد.

وهكذا نجد الآيات الكونية هى عجائب بكل المقاييس، والآيات المصاحبة للرسل هى معجزات خَرَقتِ النواميس، وآياتُ القرآن بما فيها من أحكام تَقِي الإنسان من الداء قبل أن يقع، وتُجبرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها.

وهم يُعرضون عن كل الآيات، يُعرضون عن آيات الكون التي إنْ دَقَّقوا فيها لَثبتَ لهم وجود إله خالق؛ ولأخذوا عطاءً من عطاءات الله ليسرى تربية وتنمية، وكل الاكتشافات الحديثة إنما جاءت نتيجة لملاحظاتِ ظاهرةٍ ما في الكون.

وسبق أن ضربتُ المثل بالرجل الذي جلس ليطهو في قِدْر؛ ثم رأى غطاء القِدْر يعلو؛ ففكَّر وتساءل: لماذا يعلو غطاء القدر؟ ولم يُعرِض الرجل عن تأمُّل ذلك، واستنباط حقيقة تحوُّل الماء إلى بخار؛ واستطاع عن طريق ذلك أن يكتشف أن الماء حين يتبخر يتمدد؛ ويحتاج إلى حَيِّزٍ أكبر من الحَيِّز الذي كان فيه قبل التمدد.

وكان هذا التأمُّل وراء اكتشاف طاقة البخاري التي عملتْ بها البواخر والقطارات، وبدأ عصر سُمِّي «عصر البخار». وهذا الذي رأى طَفْوَ طبقٍ على سطح الماء وتأمّل تلك الظاهرة، ووضع قاعدة باسمه، وهى «قاعدة أرشميدس».

وهكذا نجد أن أي إنسان يتأمل الكون بدِقَّة سيجد في ظواهره ما يفيده في الدنيا، كما استفاد العالم من تأملات أرشميدس وغيره؛ ممَّنْ قدَّموا تأملاتهم كملاحظات، تتبعها العلماء ليصلوا إلى اختراعات تفيد البشرية.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يضِنُّ على الكافر بما يفيد العالم ما دام يتأمل ظواهر الكون، ويستنبط منها ما يفيد البشرية.

إذن: فقوله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: ١٠٥.

إن أردتها وسيلة للإيمان بإله، فهي تقودك إلى الإيمان؛ وإنْ أردتها لفائدة الدنيا فالحقُّ لم يبخل على كافر بأن يُعطِيه نتيجة ما يبذل من جهد.

فكل المطلوب ألاّ تمُرَّ على آيات الله وأنت مُعرِض عنها؛ بل على الإنسان أن يُقبِل إقبال الدارس، إما لتنتهى إلى قضية إيمانية تُثرى حياتك؛ وتعطيك حياة لا نهايةَ لها، وهى حياة الآخرة، أو تُسعِد حياتك وحياة غيرك، بأن تبتكر أشياء تفيدك، وتفيد البشرية.

* * *

تكريم الله تعالى لبني الإنسان على سائر المخلوقات

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١).

وهل هناك تكريم لبني آدم أعظم من أنْ يُعدّ لهم مُقومات حياتهم قبل أنْ يخلقهم؟ لقد رتَّب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ (٢).

إذن: فكل ما في الوجود مُسخَّر لكم من قبل أنْ تُوجدَوا؛ لأن خلق الله تعالى إما خادم وإما مخدوم، وأنت أيُّها الإنسان مخدوم من كل أجناس الكون حتى من الملائكة، ألم يَقُلِ الحق سبحانه ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ (٣) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ (٥).

فالكون كله يدور من أجلك وفي خدمتك، يعطيك عطاءً دائمًا لا ينقطع دون سَعْي منك، لذلك نقول: كان من الواجب على العقل المجرد أنْ يقفَ وقفة تأمُّل وتفكُّر؛ ليصل إلى حَلٍّ للغز الكون، وليهتدى إلى أن له خالقًا مُبدعًا، يكفى أن أنظر إلى آيات الله التي تخدمني، وليس لي قدرة عليها، وليست تحت سيطرتي، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر

(١) سورة الإسراء: ٧٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٩.

(٣) له معقبات: أي ملائكة حفظة: تتعاقب.

(٤) سورة الرعد: ١١.

(٥) سورة النازعات: ٥.

والسحاب كلها تعطيني وتُمدّني دون قدرة لي عليها، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول: مَنِ الذي أعدّ لي كلَّ هذه الأشياء التي ما ادَّعاهَا أحد لنفسه؟

فإذا ما صاح صائح منك أيُّها الإنسان وقال: أنا رسول من الرب الذي خلق لكم كل هذه المخلوقات، كان يجب عليكم أنْ تُرهِفُوا له السمع لتسمعوا ما جاء به؛ لأنه سوف يحلُّ لكم هذا اللغز الذي حيّركم.

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذي انقطعتْ به السُّبل في الصحراء حتى أشرف على الهلاك، فإذا هو بمائدة مُعدَّة بأطايب الطعام والشراب، أليس حَرِيًّا به قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يفكر كيف أتته؟

إذن: كان على الإنسان أن يُعمل عقله وفِكْره في معطيات الكون التي تخدمه وتسخر من أجله، وهي لا تأتمر بأمره ولا تخضع لقدرته.

وقد اختلف العلماء في بيان أَوْجُه التكريم في الإنسان، فمنهم مَن قال: كُرِّمَ بالعقل، وآخر قال: كُرِّمَ بالتمييز، وآخر قال: كُرِّمَ بالاختيار، ومنهم مَنْ قال: كُرِّم الإنسان بأنه يسير مرفوع القامة لا مُنحنيًا إلى الأرض كالبهائم، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّم بشكل الأصابع وتناسقها في شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة في تناول الأشياء، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّم بأن يأكلَ بيده لا بفمه كالحيوان، وهكذا كان لكل واحد منهم مَلْحظ في التكريم.

ولنا في مسألة التكريم هذه ملحظ كنت أودُّ أنْ يلتفت إليها العلماء، ألاَ وهو: أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة «كُنْ» إلا آدم، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه، قال تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1].

---

(١) سورة ص: ٧٥.

وقال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[١].

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى أبانا آدم بيده، بدليل أن الله جعلها حيثية له.

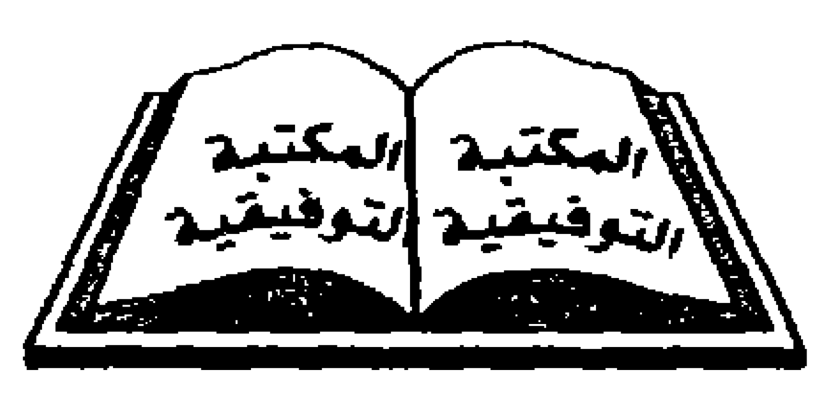
❑ تم الكتاب ❑

* * * * *

(١) سورة الحجر: ٢٩.

فهرس كتاب

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥


Bibliotheca Alexandrina
0679517